المملكة العربيّة السّعوديّة
وزارة التعليم
جامعة القصيم
كلّيّة اللّغة العربيّة والدّراسات الاجتماعيّة
قسم اللّغة العربيّة وآدابها

الخبر الأدبي بنيتُه ودلالاتُه

في كتاب

(المستجاد من فعلات الأجواد للتَّنوخي)

The Literary News: The Structure and Indications in Al-Mustajād min Fiɛlāt Al-AjwādBy Al-Tannūkhī

رسالة مقدّمة لاستكمال متطلّبات الحصول على درجة الماجستير

في الدّراسات الأدبية

إعداد الطالبة

شيخة دحل عبيد الظفيري

الرّقم الجامعي: ٣٨١٢٠٠١٤١

إشراف

د. علي بن الحبيب عبيد

أستاذ الأدب والسّرديات المشارك بقسم اللّغة العربيّة – جامعة القصيم

العام الجامعي

١٤٤١-١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠-٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

إجازة الرسالة

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم

جامعة القصيم

كلية اللغة العربية والدِّراسات الاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

الخبر الأدبي بنيتُه ودلالاتُه في كتاب:

المستجاد من فعلات الأجواد للتنّوخي.

The Literary News: The Structure and Indications in Al-Mustajād min Fiɛlāt Al-AjwādBy Al-Tannūkhī

إعداد الطالبة: شيخة بنت دحل بن عبيد الظفيري

الرقم الجامعي: (٣٨١٢٠٠١٤١)

تمت الموافقة على قبول هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات

درجة ماجستير الآداب في الدراسات الأدبية

لجنة المناقشة والحكم على الرسالة:

أعضاء اللجنة	الاسم	المرتبة العلمية	التخصص	التوقيع
المشرف والمقرر	د. علي بن الحبيب عبيد	أستاذ مشارك	الأدب والنقد	
المناقش الخارجي	د. أحمد بن سعيد العدواني	أستاذ مشارك	الأدب والنقد	
المناقش الداخلي	د. عبد اللطيف بن محمد الجفن	أستاذ مشارك	البلاغة والنقد	

في يوم الأحد: ١٤٤٢/٨/٢٢هـ ، **الموافق** ٢٠٢١/٤/٠٤م

الشُّكر والامتنان

أحمد ربي وأثني عليه بما هو أهله، على نعمه وتوفيقه وتيسيره إتمام هذا البحث.

ولا يسعني إلا تقديم الشكر والامتنان إلى أستاذي/ علي بن الحبيب عبيد، الذي سار معي في هذه الرحلة، وتحمل عناء المتابعة والتوجيه بكل صبر، ورحابة صدر.

كما أشكر من تجاوز معي كل الصعوبات باذلاً الكثير-رفيق الدرب- زوجي الذي سيبقى فضله دينًا لن أستطيع ردّه، ولن أنسى من شكري وعرفاني والدتي سندي الكبير، وعوني العظيم في الحياة، ووالدي الذي لا يُنسى عظيم فضله عليّ إذ كان دعاؤهما سببًا بعد الله في تيسير بحثي.

وكل الامتنان لإخوتي وأخواتي الذين غمروني باللطف ووافر المساندة.

وأقدم هذا البحث لأبنائي -وليد، وزياد، وغيث، وفهد- الذين سرق البحث من وقتي معهم الكثير.

كما أشكر جامعة القصيم، وكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، وأخص قسم اللغة العربية رئيسًا وأعضاء.

الملخص العربي

يُحدّ الخبر الأدبيّ بكونه شكلاً من أشكال الإبداع القصصيّ حاز أهميّة بالغة في مؤلّفات القدامى؛ لما ينطوي عليه من بنية مميّزة ودلالات مهمّة؛ لذلك فقد اخترته موضوعًا أُعنَى فيه بدراسة بنيته ودلالاته. وقد أرسيتُ بعد تقليب نظر في مظانٍّ جمّة على مدوّنة بحث هي (المستجاد من فَعَلات الأجواد) للتَّنوخي؛ لكونها لم تظفر باهتمام الدّارسين، فقد ظلّت أخبارها شبه مُهملة، لذلك، تتبّعتُ في التّمهيد مفهوم البنية لغةً واصطلاحًا، وسلّطتُ الضّوء كذلك على مفهوم الدّلالة، ثمّ تناولتُ مفهوم الخبر الأدبيّ في الموسوعات القديمة وفي كتابات المحدثين، ثم عَرّفتُ بالتَّنوخي وبمؤلَّفه (المستجاد من فعلات الأجواد)، ودرستُ بعدئذٍ الكون الحكائيّ، فتناولتُ بنية الأخبار الإطاريّة المكوّنة من أسانيدَ ومتونٍ، ثمّ درستُ البنية القصصيّة، وقد اشتملت أحداث أخبار المدوّنة على بُنًى متعدّدةٍ، وأمّا سمات الشخصيّات فقد كانت مختلفة، والوظائف مُتنوّعة، في حين أنّ العلاقات بين الفواعل بدت متماسكة متينة. وحين تدبّرتُ زمن الأخبار خلصتُ إلى أنّ تحديده التّاريخيّ ليس بعسير؛ نظرًا إلى حضور أسماء شخصيّات تاريخيّة مشهورة في جلّ أخبار المدوّنة. وكان المكان واضح الحضور تفصح عنه أسماء لمدن كانت مسرحًا لوقائع أخبار كثيرة، كما تنوعت الأماكن فوردت بين مغلقة ومفتوحة.

وعند دراسة مستوى الخطاب تتبّعت الزّمن القصصيّ، والصّيغة، والصّوت السرديّ، فاتّضح لي أنّ سرد الرّاوي راوح في سرعته بين إسراع وإبطاء، على حين أنّ الترتيب كان ترتيبًا تعاقبيًّا يغلب على أفعاله الماضي. وتبيّنت أنّ الرّؤية السّائدة هي رؤية من الخلف ذات تبئير صفريّ، بيد أنّ الخطاب الشّائع في نقل كلام الشخصيّات هو الخطاب المرويّ. على أنّ حضور الرّاوي كان متنوّعًا يراوح بين راوٍ من داخل الحكاية وراوٍ من خارجها، إلاّ أن المرويَّ له كان بين مُشارك في الأحداث وغير مشارك. وعند تناول دلالات الأخبار حاولتُ رصد الأدبيّة منها والمرجعيّة –الذاتيّة والتاريخيّة دون أن أهمل الدّلالة الآيديولوجيّة.

وقد أنهيتُ الرّسالة بخاتمة ذكّرتُ فيها بالنّتائج المستخلصة، وتوّجتُ بحثي بثبت مصادرَ ومراجعَ.

المقدّمة

تنوّعت الأجناس الأدبيّة النثريّة في الأدب العربيّ، واتّخذت أشكالاً مختلفة، منها القصّة والمقامة، والخبر والحكاية المثليّة، والنّادرة وغيرها، ورغم هذا التنّوع الواسع فإنّ النقّاد القدامى ركّزوا اهتمامهم على الشّعر، وبخسوا النّثر حقّه من العناية.

وللخبر في الأجناس الأدبيّة العربيّة القديمة مكانةٌ. وهو يتضمّن نوعين بارزين هما الخبر التاريخيّ والخبر الأدبيّ. وما يهمّ في مُقتضى الحال هو النّوع الثّاني الذي يتألّف ظاهرُه من قول معادٍ، وباطنُه من إبداع ذي قِناع[١]، وغالبًا ما يُحدّ سرديًّا بكونه بنية متنقّلة[٢]. ولكن أيمكن قراءةُ جزء من التّراث قراءة معاصرة تدرجه في حركيّة الفكر والثّقافة المتغيّرة؟ ولعلّ هذا الإشكال حافز على تدبّر بنية الخبر الأدبيّ ودلالاته من خلال كتاب (المستجاد)، لا سيّما أنّه تأليف على قيمة أخباره وحكاياته لم ينل نصيبه من الدّرس، خلافًا لتصانيف التّنوخي الأخرى. لذلك، فقد أعياني الظّفر بدراسات معمّقة ومستقلّة تناولت الخبر الأدبيّ في كتاب (المستجاد) من حيث بنيتُه ودلالاتُه، بيد أنّني مع ذلك عثرتُ على بحوث متعلّقة بأدب التّنوخي، وهي:

بحث محكّم بعنوان (البناء القصصيّ في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد، لأبي علي المحسن بن علي التّنوخي) لـــ(يسرى إسماعيل إبراهيم)[٣]: اعتنت فيه بمنهج التأليف، وبتحليل خبر واحد هو (خبر إبراهيم بن المهدي وهروبه من المأمون)، فدرست أحداثه ومكانه، وزمانه، وشخصيّاته، وتناولت فيه الحوار باقتضاب تامّ، فكان هذا البحث في ثلاث عشرة صفحة لا أكثر ولا أقلّ.

وأمّا الدّراسة الثّانية فوُسمت بـــ(بنية حكاية الكرم في كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد) للمحسن التّنوخي)، لـــ(رائدة لطفي أحمد ذيب)[٤]: وقدْ أفردت الباحثة الفصل

---

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، ص٦٨٨ (منشورات كلية الآداب، منوبة ودار الغرب الإسلامي، بـــيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨).

(٢) نفسه، ص٦٩١.

(٣) يسرى إسماعيل إبراهيم، البناء القصصي في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد للتنوخي، (بحث محكم، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، العدد: ٤٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م).

(٤) رائدة لطفي أحمد ذيب، بنية حكاية الكرم في كتاب المستجاد من فعلات الأجواد (رسالة ماجستير، إشراف سالم

الأوّل لجانب نظريّ، حشدت فيه عناصر مِمّا هو سرديّ ومِمّا هو أسلوبيّ، وأمّا الفصل الثّاني فعنونته ببنائيّات حكاية الكرم، تناولت فيه الوظيفة في بعض الحكايات، بينما اهتمّت في الفصل الثّالث بالبنية السرديّة لحكاية الكرم، في حين ركّزت في الفصل الرّابع على خصوصيّة حكاية الكرم، وحلّلت في الفصل الخامس والأخير ثلاث حكايات من أصل مائة واثنتين وخمسين حكاية قاربتها مقاربة تأويليّة. على أنّ الباحثة ما فتئت تنصّ على أنّ دراستها لم تلتزم بمنهج محدّد. مِمّا جعل تنظيمها القصصيّ مُتّسما ببعض التداخل المنهجيّ.

في حين أنّ الدّراسة الثّالثة تحمل عنوانا هو (السّرد في أدب القاضي التّنوخي)، لـــ(محمد محمود حرب)[١]، وقد تعرّض فيها صاحبها لدراسة آثار التّنوخي في كتبه الثّلاثة (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) و(الفرج بعد الشدّة) و(المستجاد من فعلات الأجواد)، معتبرا إيّاها وحدة نصيّة متكاملة، فتتبّع فيها البنية السرديّة، مركّزا على الرّاوي والاستهلال، والمسرود له والتّبئير، والزّمن السرديّ والمكان، والشخصيّات وبعض الظّواهر الأسلوبيّة. وما قد يُلاحظ في هذه الدراسة أنّها تقدّم تصوّرًا شاملاً عن سرد التّنوخي في تآليفه الثّلاثة، لكنّها هي الأخرى لم تسلم في تحليلها السرديّ من بعض الاضطراب المنهجي، كما أنّها أهملت الدّلالة.

وأمّا الدّراسة الرّابعة والأخيرة فهي (البنية والدّلالة في أخبار القاضي التّنوخي من خلال كتابيْه (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، و(الفرج بعد الشدّة))، لـــ(الشّاذلي البوغالمي)[٢]. وقد اهتمّ الباحث بتعريف بنية الخبر ودلالته استنادًا إلى مدوّنة تختلف عن المدوّنة التي اخترتها. فاعتنى في الباب الأوّل بالإسناد والمتن باعتبارهما مُكوّنين أساسيّين في رواية الأخبار، ثمّ تعرّض في الباب الثّاني للجانب القصصيّ، مركّزا النّظر في الرّاوي والمرويّ له وأساليب القصّ، وفي الباب الثّالث اهتمّ بمستوى الدّلالة، وأمّا في الباب الرّابع فرصد ظاهرة السنّة والعدول.

ومن أهمّ الصّعوبات التي اعترضت سبيل البحث تقاطع مفهوم الخبر مع معارف كثيرة

مرعي الهدروسي، جامعة اليرموك، ٢٠٠٥ م).

(١) محمد محمود حرب، السرد في أدب القاضي التنوخي (رسالة دكتوراه، إشراف عبد الجليل عبد المهدي، الجامعة الأردنية، ٢٠١١م).

(٢) الشاذلي البوغالمي، البنية والدلالة في أخبار القاضي التّنوخي من خلال كتابيه (رسالة دكتوراه، إشراف الحبيب العوادي، جامعة تونس، ٢٠١٣م).

لعلّ أبرزها التاريخ، والإرساء على منهج صالح لمقاربته، واختيار مدوّنة تستحقّ الدّراسة، فضلاً عن أنّ كثرة الأخبار كانت عقبة أخرى كأْداءَ، ذلك أنّ المدوّنة اشتملت على مائة واثنتين وخمسين حكاية، فحرصت على أن أتعامل معها تعاملاً حذرًا، فدرستها دراسة تأليفيّة؛ لأن الدّراسة التأليفيّة قد تسمح بنظرة شموليّة إلى القصص المتفرّقة والتي تجمعها روابط متعدّدة، علاوة على صعوبة التّعامل مع مفاهيم لم تستقرّ مصطلحاتها المعرفيّة بعد، و لم يظفر تعريبها باتّفاق الدّارسين، فكان لا بدّ من الاستعانة بمراجع جامعة لهذا الغرض، ولعلّ أبرزها (معجم السرديات) الذي يُمثّل حصيلة جهد نخبة مختصّة في السّرد.

وقد استفدتُ من التّنظير السرديّ الغربي ولا سيّما في دراسة مستويي الحكاية والدّلالة بما بلوره (تزفتان تودوروف)، وفي مستوى الخطاب القصصي بما أرساه (جيرار جونات)، وفي وجهة النّظر بما سنّه (راباتال).

ولا تفوتني الإشارة إلى أنّ هذا البحث لم يقتصر على الاستنارة بالنّقد القصصيّ الغربيّ، وإنّما سعى إلى الاستفادة من إسهامات النقّاد العرب قدامى ومحدثين فيما يتعلّق بدراسة الخبر الأدبي، وأخصّ بالذّكر محمد القاضي وبحثه (الخبر في الأدب العربي) تحديدًا، حرصًا على التأصيل وردّ الاعتبار إلى تراثنا.

وقد كان الْوُكْدُ من هذه المقاربة الإجابة عن تساؤلات، من أبرزها: ما مُكوّنات البنية في أخبار كتاب (المستجاد)؟ وما أصناف الدّلالات في تلكم الأخبار؟ وفيمَ تتمثّل أدبيّة أخبار التَّنوخي في كتاب (المستجاد)؟ وما مدى تفاعل أخباره مع الأجناس الأدبيّة الأخرى كالقصص والأمثال، والنّوادر والطّرائف والشّعر؟

وقد اقتضى الردّ على تلكم التّساؤلات أن أنهضتُ البحث على تمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة، خصّصتُ التّمهيد لمفاهيم البنية والدّلالة والخبر الأدبي، والتّعريف بالقاضي التَّنوخي، والمدوّنة، وأمّا الفصل الأوّل فاهتممتُ فيه بالكون الحكائي في (المستجاد)، فتدبّرت البنية الإطاريّة والبنية القصصيّة من حيث الأحداثُ والشخصيّاتُ والأزمنة والأمكنة، وجوّدتُ النّظر في الفصل الثّاني في الخطاب القصصيّ، فاعتنيت بزمن القصّ والصّيغة والصّوت السرديّ، وأمّا الفصل الثّالث فكان مداره على الدّلالة في أخبار (المستجاد). وخُتم البحث بأهمّ النّتائج المتوصّل إليها، وتلاها ثبتُ مصادرَ ومراجعَ.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدِّمة إلاّ أن أتقدّم بوافر الشّكر وعظيم الامتنان للمشرف

الأستاذ علي بن الحبيب عبيد، الّذي أغدق عليّ من واسع علمه، وجليل خُلقه، وكثير صبره حتّى ذلّل لي مختلف العراقيل بنصحه وإرشاده، فجزاه الله عنّي خير جزاء.

التمهيد

ويشتمل على ما يلي:

البنية.

الدّلالة.

الخبر الأدبي.

التَّنوخي.

كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد).

البنية:

البنية مفهوم يكتسب مدلوله من البنيويّة[١]. والبنيويّة في الأدب منهج نقديّ قوامُه قوانينُ وآلياتٌ، «تُعنى بشكل الإبداع لا بمضمونه، إلاّ أنّها مع ذلك تعتبر المضمون أمرًا واقعًا، وشيئًا حاصلاً بالضّرورة من خلال العناية بالشّكل»[٢]، ونتيجة لذلك، كان لزاما البدء بتتبع ما تحمله كلمة (بنية) من حيث معناها اللغويّ والاصطلاحيّ.

البنية لغة:

تُشتقّ كلمة بنية من الفعل الثّلاثيّ (ب ن ي)، وورد في المعاجم العربيّة ومنها لسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١هـ): البَنْيُ نقيض الهَدْم، بَنى البَنَّاءُ البِناءَ بَنْيًا وبِناءً وبِنًى، مقصور، وبُنيانًا وبِنْيةً وبِناية[٣]؛ ولذلك فكلمة (بنية) تعني البناء أو الطّريقة وتدلّ أيضًا على معنى التّشييد والكيفيّة الّتي عليها ينهض البناء، فالبنية إنّما تعني مفهوم الهيكل العامّ والطّرائق الّتي بها يستقيم الشّيء.

البنية اصطلاحًا:

اختلف الدّارسون والنقّاد حول تحديد مفهوم البنيويّة، بل إنّ البنيويّين أنفسهم يوردون للبنيويّة تعريفات تختلف من مفكّر إلى آخر. حتّى إنّ البنيويّة لدى البعض[٤] لتعتبر من أبرز المصطلحات القلقة في الفكر المعاصر، على أنّ الكثير يذهب إلى أنّ البنيويّة لا تعدو أن تكون سوى حركة فكرية بمثابة ردّ فعل على نظام التجزئة الّذي ساد الدّراسات العلميّة والإنسانيّة في فترة من الفترات التاريخيّة، بحكم كونها تدعو إلى نظام كليّ متناسق، بل إنشاء فكرة المنظومات المتكاملة في مجال العلوم المختلفة[٥]، وبالتّالي، يمكن اعتبار البنية نسقًا مكوّنًا من

---

(١) (البنيوية) عنوان جامع ابتدعه العالم اللغوي رومان جاكبسون عام ١٩٢٩م، لوصف الأعمال النظرية لحلقة براغ اللغوية، انظر: ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، ص٥٣ (الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م)، وراجت بشكل واسع في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين، فاحتلّت مكان الصدارة في الانثروبولوجيا، والنقد الأدبي، والفلسفة، انظر: الزواوي بغورة، المنهج البنيوي: بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، ط١، ص١٢ (دار الهدى للنشر والطباعة، الجزائر، ٢٠٠١م).

(٢) عبد الملك مرتاض، في نظرية النقد، (د. ط)، ص١٩٤ (دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٢م).

(٣) انظر: ابن منظور، لسان العرب، ط٣، المجلد الأول (دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م).

(٤) محمد بلعفير، البنيوية: النشأة والمفهوم، العدد ١٥، المجلد ١٦، ص ٢٣٩ (مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٧م).

(٥) انظر لتفصيله: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ط٣، ص ص ٦٧-٦٨ (المركز الثقافي العربي،

عناصر مختلفة، تشدّها في ما بينها علاقات دقيقة، وهي تشكل في انتظامها ذاك كلاً متكاملاً.

والبنيويّة كما أسلفنا منهج نقديّ حاول البنيويّون من خلاله اكتشاف القوانين الشّاملة والعلاقات الّتي تتحكّم في الاستخدام الأدبيّ لبنية اللّغة، وقد نشأ هذا المنهج صلب تيارات فكريّة واجتماعيّة، وسياسيّة مختلفة، وغذّته روافد كثيرة وأسهمت في تطويره. وقد فصّل بعضهم القول في هذه الروافد والمنطلقات[١] ابتداءً من آراء (دي سوسير) اللغوية[٢]، والمدرسة الشكلانيّة الروسيّة[٣] فهما حجر الأساس في بلورة هذه النظريّة حتّى وصولها إلى مراحل النّضج الكاملة. على أنّ ما يُلاحظ أن المنهج الإنشائيّ البنيويّ حاز رضا كثير من النقّاد العرب رغم توفّر مناهج جديدة[٤]، وإنّ لهذا المنهج آليات اُستخدمت في تحليل

الدار البيضاء ، المغرب، ٢٠٠٢م).

ويرى (جان بياجيه) أنها «تتكوّن من ميزات ثلاث: الكلية، والتحولات، والضبط الذاتي»، ، فالكلية تجعل العناصر تخضع لقانون الكلّ في العلاقات القائمة بينها رغم تمايزها، أمّا التحولات فهي التغيرات التي تحدث داخل البنية، وأمّا الثالث وهو الضبط الذاتي فيخضع لقانون الكلّ وضمان استمرارية البنية. انظر: جان بياجيه، البنيوية، ت: عارف منيمنه وبشير أبوبري، ط٤، ص٨ (منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٨٩م).

(١) انظر مزيد تفصيل لدى: صلاح فضل، نظرية البنائيّة في النقد الأدبيّ، الطبعة الأولى (دار الشروق، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م).

(٢) ذلك أنّ أدوات التحليل البنيوي الأساسية وخلفيته اللغوية إنّما تمثّل جميعها منهجًا نشأ في أحضان اللسانيّات ابتداء مع مدرسة (براغ)، ثمّ سرعان ما تطورّ على يد اللغوي السويسري (سوسير) من خلال كتابه (دروس في علم اللّغة العامّ)، حيث ميّز بين مستويات ثلاثة من النّشاط اللغوي وهي اللّغة، واللّسان، والكلام. فاللّغة هي المظهر الواسع لأنّها تشمل طاقة الكلام الإنسانيّة، جسديًّا وفكريًّا، وأمّا اللسان فهو نظام من اللّغة يستخدمه كلّ واحد منّا عند محادثة الآخرين، وأمّا أقوالنا الخاصّة فهي الكلام. فاللغة قدرة لسانيّة، واللّسان نظام لغويّ، والكلام قول مخصوص، انظر تفصيله لدى: غسان طعمة، مراجعات: البنيوية في الأدب، العدد: ١٨١، المجلد١٦، ص٣٤٣ (مجلة الموقف الأدبي، الناشر: اتحاد الكتاب العرب، ١٩٨٦م).

(٣) إنّ بعض أركان البنيوية ليست سوى تطوّرات تاريخيّة مباشرة للأفكار والطرائق الشكليّة. ويعدّ أوّل من حاول التأسيس لعلم السّرد هو النّاقد المجري (تزفتان تودوروف) فقد ترجم نصوص الشكلانيّين الروّس إلى اللّغة الفرنسيّة. ونتيجة لذلك فإنّ انطلاق الاتجاهات النقديّة السرديّة إنّما يُعزى إلى النّقدة الشكلانيّين الرّوس من أمثال (شكلوفسكي، وتوماشفسكي، وفلاديمير بروب) وغيرهم. فقد كان لهم السبق في تقسيم الحكاية إلى متن ومبنًى، انظر تفصيله لدى: عقيلة بعيرة، بنية الخطاب السردي في بخلاء الجاحظ، ص١٩ (رسالة ماجستير، إشراف: إسماعيل زردومي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ٢٠١٢م).

(٤) محمد نجيب العمامي، البنية والدلالة في الرواية، ط١، ص٧ (مؤسسة أروقة، القاهرة، ٢٠١٣م).

النصوص بشكل واسع سواءٌ في دراسة النصوص التراثيّة أو المعاصرة[١]. ولكثير من الدّارسين مقاربات تطبيقيّة[٢] تشيد بالبنيويّة من حيث كونها منهجًا يضطلع بتشريح النصّ والرّبط بين عناصره، بيد أنّ البنيويّة في حدّ ذاتها لا تعدم مطاعن وجّهت إليها.

وإنّ ما يهمُّ في هذا المقتضى هو أنّها منهج نقديّ قوامُه دراسة النصّ في ذاته ومن أجل ذاته بمنأى عن أيّ نوع من المؤثّرات الخارجيّة، كالتّاريخ، وذاتيّة المؤلّف، وذوق المتلقّي، وجميعها تمثّل مرتكزات النّقود التاريخيّ والاجتماعيّ والنفسيّ، بحكم كون هذا المنهج البنيويّ إنّما يتعامل مع النصّ بوصفه بنية مغلقة[٣]. لذلك، رفع البنيويون شعار موت المؤلّف كي يضعوا حدًّا لكلّ التّيارات الرّومانسيّة والنفسيّة والاجتماعيّة عند دراسة الأدب ونقده، فتدبّروا النصّ في حدّ ذاته بغضّ النّظر عن مؤلِّفه، والعصر الّذي ينتمي إليه والمعلومات المتّصلة به[٤].

وأمّا عن معنى البنية ومحاولة استخلاصها من خلال دراسة النصوص السرديّة فهما الشّغل الشاغل في هذا البحث الّذي سيتقيّد بدراسة مستوى الحكاية أولاً من خلال كونها مادّة خاما مجرّدة تنهض في السّرد من خلال أركان أربعة، وهي: أحداث، تضطلع بها شخصياتٌ، في زمان ومكان معيّنين، فضلاً عن كونه معنيًّا بدراسة مستوى الخطاب الّذي به تُروى الحكاية. وقوامُه ثلاثة مكوّنات، وهي: الزّمن القصصيّ، والصّيغة، والصّوت.

وبناءً عليه، يتّضح أنّ بنية النصّ السرديّ هي ذاتها الأدبيّة الّتي تميّزه ممّا عداه، والهيئة الّتي

---

(١) تجلت استخدامات البنيوية في مقاربتها للنصوص الأدبية من خلال تطبيقها في تحليل الأدب القصصي بشكل خاص، بداية من (فلاديمير بروب)، و (كلود ليفي شتراوس) إذ درسا المكونات الأساسية للرواية البدائية المتمثلة في قصص الجن والأساطير والقصص الشعبي، انظر لتفصيله: غسان طعمة، مراجعات: البنيوية في الأدب، مرجع سابق، ص٣٤٦.

(٢) يمكن اعتبار السبعينات من القرن العشرين فاتحة عهد النقد العربي بالبنيوية، فيما كانت سنوات الستينيات تمهيدًا له، ويعتبر كتاب الناقد التونسي حسين الواد (البنية القصصية في رسالة الغفران) سنة ١٩٧٢م، هو أول الحصاد النقدي البنيوي، إذ تكتسي دراسته أهمية منهجية وتاريخيّة كبيرة، انظر مزيد تفصيل: يوسف وغليسي، البنية والبنيوية في المعاجم والدراسات الأدبية واللسانية العربية، العدد٦، ص١٢ (مجلة الدراسات اللغوية، تصدر عن مختبر الدراسات اللغوية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠١٠م).

(٣) محمد بلعفير، البنيوية النشأة والمفهوم، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

(٤) انظر: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، الطبعة الأولى، ص٩٨ (ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٠٢م).

تهبه كيانًا أدبيًّا مخصوصًا. فالنصّ بنية مترابطة العناصر، تنتظم وفقها سمات نصوص سرديّة مختلفة. بيد أنّ لهذه البنية وجهًا آخر أدبيًّا يُجلّي ما تنطوي عليه من وجوه عميقة الغور. وهذا الوجه هو مدار الكلام في المبحث التّالي.

الدّلالة:

إذا كان الشّكل في النصّ السرديّ الهدفَ في دراسة البنية، فإنّه لا يخلو من مضمون يحيل إليه ما يُطلق عليه البُعد الدّلالي. ولعلّ القصد منه القيمةُ الّتي يحملها النصّ الأدبيّ بوجه عامّ، سواءٌ كانت قيمة أدبيّة أو مرجعيّة أو آيديولوجيّة. فالدّلالة هي الّتي تمنح النّصوص مضمونها ووظيفتيْها الأدبيّة والتاريخيّة. فلا بُدّ إذن من تحديد مفهوم الدّلالة وأبعادها عند دراسة النصّ السرديّ.

الدّلالة لغة:

إذا تُتُبّع لفظ (دَلَلَ) في معاجم اللغة ألفي من معانيه عند ابن منظور (ت: ٧١١هـ): «الدليل ما يُستدلّ به، والدّليل الدالّ. وقد دلّه على الطريق يدلّه دلالة (بفتح الدّال، أو كسرها، أو ضمها) والفتح أعلى»[١]، وقد جمع ابن منظور الأدلّة في استخدامات القدامى لهذا اللفظ، وقام برسم الإطار المعجميّ للكلمة والّذي ينحصر في الإرشاد أو العلم بالطّريق الّذي يدلّ النّاس ويهديهم.

الدّلالة اصطلاحًا:

كاد النقّاد يجمِعون على أنّ علم الدّلالة مصطلح فنيّ بامتياز، يُستخدم في الإشارة إلى دراسة المعنى الّذي يدلُّ عليه نصّ ما، ويسمّيه بعضهم علم الدّلالة –والدّلالة تُضبط بفتح الدّال وكسرها– وبعضهم يطلق عليه اسم علم المعنى، وبعضهم يشير إليه باسم (السيمانتيك) أخذًا من الكلمة الإنجليزيّة أو الفرنسيّة[٢]، ويُعرف أيضًا بكونه العلم الّذي يدرس الشّروط الواجب توفّرها في الرّمز، سواء كان لغويًّا أو غير لغويّ[٣]، حتّى يكون قادرًا على حمل المعنى[٤]. وقد عُرّف الرّمز بأنّه «مثير بديل يستدعي لنفسه الاستجابة ذاتها

(١) انظر: ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ص٣٩٤.

(٢) انظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط٥، ص١١ (عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م).

(٣) من قبيل السّيميائي كحمرة الوجه الدالة على الخجل، والتصفيق الدال على الاستحسان.. الخ.

(٤) انظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مرجع سابق، ص١١.

الّتي قد يستدعيها شيءٌ آخر عند حضوره. ومن أجل هذا قيل: إنّ الكلمات رموز؛ لأنّها تمثّل شيئًا غير نفسها، وحدّت اللغة بكونها نظامًا من الرّموز الصوتيّة العرفيّة»[١]. واعتبارا لذلك، وما دامت اللّغة في النّصوص الأدبية بالذّات نوعًا من الرّموز الدالّة ذات الأهميّة الخاصة بالنّسبة إلى الإنسان، فهي تحمل بين طيّاتها دلالاتٍ جديرةً بالفحص والدّراسة.

ويرتبط علم الدّلالة بعلوم أخرى كثيرة من قبيل علم اللّغة وما يتعلّق به من مستويات، كالصّوتي والصّرفي والتركيبي، وعلم النّفس والفلسفة ارتباطًا وثيقًا، ويغطّي علم الدّلالة نواحيَ متعدّدة في دراسة العمل الأدبي. فهو يهتمّ بدراسة أحوال النّاس وعاداتهم الاجتماعيّة، وطرق الاتّصال القائمة بينهم عبر الآلات أو الوسائل المستخدمة في ذلك. ولكن هل تُتدبّر الكلمة بوصفها رمزًا دالاً في تناول النصّ السردي أو تتدبّر الدّلالة في السياق الكلامي الّذي تكوّنه الجمل المتتالية؟

على أنّ أكثر النقّاد لا يعتنون بدلالة الكلمة في حدّ ذاتها، وإن كانت للألفاظ دلالات تدرجها في حقول دلاليّة ذات مجالات أخرى في الدرس الدّلالي، علمًا أنّ للكلمة معنى أساسيًّا وآخرَ سياقيًّا، إلاّ أنّ السياق هو الّذي يجعل الكلمة تحمل المعنى المراد منها، والّذي يقصده المؤلّف ويؤوّله القارئ. فإذا توالت الجمل شكّلت مقاما كلاميًّا ذا معنى، يروم المؤلِّف إيصاله من خلال النص الأدبي، فيؤدّي ذلك إلى بلورة معانٍ مختلفة لدى المتلقّي حتّى يقوم بتأويل النصّ المقروء، فيختار عناصرَ مُهمّة، بها يكوّن بنية نصيّة دالّة؛ لذلك كلّه، يخضع التأويل السياقيّ لمعطيات القراءة الفرديّة الّتي تقوم على اختيار عناصر معيّنة من النصّ أثناء جريان تلقّي وحداته الدلاليّة، وإقصاء عناصر أخرى من أجل إغلاق عالمه الدّلاليّ[٢].

واستنادًا إلى ذلك، تخيّرت ألاّ تكون الدراسة بنيةً مستقلّة بذاتها؛ لأنّ الشكل لا بدّ أن ينهض بمضمون تخضع دلالته لطرائق المؤلِّف التعبيريّة وأدواته الفنيّة خضوعها لكيفيّات تعامل القرّاء مع النصّ.

وممّا لا شكّ فيه أنّ مفاتيح النّصوص تتنوّع بتنوّع طرائق قرّائها في تفسيرها، غير أنّني سأركّز النّظر في النصّ، منطلقةً منه، عائدةً إليه في تحليل أبعاد الخبر الأدبيّ الدلاليّة والقيم الّتي

(١) نفسه، ص١٢.

(٢) انظر: حميد لحميداني، القراءة وتوليد الدلالة، ط١، ص ١١٤ (المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م).

تتجاذبه. ولكن ما القصد من مفهوم الخبر الأدبيّ في المدوّنة المختارة؟ وكيف تناوله السرديّون؟

الخبر الأدبي:

الخبر شكل أساسيّ من أشكال السرد العربي القديم، وقد نشأ بدايةً في مصنّفات الفقه والتاريخ، مبنيًّا على ثنائية الإسناد والمتن، مقترنًا بهاجس توثيق النّصوص الهامّة[١]، فالخبر اشترك مع الحديث النبويّ في قيام كليهما على سند ومتن[٢]، وهو يتضمّن نوعين بارزين هما الخبر التاريخيّ والخبر الأدبيّ. وما يهمّ في مقتضى الحال النّوعُ الثّاني الّذي يتألّف ظاهرُه من قول معادٍ، وباطنُه من إبداع ذي قناع[٣]، وغالبا ما يُحدّ سرديًّا بكونه بنيةً متنقّلة[٤]. على أنّ الأخبار الأدبيّة غالبًا ما تتوفّر على أحاديثَ ونوادرَ وطرائفَ رواها بعضهم في مناسبةٍ ما، ثمّ سرعان ما وعتها الذاكرة، وعبّرت عنها عبْر راوٍ، أو محدِّث، أو إخباريّ. فتكون جماليّة الخطاب فيها مُقدَّمة على صحّة الوثوق بنسبها. ولكن ما معنى الخبر الأدبي مُعجميًّا؟ وما التطوّر الّذي شهدته كلمة (خبر) حتّى أدركت ما هي عليه من رسوخ مفهومٍ واكتمال اِصطلاحٍ؟

الخبر لغة:

إنّ الدّلالة المعجميّة كما جاءت في لسان العرب لابن منظور (ت: ٧١١هـ)، وفي القاموس المحيط للفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) في مادّة (خ ب ر) تُحيل إلى معانٍ متعدّدة مثّلت منطلق استخدامات هذه الكلمة. ومنها:

- الخَبْرُ: من مواقع الماء، وهو ما خَبِرَ المسيل في الرّؤوس فتخُوضُ فيه.
- الخَبْرُ والخِبْرُ: المزادَة العظيمة.

---

(١) انظر: محمد العناز، أخبار التنوخي بين الأدبي والتاريخي، العدد ٤٠، ص٢ (مجلة دراسات، تصدر عن اتحاد كتّاب الإمارات، ٢٠١٥م).

(٢) انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الطبعة الأولى، ص ص ١٧٠ – ١٧١ (الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ٢٠١٠م).

(٣) انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، الطبعة الأولى، ص٦٨٨ (منشورات كلية الآداب، منوبة ودار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م).

(٤) نفسه، ص٦٩١.

- الخَبْرُ: شجر السّدر والأراك، وما حولهما من العشب.
- الخَبَرُ: ما أتاك من نبإٍ عمّن تَسْتَخْبِرُ.
- الخَبَرُ: النَّبَأُ والجمع أخبارٌ.

ويتبيّن من ذلك انزياح المعاني الأولى للفظ الخبر عن المعنى الاصطلاحي الّذي عُرف به، وهو الدلالة الأدبيّة لكلمة (خبر) الّتي تناقلها الأدباء والنقّاد إلاّ فيما يتصل بالمعنى الأخير وهو النبأ. فقد تضمّن الخبر من معانيه اللغويّة دلالة الإعلام والإنباء، حيث يخرج من هيئة الحكاية وما تمثّله من وقائع وأحداث إلى حيّز الخطاب الّذي يروي تلكم الأحداث على نحو من البراعة في القصّ.

الخبر اصطلاحًا:

١- الخبر في الموسوعات:

وأمّا الموسوعات العربية فقد لُوحظ أنّها لم تكن تُعنى بتحديد ماهيّة الخبر، بل تطرّقت إليه في إطار ما يحتاج إليه الكاتب من إتقان صناعته، إذ يشير ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) في معرض حديثه عن ثقافة الكاتب وما يحتاجه من أمور إلى تعريف الأدب بكون «المقصود منه عند أهل اللّسان ثمرته، هي الإجادة في فنّيِ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطّبقة وسجع متساوٍ في الإجادة ومسائل من اللّغة والنّحو(...)، وكذلك ذكر المهمّ من الأنساب الشّهيرة والأخبار العامّة»[(١)]، أو قد تتحدّث عنه الموسوعات ضمن معنى مشترك في أكثر من جانب من جوانب المعرفة. على أنّه توجد في مقدمات بعض الكتب إشارة إلى أنّ الخبر فنّ يجاور أجناسًا أدبيّة أخرى من قبيل الشّعر والأمثال. فالوشّاء (ت: ٣٢٥هـ) يُورد في مقدّمة كتابه قوله: «قد جمعنا في هذا الفصل أشياء من مُستطرفات الأشعار ومُستحسن الأخبار، ومُتنخل الأبيات، ومُنتخب المقطّعات»[(٢)]، ومثله القالي (ت: ٣٥٦هـ) في مقدّمة كتابه (الأمالي) في معرض توضيحه منهجَهُ في التّأليف يقول: «وأودعته فنونًا من الأخبار، وضروبًا من الأشعار، وأنواعًا من الأمثال، وغرائب من اللغات»[(٣)]، وكذلك يُلاحظ أنّ التهانوي (ت:

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: سعيد محمود عقيل، ص٦١٢ (دار الجيل، بيروت، ٢٠١٣).
(٢) الوشاء، الموشى أو الظرف والظرفاء، ط١، ص٢٦١ (دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠م).
(٣) انظر: أبو علي القالي، الأمالي، ص٢٤ (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م).

١١٥٨هـ) قدْ عقد فصلاً للخبر يتحدّث عنه بكونه «أعمّ من الحديث؛ لأنّه يصدق على كلّ ما جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعن غيره، بخلاف الحديث فإنّه يختصّ بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فكلّ حديث خبر من غير عكس كليّ، وقيل: هما متباينان، فإنّ الحديث ما جاء عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والخبر ما جاء عن غيره، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالتّواريخ وما شاكلها: الإخباري»[١].

لذلك، يمثّل الخبر أقدم الأشكال السرديّة العربيّة؛ لأنّه نتاج شفويّ في البداية تناقله الرّواة، واستمتع به النّاس في مجالسهم الخاصّة، إذ كان اجتماع أفراد القبيلة للسّمر إحدى أهمّ الظواهر الاجتماعيّة عند العرب، فكان الخبر هو المعبّر الأساسيّ عن الخصوصيّة الشفويّة السرديّة في مظاهرها الأولى والبدائيّة، «ففي فضاء بدويّ ذي نزعة شفاهيّة تؤثر السّرعة والارتجال والتلميح الخاطف يأتي الخبر ليلبّي هذه النّزعة بكلّ شموليتها وخصائصها»[٢]، فيسرد الرّاوي أخبار الأوّلين والآخرين، وأيّام العرب حتّى حوت مُصنّفات الأدباء هذه الأخبار، فاتّسعت دلالة الكلمة، وذلك مع «التحوّل نحو ثقافة المدينة، فأضحى الإبداع همًّا جماليًّا بالدّرجة الأولى [...] ضمن فضاء مُتخم اجتماعيًّا واقتصاديًّا، ذي نمط معيشي ميسور»[٣]، فصعد نجم الأخبار منذ القرن الثّاني للهجرة، وخصوصًا في القرنين الثّالث والرّابع. إذ يُعتبر العصر العباسي في تطوّر النّثر العربي عصرًا مميّزًا، نتيجة تفاعله مع الثّقافات اليونانيّة والهنديّة والفارسيّة، وكلّ معارف الشّعوب الّتي دخلت تحت مظلّتها عن طريق النّقل أو التّرجمة[٤]، وقد يُعايَن ذلك بوضوح في عناوين المؤلّفات على غرار (أخبار اليمن) لعبيد بن شرية الجرهمي (ت: ٦٧هـ)، و(الأخبار الطّوال) لأبي حنيفة (ت: ١٥٠هـ)، و(أخبار مكّة) للأزرقي (ت: ٢٥٠هـ)، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)، وغيرها.

وقد يكون من الصّعوبة بمكان تحديد بداية انطلاق التّأليف في هذا النّشاط الأدبيّ ضمن

---

(١) التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق: علي دحروج، ج٢، ص٣٨١، ومثله (مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د. ت).

(٢) عبد الوهاب شعلان، (السرد العربي القديم، البنية السوسيو ثقافية والخصوصيات الجمالية)، ص١٢٤ (مجلة الموقف العربي، عدد٤١٢، دمشق، ٢٠٠٥م).

(٣) نفسه، ص١٢٥.

(٤) انظر: رفعت التَّهامي عبد البرّ، النَّقد الأدبي العربي القديم، ط١، ص١٦١ (دار النَّشر الدُّولي للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٨م).

تداخل البعدين التّاريخي والأدبي النّاجم عن استخدامات كلمة خبر. فالخبر فرع من فروع المعرفة القديمة، وله بشتّى المعارف المتداولة بين العرب صلاتٌ ووشائجُ تشدّه إلى التّاريخ والأنساب والآداب.

٢- الخبر في مؤلّفات المحدَثين العرب:

وأمّا المُحدَثون فقد التفتوا إلى دراسة فنّ الخبر والتأليف عنه والدّعوة إلى البحث فيه، ويعدّ شكري عيّاد من أوائل من تحدّث عن هذا الفنّ السرديّ في مقال له بعنوان (فنّ الخبر في تراثنا القصصي) نشرته مجلّة فصول عام (١٩٨٢م) عَمد فيه إلى دراسة فنّ الخبر دراسة تطبيقيّة، مركّزًا على كتاب (المكافأة) لابن الدّاية مدوّنة بحث، فكانت مقاربته مُوجزة. وإنّ ما يلفت النّظر في تناوله أنّه لم يخصّص تعريفًا لمفهوم الخبر دقيقًا، بل اقتصر على التنبيه إليه والتحفيز إلى البحث فيه. فكانت أهمّ ملاحظاته أنّ «هذا الفنّ استقلّ عن التّاريخ، واكتسب قيمة أدبيّة خالصة عندما عرفت الحضارة العربيّة طبقة من التجّار وأصحاب الحرف اهتمّت بالسّمات الفرديّة للبشر، فوجدت من النّماذج الغريبّة الّتي قدّمها الجاحظ في أخباره طرافة ومتعة»[(١)].

وأمّا محمّد القاضي فقد أعدّ دراسة مُفصّلة وسمها بـــ(الخبر في الأدب العربي – دراسة في السرديّة العربيّة) تتبّع فيها التطّور الدّلالي لكلمة (خبر) وخَلَصَ إلى وجود تجاذب في استعمال المصطلح بين التّاريخ والأدب، بيد أنّ القاضي أكّد أنّ ذلك الاستعمال قد نحا نحو المعنى التّاريخي أكثر ممّا نحا نحو المعنى الأدبيّ الإبداعيّ[(٢)]، بل يذهب إلى أنّه من الصّعب أن يُعدّ الخبر جنسًا من أجناس الأدب؛ «لأنّه من جهة ضمّ في أحنائه أجناسًا متعدّدة، فالأقرب إلى حقيقة الأمر أن نعدّه شكلاً؛ ولأنّه من جهة أخرى لم يتمحّض للأدب، بل كان مشتركًا بينه وبين مجالاتٍ معرفيّة أُخرى، لعلّ أهمّها التّاريخ»[(٣)]. ولئن راوحت لفظة (خبر) بين جوانب تاريخيّة وأدبيّة مثلما أثبت القاضي، فإنّ الجانب الأدبيّ الإبداعيّ لا يقلّ شأنا عن الجانب التاريخيّ لا سيّما أنّ دراسات لاحقة خاضت في فنّ الخبر من خلال كتبٍ من قبيل

(١) شكري عياد، فن الخبر في تراثنا القصصي، مجلة فصول، المجلد ٢، العدد٤، ص١٣ (الهيئة المصرية العامة للكتـــاب، ١٩٨٢م).

(٢) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٥٧.

(٣) نفسه، ص٥٩١.

(الأغاني)، و(الأمالي)، و(الفرج بعد الشدّة) وغيرها، مجوّدة النّظر في الجانب الأدبيّ.

بينما عرّفت (فدوى مالطي دوجلاس) الحكاية بشكل عامّ بكونها «وحدة سرديّة مستقلّة بذاتها»[١]. غير أنّ القاضي سرعان ما عقّب على تعريفها ذاك مشيرا إلى أنّها استندت فيه إلى مدوّنة محدودة قوامها البناء القصصيّ في كتاب البخلاء الّذي ينتمي دون أدنى شكّ إلى مجال الأخبار[٢]، وقد لا يعدُو القاضي الصّواب في ذلك؛ لأنّ (دوجلاس) درست الحكاية اعتمادًا على كتاب البخلاء. والحكاية واحدة من المصطلحات الّتي دلّت على القصّ في الأدب القديم وارتبطت بالخبر، ومنها أيضًا القصّة والسّيرة، والحديث والرّواية، والمثل وغيرها. إلاّ أنّ محمّد القاضي يذهب إلى أنّ الخبر ينفرد عن بقيّة المصطلحات بكونه «القصّة ذات الصبغة التاريخيّة أو السرديّة»[٣]. على حين أنّ سعيد يقطين يرى أنّ الخبر أصغر وحدة حكائيّة، وأنّ أصل الأنواع الخبرية هي (الخبر، والحكاية، والقصّة، والسّيرة)، وهي أنواع ثابتة يخضع ترتيبها لمبدأين اثنين. أوّلهما: تراكميّ أي من الخبر إلى السيرة. فإذا كان الخبر أصغر وحدة حكائيّة، فإنّ الحكاية تراكم مجموعة من الأخبار المتّصلة، والقصّة تراكم مجموعة من الحكايات، والسّيرة تراكم مجموعة من القصص[٤]. وثانيهما: تكامليّ «ويتجلّى من خلال ارتباط النّوعين الأوّل والثاني (الخبر والحكاية) بالحدث، بينما يتّصل النوعان الآخران (القصّة والسّيرة) بالشخصيّة. فالخبر والحكاية إنّما ينهضان بشكل خاصّ على أحداث معيّنة، إلاّ أنّ في القصّة والسّيرة ينصبّ التركيز فيهما على شخصية معيّنة»[٥].

والخبر كما هو معلوم نوعان: الخبر التاريخيّ المحض وهو الّذي يحمل في جعبته أحداث الماضي وأوضاعه، وينتقل من جيل إلى آخر عبر رواة شهدوا ذلك الحدث أو سمعوا به، والخبر الأدبيّ هذا الذي أروم التركّيز عليه في بحثي، هو الّذي غدا فنًّا سرديًّا ذا صياغة أدبيّة مخصوصة، وتأثير مهمّ في المتلقّي.

---

(١) فدوى مالطي – دوجلاس، بناء النص التراثي، د. ط، ص٢٠ (المكتبة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م).

(٢) انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص١١٥.

(٣) نفسه، ص٦٦.

(٤) سعيد يقطين، الكلام والخبر، ط١، ص١٩٥ (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧م).

(٥) سعيد يقطين، الكلام والخبر، مرجع سابق، ص١٩٦.

وتتألّف بنية الخبر الأدبيّ في تراثنا العربيّ- بلا ريب - من مُكوّنين أساسيين، هما: السّند والمتن. ذلك أنّ الإسناد في الخبر نشأ في أحضان الدّين مُستمَدّا من الحديث النبويّ؛ لذا، كانت وظيفته الجوهريّة إثبات أنّ المرويّ حقيقيّ غير مخترع، علاوة على «إلقاء المؤلّف عهدة الحديث على غيره»[١]، وهو ما أكسبه الأريحيّة الأدبيّة في أكثر أخباره المنقولة.

ولمـــا كان مدار البحث على الخوض في بنية الخبر الأدبيّ ودلالته في كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد) للتَّنوخي، فمن التَّنوخي؟ وما كتابه (المستجاد)؟

التَّنوخي:

ليس من مشمولات هذا البحث العناية بسيرة التَّنوخي الذّاتية؛ ذلك أنّها متوفّرة في مظانّ لا تحصى ولا تعدّ، فضلاً عن كونها أشبعت درسًا. بيد أنّه من الجدير تبيّن أبرز ما اتّسمت به مسيرته الحياتيّة من خطوب، وأخطر ما مرّ به من محن أثّرت في إنتاجه الأدبيّ، ولا سيّما في تأليفه كتاب (المستجاد). إنّه أبو علي المحسِّنُ[٢] بن أبي القاسم علي بن محمّد بن أبي الفهم داوود التَّنوخي[٣]، وكان لنشأة آل التَّنوخي في منطقة جنوب العراق ما بين البصرة والأهواز والأنبار في خضمّ ازدهار التيّارات الفكرية والثقافيّة المزدحمة خلال القرن الهجري الرّابع دور كبير في تكوين قاعدة خصبة من الثّقافة المتنوّعة. فقد كانت البصرة إحدى أهمّ العواصم الثقافيّة في العالم الإسلاميّ، كما أنّ شخصيّة والده المرموقة، أثّرت في توجّهاته الفكريّة والعلميّة والاجتماعيّة. فقد كان مجلس والده القاضي عامرًا بالعلماء والأدباء والمحدّثين، ولعلّ في اختياره مهنةَ القضاء ما يدلّ على تأثّره بالوالد، كما كان لشيوخه ومؤدّبيه دورٌ كبير في كونه الفقيهَ، المحدّثَ، الأديبَ، الشّاعرَ[٤].

---

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٢٨.

(٢) المحسن: بضمّ الميم وفتح الحاء المهملة وكسر السّين المهملة المشدّدة وبعدها نون، انظر: ابـــن خلّكـــان، وفيـــات الأعيان، ج٤، ص١٦٢.

(٣) انظر ترجمته في: الزركلي، الأعلام، ج٥، ص٢٨٨/ ياقوت الحموي، معجـــم الأدبـــاء، ج٥، ص٢٢٨٠/ ابـــن الجوزي، المنتظم في تـــاريخ الملـــوك والأمـــم، ج ١٤، ص٣٧٣/ ابـــن خلكـــان، وفيـــات الأعيـــان، ج٤، ص١٦٢/ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ١٥، ص١٩٩/ القرشي، الجواهر المضية في طبقات الحنفيـــة، ج٣، ص٤٢٢/ الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص٤٠٥/ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص٤٦٩.

(٤) انظر: المحسن التنوخي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، ج١، ص٢٠ (دار صادر، بيروت، ١٩٧١م).

وقد انخرط التَّنوخي في سلك القضاء مبكّرًا حتّى اتصل بعضد الدّولة وصار من أخلص ندمائه، فولاّه قضاء الموصل وضواحيها[١]، وزاد اتّصاله بحُكّام العراق فحاز مكانة، ولكنّه بعد خمس سنوات تعرّض لسخط عضد الدّولة وغضبه، فعزله من جميع مناصبه وألزمه الإقامة في منزله سنة ٣٧١هـ[٢]؛ ممّا جعله يمرّ بعزلة اجتماعيّة وضائقة ماليّة أثرت فيه تأثيرًا كبيرًا، ثمّ سرعان ما عاد إلى تولّي أعماله في بغداد بعد وفاة عضد الدّولة، ثمّ وافاه الأجل ببغداد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة للهجرة (٣٨٤هـ)[٣].

وإذا كان ذلك في ما يتعلّق بالمؤلِّف فماذا عن التأليف أي عن كتاب (المستجاد)؟

كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد):

يُعدُّ كتاب (المستجاد) أصغر مؤلّفات التَّنوخي حجمًا، وقد حقّقه ونشره محمد كَرد علي[٤]، وهو من المصنّفات المقصورة على موضوع واحد، إذ يَعْرض فيه المؤلِّف صورًا مختلفة لأخبار الكرماء في الجاهليّة والإسلام، على غرار الجاحظ في أخبار بخلائه[٥]، وهو بذلك مثل غيره من مصنّفات القرن الرابع الهجري يُعدّ دليلاً بارزًا على التطوّر الّذي بلغه النّثر الفنيّ العربيّ، فقد أضحى مجال التخصّص فيه متاحًا للأدباء، وأمّا عن تاريخ تأليفه فمن الصّعوبة بمكان تحديده، فكلّ ما يقال فيه لا يعدو أن يكون من باب الترجيح والافتراض؛ ذلك أنّ التَّنوخي أكمل هذا الكتاب إثر كتابه (الفرج بعد الشدّة)، والدليل على ذلك ورود سنة ٣٧٣هـ في إحدى حكايات (المستجاد)، وهو ما يشف عن أنّ إعداده كان في أَخَرَةٍ من حياة صاحبه.

دواعي تأليف التَّنوخي كتابه:

يُرجّح أنّ السّبب الحقيقيّ الّذي دفع القاضي التَّنوخي إلى تأليفه هو انتشار الفقر زمنئذ؛ جرّاء الظّروف الاقتصاديّة السيّئة، وتأثير الضّائقة الماليّة الّتي مرّ بها التَّنوخي إثر غضب عضد

(١) انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ط١، تحقيق: إحسان عباس، ج٥، ص٢٢٨٦ (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م).

(٢) نفسه: ص٢٢٨٩.

(٣) نفسه، ص٢٢٨٠.

(٤) نُشر عن دار الترقّي، دمشق ١٩٤٦م، وهي النّسخة المعتمدة في هذا البحث. ثم أعيد نشره عام ١٩٧٠م.

(٥) يسرى إسماعيل، البناء القصصي في كتاب المستجاد، مجلة آداب الرافدين، العدد ٤٢، ص٨٧ (جامعة الموصل، ٢٠٠٥م).

الدّولة ونكبته وعزله من منصبه. فكتابا (الفرج بعد الشدّة)، و(المستجاد من فعلات الأجواد) إنّما يشفّان عمّا شهده التّنوخي من تجاربَ وأحداثٍ. ولعلّه رغب في حثّ الغير وبالأخصّ أصحاب النّفوذ على مدّ يد العون له، ومساعدة ما عداه ممّن كانوا يعانون الفقر والفاقة.

منهج التّنوخي في تأليف الكتاب:

استهلّ التّنوخي كتابه بمقدّمة مُوجزة ضمّنها أسباب تصنيفه الكتابَ، فأشار إلى أنّ شخصًا لم يذكر اسمه طلب منه[١] أن يؤلّف له كتابًا في الأجواد وفعلاتهم، كما عرض منهجه ومقاصده. وقد ضمّ الكتاب مائة واثنين وخمسين خبرًا، ذيّلها «بنُكتٍ عجيبة من الأجوبة المصيبة، وهي سبعة وستّون جوابًا»[٢]، تحتوي على قواعد حُسن التصرّف وعلى أمور تربويّة وتهذيبيّة. كما تضمّن الكتاب مقطوعات شعريّة شتّى، بعضها لشعراء مشهورين، وأخرى لنساء وجوارٍ شاعرات سكت أيضًا عن البوح بأسمائهنّ. وأمّا مضمون القسم الأعظم من هذه المقطوعات الشعريّة فقد كان يساير موضوع الكتاب، وهو الجود والكرم[٣]. وقدْ جمع التّنوخي أخبار كتابه دون مراعاة التسلسل التاريخيّ في ترتيبها، على حين أنّ الأخبار إن أخضعت لتقسيم العصور التاريخيّة الإسلاميّة لكانت على هذا النّحو

(١) لعلّ ذلك يثبت أنّ السرد العربي القديم سرد طلبيّ وليد رغبة الآخر الّذي يبدي شغفًا بسماع الحكي، وقد تحدّث عبد الوهاب شعلان عن استحضار نوعين من الطّلب السرديّ، طلب خارجي، وطلب داخلي، فالطلب الخارجي يكون تحفيزًا لعملية التأليف السردي في حدّ ذاتها، وهو موجّه أساسًا إلى المؤلِّف الأوّل للنصّ، يثيره كي يباشر الحكي ويشكّل نصه السردي، ومثاله ما جاء في مقدّمة التّنوخي، وأمّا الطلب الداخليّ فيكون نتيجة تحفيز الراوي للمتلقي كي يباشر العملية السرديّة. ومثاله نصّ ألف ليلة وليلة واستجابة شهريار في إصغائه لما تحكيه شهرزاد وإن لم يتم الطلب بصيغة واضحة. على أنّ هذا الطلب إنّما يتموضع ضمن بنية النص السردية، خلافا للطلب الخارجي الذي يكون مفارقًا للعملية السردية. إنّه فعل يتم قبل عمليّة الكتابة والتأليف، انظر مزيد تفصيل: عبد الوهاب شعلان، السرد العربي القديم، البنية السوسيوثقافيّة والخصوصيّات الجماليّة، مرجع سابق، ص١٢٨ .

(٢) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، تحقيق: محمد كرد علي، ص٢٤٤ (مطبوعات المجمع العلمي العربي ومطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٦م).

(٣) «وقد اقتبس التّنوخي حكايات الكتاب من مصادر في الغالب لم ينبه إليها ونسب السند إلى مجهول كقوله (روي) و(قيل) و(حكى)»، وأغلب الظنّ أنّ التّنوخي عندما استخدم هذه الطّريقة كان يمنّي النفس أن تُروى حكاياته هذه وأن تنتشر بين النّاس. انظر تفصيله لدى: سلوى عبد الفتاح درويش، المحسن بن علي التّنوخي، رسالة ماجستير، إشراف محمود إبراهيم، ص١٤٣ (الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤م).

الّذي تجسّده الخُطاطة التّالية:

العصر التاريخي	عدد الأخبار
الجاهليّ	٧
الرّاشديّ	٢٤
الأمويّ	٤٥
العبّاسيّ	٧٢

وأمّا عن اليونان والخزر فقد أورد ممّا تنُوقل من أخبارهما خبرًا واحدًا لكلّ حضارة. وممّا قد يُلاحظ في شأن هذه الأخبار أنّها وردت مُشتّتة متداخلة، يعوزها الترتيب التاريخيّ. على أنّ أخبار العصر العبّاسي قد تكون هي الطّاغية على حكايات الكتاب برمّته، كما اعتمد على مبدأ الانتقاء والاختيار لاستصفاء النصوص الجيدة، وقدْ تناول التّنوخي من خلال هذه النصوص ظاهرة الكرم في بعدين اثنين، وهما: الكرم الماديّ المألوف، والكرم المعنويّ الّذي من أشكاله حفظ السرّ وإجارة الخائف وغيرها.

مميّزات الكتاب:

تعدّ أخبار الكتاب من أطول الأخبار في سرد التّنوخي، وهذا الطول قد ساعد الرّاويَ على تقديم مرويّه بطريقة مناسبة تخوّل له التوسّع الّذي قد يمكّنه من وصف الشخصيات وتقديمها وتطوير الأحداث، وربط أكثر من حدث في خبر واحد. على أنّ ما به يتميّز كتاب (المستجاد) فسيعاين عند تدبّر بنية أخباره ودلالتها في فصول البحث اللاّحقة.

لقد كان القصد من هذا التّمهيد أن يكون جسر عبور إلى فصول يتمّ فيها تدبّر مدوّنة البحث وفق أهداف المقدّمة. وقد دعت إلى هذا التّمهيد حاجة تجويد النّظر في معنى البنية الّتي ستُدرس استنادًا إلى المدوّنة من جهة، وفي الدّلالة الثّاوية في هذه الأخبار من جهة أخرى، بغية الوقوف على ما قصده القدامى والمحدثون بفنّ الخبر الأدبيّ، فالتعرّف إلى التّنوخي ومُصنَّفه (المستجاد).

ولئن كانت هذه الإلمامة جزئيّة يعوزها التعمّق فإنّ خلاصتها مجموعة نتائج تفيد في دراسة هذا الشّكل الأدبيّ؛ إذ إنّ بنية النصّ الأدبّي هي هيئته الأدبيّة الّتي تشكّل ملامحه وتحدّد هويّته بين مجموعة من أجناس وأشكال مختلفة، كما إنّ دلالة النصّ هي تأويله والبحث عن

خفايا الجمال الكامنة فيه من خلال دراسة أدوات المؤلِّف الفنيّة وطرائقه التعبيريّة، وكذلك تأويل القارئ نفسه للنصّ المقروء، ويُعدّ الخبر الأدبيّ شكلاً من أشكال السّرد القديم يحمل مؤلِّفه همّ الإمتاع والتأثير في المتلقّي بحرصه على إيصال المعلومة إليه، وأمّا بنية الخبر الأدبيّ فتقوم على مُكوّنين أساسيّين هما: السّند والمتن، كما إنّ القاضي المحسن التَّنوخي، وُلد ونشأ في رحاب الحياة العلميّة والمعرفيّة، وكان مُتقنًا علومَ العربيّة، وقد استهلّ مشواره المهنيّ قاضيًا، وبلغ منزلة خوّلت له أن يصبح نديم عضد الدّولة.

وبناءً عليه، يجدر المضيّ إلى الأخبار الّتي تمّ اختيارها بغية تدبّر أهمّ سماتها ودلالاتها، والخوض في كونها الحكائيّ ابتداءً. ولكن ما بُنى هذا الكون الحكائي الجديرة بالدّراسة؟

الفصل الأوّل
الكون الحكائي في (المستجاد)

ويشتمل على ما يلي:

مدخل.

المبحث الأوّل: البنية الإطاريّة:

١- الإسناد في أخبار (المستجاد):

- خصائص الإسناد.

- وظائف الإسناد.

٢- المتن الحكائي في (المستجاد):

- خصائص المتون.

- وظائف المتون.

المبحث الثّاني: البنية القصصيّة:

١- الوقائع.

٢- الشخصيّات.

٣- الأزمنة والأمكنة.

مدخل:

صيغت جلّ الأخبار في الموروث العربيّ وفق ثنائيّة الإسناد والمتن، وقد ترسّخت تلك الثنائيّة في مختلف أنواع التّآليف، ولا سيّما منها النّاهضة على المشافهة[١]؛ ممّا أدّى إلى ظهور قسمين أساسيين في أيّ كلام، سواء كان شفويًّا أو مدونًا، وإذا كان الطّرف الأوّل منه يحتضن الإسناد، فإنّ الثّاني يتضمّن المتن. وتبعا لذلك، يمثّل أسلوب الرّواية بسنده ومتنه ما يُعرف ببنية الأخبار الإطاريّة الّتي ستكون مدار المبحث الأوّل من هذا الفصل.

وأمّا التّمييز في العمل السرديّ بين مستويي الحكاية والخطاب فليس سوى «تمييز نظريّ محض»[٢]، حتّى عُدّ الفصل بينهما في نظر البعض فصلاً منهجيًّا بحت[٣]، ذلك أنّ الحكاية مادّة خام يتولّى الخطاب مُهمّة إخراجها «من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل»[٤]، وهي تتكوّن من «الأحداث والقائمين بها، وأزمنتها، وأمكنتها»[٥]، وذاك ما يُشكّل البنية القصصيّة الّتي يقوم عليها التحليل في المبحث الثاني.

وإذا كانت البنية الإطاريّة والبنية القصصيّة عمدتي الكون الحكائي في (المستجاد) فإنّ السُّؤال الّذي يظلّ يخامر المرء: ما طبيعة البنية الإطارية؟ وما خصائصها؟ وما وظائفها؟

---

(١) عبد الله إبراهيم، النثر العربي القديم: بحث في البنية السردية، ط١، ص٦ (المجلس الوطني للثقافة والفنون، الدوحة، ٢٠٠٢م).

(٢) يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، ط٢، ص٤١ (دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٩م).

(٣) محمد القاضي، تحليل النص السردي بين النظرية والتطبيق، ط١، ص٥٤ (مسكيلياني للنشر، تونس، ١٩٩٧م).

(٤) محمد نجيب العمامي، البنية والدلالة في الرواية، مرجع سابق، ص١٣ .

(٥) نفسه الصفحة، نفسها.

المبحث الأول: البنية الإطاريّة:

لئنْ راجت البنية الإطاريّة المكونة من الإسناد والمتن كما هو معروف في الحديث النّبويّ فإنّها لا تعدم تجلّيًا أيضًا في المأثور السرديّ العربيّ عمومًا، بل إنّ حضورها تواتر في أدب الأخبار، حتّى مثّل الإسنادُ والمتن أساس نظامها في كتاب (المستجاد)، مثلما سيتّضح لاحقًا.

١- الإسناد في أخبار (المستجاد):

رافقت ظاهرة الإسناد في الإنتاج الأدبيّ أكثر النّصوص السرديّة القديمة مثل (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني، و(البخلاء) للجاحظ، و(الفرج بعد الشدّة) للتّنوخي وغيرها. وتنوّعت صيغ الإسناد في المأثور العربي. حسبي منها (بلغني أيّها الملك السّعيد) في ألف ليلة وليلة، و(زعموا) في كليلة ودمنة، و(حدثنا عيسى بن هشام) في مقامات الهمذاني، واحتفت النّصوص السرديّة العربيّة القديمة بمقدّماتها الإسنادية، وحافظت عليها طيلة مسار النصّ السرديّ، ولئن اكتسى الإسناد مترلة مرموقة في مختلف أبواب المعرفة العربيّة فإنّ استخدام العرب المحدثين إيّاه قد ورد متفاوتًا في تصانيفهم. وقد حَدّ علماء الحديث السّند بكونه «طريق المتن، أي سلسلة الروّاة الّذين نقلوا المتن عن مصدره الأوّل»[١]. بل اعتبره بعضهم «مفتاحًا أساسيًّا من مفاتيح الأخبار»[٢]، حتّى إنّ الرّاوي غالبا ما يجنح إليه عند إنشاء حلقة وصل بينه وبين مصدر الخبر[٣]. فقد سعى المؤلِّف العربيّ إلى التوسّل بالإسناد آليّةً سرديّة مُهمّة، بها يستهدف الإقناع بصدق كلامه وموضوعيّته؛ إذ «الخبر لا يُعترف به إلاّ إذا كان الّذي يبلّغه معروفًا بالنزاهة والأمانة. بل إنّ الخبر الّذي تتوفّر فيه الشّروط المطلوبة هو الخبر الّذي يبلّغه رواة عديدون لا يتعارفون، بل إنّهم لم يتفقوا على إذاعة خبر كاذب»[٤].

فما أهمّ خصائص الإسناد في المدونة؟ وما الوظائف الّتي بها اضطلع؟

---

(١) شرف الدين الراجحي، مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب، ط١، ص٧٣ (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣م).

(٢) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٤٧.

(٣) نفسه، ص٢٢٧.

(٤) عبد الفتاح كيليطو، الغائب: دراسة في مقامة للحريري، ط٣، ص٥٣ (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م).

- خصائص الإسناد:

تتنوّع أسانيد (المستجاد) من حيث خصائصُها ووظائفُها. فحلقات الإسناد في الكتاب تختلف طولاً وقصرًا من خبر إلى آخر. ولعلّ الدليل في ذلك قول التَّنوخي ذاته في إسناد طويل: «قال أبو الفرج الأصبهاني: حدّثني الحسن بن علي قال: حدّثني عبد الله بن أحمد ابن حنبل، قال: حدّثنا إسحاق بن موسى الأنصاري، قال: حدّثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال: ...»[١]، وقوله في إسناد قصير: «قال الحارث المحاسبي»[٢].

ومثلما تتنوّع حلقات السّند تتنوّع أفعال الإسناد على نحو ما يجلّيه الجدولُ التّالي:

أفعال الإسناد في أخبار (المستجاد)	عدد الأخبار الّتي وردت فيها
- روي	٥
- قال	٤٩
- يروى	٦
- حكي	٦
- قيل	٢٩
- حدَّث	٢٤
- أخبر	١
- ذكر	٧

وإنّ ما يُستخلص من هذا الجدول أنّ الأخبار في (المستجاد) لا تُستهلّ بالفاتحة السّرديّة نفسها، بل إنّها لا تلبث أن تتغيّر من خبر إلى آخر، بيد أن بعض الأخبار جاءت خالية من فعل الإسناد تحيل إلى حلقة الإسناد مباشرةً بصيغة «عن فلان ...».

وأمّا إذا انتقلنا إلى الروّاة الّذين أوردهم التَّنوخي في سلاسل إسناده فإنّ ما يُلاحظ هو تَكرار أسماء رواة مخصوصين، وغالبًا ما يتردّد ذكرُهم في أسانيدَ عديدةٍ مثل (أبي الفرج الأصفهاني) الّذي نقل عنه التَّنوخي كثيرًا من الأخبار، وفي المقابل تغيب أسماء رواة آخرين. فقد نَزع المؤلِّف في إسناده إلى التّعميم كما يتجلّى في قوله: «حُكي عن بعض أهل

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٥.

(٢) نفسه، ص١٥.

العلم»[١]، أو قوله: «قال بعض العرب»[٢]، وذاك يقف دليلاً على إهمال التَّنوخي الأسانيدَ. ولكن بإنعام النّظر في أخبار (المستجاد) يتبيّن أنّ ذلك لا يمثّل قاعدة راسخة لدى التَّنوخي. فقد التزم بالإسناد في أخبار كثيرة، لكنّه مع ذلك أهمله في أخبار أخرى. حسبُنا دليلاً الجدولُ التّالي:

الحالة	مجموع الأخبار
الإسناد	١٣٠
عدم الإسناد	٢٢

يُلاحظ اعتمادًا على الجدول أنّ الأخبار المسندة يفوق عددها عدد الأخبار غير المسندة. وهو ما يؤكّد إصرار التَّنوخي على الإسناد وتمسّكه به أكثر من تفريطه فيه.

وأمّا من حيث الشّكلُ فأسانيد التَّنوخي تتشابه وأسانيد المحدِّثين، فاستواء الإسناد ونشأته في أحضان علم الحديث جعلاَ كثيرًا من الرّواة ومؤلِّفي مصنّفات الأدب ينسجون على المنوال نفسه[٣]، وممّا قد يُستفاد أيضًا أنّ التَّنوخي استعمل مصطلحات الأداء ذاتها الّتي كان يستخدمها المحدّثون من قبيل: (قرأتُ)، و(سمعتُ) وغيرهما، كقوله: «قرأتُ في بعض أخبار الأوائل»[٤]، إلاّ أن التَّنوخي يختلف عن المحدّثين في كونه كثيرًا ما كان يذكّر بوجود الإسناد دون إيراد السّلسلة بل كان يهملها إهمالاً واضحًا. وليس أدلّ على ذلك من قوله: «حدّث عبد الرّحمن بن عمر الفهريّ عن رجال سمّاهم»[٥]، وقوله: «قال أبو الفرج الأصبهاني بإسناد ذكره»[٦]. فهو يكتفي بالإشارة إلى الإسناد دون ذكره، كما أنّه لا يجد حرجًا في إجمال الإسناد أحيانًا بإخفاء أسماء الرّواة كقوله: «أخبرني بعض عمال شيوخنا»[٧]، وقوله: «حكي عن بعض أهل العلم»[١]، وهذا يبيّن أنّ المؤلِّف لم يَرسُ على

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص ٦٣.
(٢) نفسه، ص١٨٧.
(٣) انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٠٦.
(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٤٦.
(٥) نفسه، ص٥٣.
(٦) نفسه، ص١١٥.
(٧) نفسه، ص٢٦.

موقف موحّد من ظاهرة الإسناد، فهو حينًا يلتزم به التزام أهل الحديث، وأحيانًا أخرى يخرجه مخرجًا جديدًا، قد تكون فرضته ظاهرة الأدب الإبداعيّة. ولا غرو، فالسّند يُؤدّي أدوارًا عديدة داخل الأخبار، بل ينهض بوظائف شتّى. فما تلكم الوظائفُ الّتي اِضطلع بها الإسناد داخل أخبار المدونة؟

- وظائف الإسناد:

يرد الإسناد في أدب الأخبار غالبا لإثبات أنّ الخبر ليس من وضع المؤلِّف، بل هو نقله عمّن روى، زد على ذلك أنّ له وظيفة أخرى وهي توثيق المتن ومصادره. فقد سعى التّنوخي إلى تقديم سلاسل عديدة للمتن الواحد، وحرص على الجمع بين المصادر المسموعة والمصادر المقروءة كقوله: «حدّثني أبو الفرج الأصبهاني من حفظه قال: قرأتُ في بعض كتب الأوائل»[٢]. على أنّ الإسناد إنّما يؤدّي كذلك أدوارًا أخرى تعضد التّوثيق. منها تقديمُه معلومات مُتّصلة بظروف الرّواية عبر ضبط المكان، وآية ذلك قوله: «حدّث أبو بكر محمد ابن علي الماذرائي بمصر»[٣]. بل قد يوظّف التّنوخي أحيانًا الأسانيد قصد التّعريف بالرّواة، من ذلك قولُه: «عن محمّد بن المنكدر عن أمّ ذرة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها»[٤]. وهذا إنّما يلفت الانتباه - كما أسلفت - إلى ظاهرة جماعيّة تخصّ التّوثيق، قد تكون بدافع نزعة ثقافيّة عربيّة تُؤْثر الصّدق والموضوعيّة. وقد يكون المحسن التّنوخي عثر على ضالّته في تلكم الثّقافة الدينيّة الإسلاميّة القائمة على التّجريح والتّصحيح[٥].

وإذا كانت الوظيفة التوثيقيّة قد لعبت دورًا رائدًا في الأخبار فإنّ للإسناد أيضًا وظائف أخرى فنيّة لا تنسى. ولعلّ أهمّها:

- التّمهيد للمتن الحكائيّ عبر الاستهلال السرديّ[٦]، وهو ما يدّل فعلاً على أهميّة الفاتحة

(١) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٦٣.

(٢) نفسه، ص٤٦.

(٣) نفسه، ص١٣٤.

(٤) نفسه، ص١٣.

(٥) عبد الوهاب شعلان، (السرد العربي القديم، البنية السوسيو ثقافية والخصوصيات الجمالية)، مرجع سابق، ص ص ٦-٧ .

(٦) إذ يرى محمد القاضي «أنّ المؤلِّف يجعل للإسناد وظيفة تشبه إلى حدّ بعيد وظيفة الطقوس الأولية التي توجد في حالات التعبد أو السحر، إذ هي مدخل لاحتواء المريد وإحاطته بضروب من القيود لا يستطيع منها فكاكا».

الإسناديّة بوصفها ضربًا من التّمهيد للسّرد.

- فضلاً عن أنّ الإسناد يضطلع بدور فنّيّ ذي بال وهو تحديد طابع المتن. فأكثر أخبار (المستجاد) تُفتتح بصيغ إسناديّة من قبيل (حُكي)، و(رُوي)، و(ذُكر)، و(حدّث)، وهي صيغ لا تفتأ تشفّ عن منحًى سرديّ قصصيّ، متنكّبة بالخبر عن التّأريخ، دافعة به في خضمّ الإبداع الأدبيّ.
- علاوة على أنّ للإسناد أيضًا وظيفة أخرى وهي الإعلان عن بداية السّرد؛ لأنّ السّرد قد يحتاج إلى الإعلان عن نفسه بصيغة من الصّيغ تكون من حيث الحكايةُ كالإطار بالنّسبة إلى اللّوحة[1]، وإنّ هذه الصّيغ الافتتاحيّة لَتحدّد جنس القصّ وطبيعة الخبر، من ذلك قول المؤلِّف: «وملح ما سطّر، ومُستحسن ما ذكر ما حدّث به رسول ملك الخزر...»[2].

وممّا يُلاحظ من طرافة أسانيد التَّنوخي أنّها بقدر ما تفصح عن جانب من برنامج الخبر السرديّ فإنّها تسكت عن جانب آخر قصد خلق التّشويق في نفس المتلقّي. حسبي قولُه: «ومن ملح أخبار القاضي أحمد بن أبي دؤاد...»[3].

يُتبيّن من خلال تدبّر أسانيد أخبار (المستجاد) أنّ الوظائف الّتي اضطلعت بها تلكم الأسانيد إنّما مدارها على قطبين أساسيين. الأوّل واقعيّ تاريخيّ، والثّاني أدبيّ فنيّ. فإنْ اُستخدم الإسنادُ من جهة قصد إضفاء الواقعيّة على الخبر، فإنّه من جهة أخرى يكتسي شكلاً من أشكال القصّ؛ لأنّه غالبا ما يكون حيلة فنيّة يبتدعها التَّنوخي للتحدّث من وراء حجاب، ذلك أنّه – وكما سنعاين لاحقًا– ومن خلال أخبار شتّى هو المتحدّثُ الرّسميّ، فلا تنطق الشخصيّات إلاّ بما يبتغي أن تتحدّث به؛ لأنّها ليست سوى أقنعة بها يتستّر.

ممّا سبق بانت أهميّة الإسناد في أدب الأخبار، ولعلّ هذه الأهميّة تزداد بدراسة المتن الحكائي. فما أنواع المتون في (المستجاد)؟ وما الوظائف الّتي بها اضطلعت؟

انظر مزيد تفصيل لدى: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٣٣.

(١) انظر: عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، ط١، ص٣٤ (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨م).

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١٣.

(٣) نفسه، ص٢٠٦.

٢- المتن الحكائي في أخبار (المستجاد):

المتن هو «ما يسبق الإسناد في الواقع ويليه في النص»[١]، ومدار المتن على حكاية الأحداث والأحوال والأقوال، هو يقع من الإسناد موقع القصة المضمنة من القصة الإطار، وقد انضوت المتون إلى المدونة المختارة باعتبارها وحدة أكبر، فقد صيغت وفق نظام مخصوص وهو النظام الغرضي الّذي «قوامه جمع الأخبار الّتي تتّصل بموضوع واحد»[٢]، وقد تقيّد التّنوخي بهذه الطريقة في تقديم أخبار (المستجاد)، فنصّ في المقدّمة على أنّ منهجه في التأليف قائم على تخيّر الأجود والأرشد، إذ يخاطب قارئه قائلاً: «أجمع لك من أخبار الأجواد أجودها، ومن فعالات الكرام أسناها وأرشدها»[٣]، وبهذا يكون قد حدّد غرضه من تأليف كتابه وهو جمع أخبار الأجواد وفعلات الكرام، وأمام وفرة المادة الخبرية الّتي جمعها من مصادر مسموعة ومقروءة وجد التّنوخي نفسه مضطرًّا إلى انتقاء النصوص، إذ يقول في مقدّمة كتابه: «تخيّرت من ذلك ما سنح لي في الحال، ممّا أحسبه يستفزّ القارئ والسّامع»[٤]، معترفًا بكونه مارس على أخباره دورًا انتقائيًّا.

- خصائص المتون:

يُستشفّ أنّ متون أخبار (المستجاد) تتفاوت طولاً وقصرًا، إلاّ أنّ الإيجاز كان الغالب عليها، فضلاً عن أنّ الخبر كان «شكلاً من أشكال الخطاب الصّغرى»[٥]. فالإيجاز بوصفه منهج تأليف لدى التّنوخي إنّما يدعم هذه الفكرة، فقد وردت أغلب أخباره موجزة كقوله: «ويروى أنّه كان لعثمان على طلحة خمسون ألف درهم، فخرج عثمان يومًا إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيّأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك»[٦]. وأمّا بعض أخبار (المستجاد) فقد يصل طولها إلى بضع صفحات مثل خبر (عكرمة الفيّاض)

---

(١) نجوى الرياحي القسنطيني، الرواية والراوي في كتاب الأغاني، العدد٥٦، ص ٧٦ (مجلة الحياة الثقافية، تصدر عن وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٩٠م).

(٢) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٤٢١.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٩.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) سيزا قاسم، الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال، ط١، ص١٤٤ (مجموعة بحوث تمهيدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧م).

(٦) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٥.

مع (خزيمة بن بشر) الموسوم بقول التَّنوخي: «حدث أبو الحسن علي بن صالح البلخي بمصر قال: أخبرني بعض عمال شيوخنا...»[١]، وكخبر: «كان إبراهيم بن المهديّ قد ادّعى الخلافة لنفسه»[٢].

والشّأن في تنوّع أحجام المتون شأن تنوّع هيئاتها والصّور الّتي تظهر فيها؛ إذ التركيب سمةٌ سائدة في قصص التَّنوخي. فقد عُرضت بعض الأخبار في صورة حكايات مطوّلة، منها خبر: «أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة»[٣]، أو خبر: «كان إبراهيم بن المهدي قد ادّعى الخلافة لنفسه»[٤].

بل إنّ في (المستجاد) مجموعةً من الأخبار يجمع بينها المقصد التّعليميّ، فقد تتّضح فيها الوظيفة المعرفيّة وضوحًا بارزًا، وترد في أشكال وجيزة، مُتضمّنة حكمًا بليغة وأمثالاً مأثورة، ومصداق ذلك هذا الخبر: «قيل كان لعبد الله بن الزّبير أرضٌ متاخمة لأرض معاوية بن أبي سفيان، قد جعل فيها عبيدًا له من الزّنوج يعمّرونها، فدخلوا على أرض عبد الله، فكتب إلى معاوية: (أمّا بعد يا معاوية فامنعْ عبدانك من الدّخول في أرضي وإلاّ كان لي ولك شأن). فلما وقف معاوية على الكتاب، وكان إذ ذاك أمير المؤمنين دفعه إلى ابنه يزيد، فلمّا قرأه قال له: يا بنيّ ما ترى؟ قال: أرى أن تنفذ إليه جيشًا أوّله عنده وآخره عندك، يأتوك برأسه، قال: أو خير من ذلك يا بنيّ، عليّ بدواة وقرطاس وكَتَب: (وقفت على كتاب ابن حواري رسول الله، وساءني ما ساءه، والدّنيا بأسرها عندي هيّنة في جنب رضاه، وقد كتبت له على نفسي صكًّا بالأرض والعبدان، وأشهدتّ عليَّ فيه، فليستضفها مع عبدانها إلى أرضه وعبيده والسلام). فلمّا وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه: (وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، فلا عدم الرّأي الّذي أحلّه من قريش هذا المحلّ والسّلام). فلمّا وقف معاوية على كتاب عبد الله رماه إلى ابنه يزيد، فلما قرأه أسفر وجهه، فقال له: يا بنيّ إذا بُليت بمثل هذا الدّاء فداوِه بمثل هذا الدّواء»[٥].

---

(١) المحسن التَّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) نفسه، ص٧٤.

(٣) نفسه، ص٥٣.

(٤) نفسه، ص٧٤.

(٥) نفسه، ص٣٤.

ومن ضروب الأخبار في (المستجاد) أيضًا أخبار ذات طابع دينيّ يغلب عليها تفسير القرآن بوصفه مرجعًا أساسيًّا في الثّقافة العربيّة. وآية ذلك هذا الخبر: «رُوي أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه نام على فراش النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لّما اجتمعت قريش على قتله يفديه بنفسه، فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل: إني قد آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه، ولكما الخيار فأيّكما يُؤثر صاحبه بالحياة، فأحبّ كل كمال الحياة واختارها، فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين نبييّ محمد وقد نزل على فراشه ونام عليه علي يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه فكان جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه، وجبريل ينادي: بخٍ بخٍ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة، فأنزل الله تعالى: ﴿ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾[1] »[2].

- وظائف المتون:

وأمّا وظائف المتون فقد تنوّعت نتيجة تنوّع أحجامها وهيئاتها، ولعلّ الوظيفة الأهمّ هي الوظيفة الجمالية الإمتاعيّة. فقد ألزم التّنوخي نفسه في مقدّمة الكتاب بأنْ يختار أخباره «ممّا أحسبه يستفزّ القارئ والسّامع»[3]. فإعجاب قرّائه وسامعيه بما يحتويه مُصنَّفُه من أخبار أحد أهمّ أسباب اختياره متونَ أخباره هذه.

على أنّ بعض المتون حملت وظيفةً ذاتَ بُعد أجناسيّ؛ إذ إنّ الكاتب ضمّن بعض متون أخباره مصطلحات تشي بنوع الخبر، من قبيل قوله: «ومن ملح ما ذكر في حفظ السرّ وكتمانه ما حدّث به أبو سفيان الحميري»[4]، علاوة على ورود بعض العبارات في أكثر من خبر مثل: (القصّة)، و(قصصتُ).

وما يُستخلص أيضًا أنّ المتون أدّت وظيفة التّوثيق أحيانًا بغية تأصيل الخبر. ذلك «أنّ ثنائيّة التوثيق والأدبيّة أُسٌّ من الأسس المتحكّمة في إنشائيّة الخبر قديمًا»[5]، فأكثر

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠.

(٣) نفسه، ص٩.

(٤) نفسه، ص١٨١.

(٥) البشير الوسلاتي، القص في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التّنوخي، ص١٠٧ (حوليات الجامعة التونسية،

الشّخصيّات الواردةِ أسماؤُها في الأخبار إنّما تنتمي إلى عالم الواقع من قبيل علي بن أبي طالب، وعكرمة الفيّاض، ومعاوية بن أبي سفيان، وإبراهيم بن المهديّ، والمأمون وسواهم من الشخصيّات التاريخيّة، وأمّا الزّمن الغالب على المتون فهو الزّمن التّاريخيّ، كما أنّ المتن الحكائيّ لم يخلُ من الأماكن المرجعيّة على غرار البصرة، والمدينة، وطبرستان، وسجستان، والكوفة، وبغداد، وغيرها.

يُستفاد ممّا تقدم أنّ المتون تتنوّع تنوّع الأسانيد، فترد في أحجام مختلفة، وقد تكون على هيئات مُتباينة؛ ممّا يجعلها ذات ثراء سرديّ منقطع النّظير، يخوّل لمتلقّيها مزيد تفسيرها وتأويلها. زدْ على ذلك أنّ تلك المتونَ إنّما وظّفت بعناية بغية تحقيق أهداف جمّة، لا سيّما الجماليّ منها والتعليميّ والأجناسيّ والتوثيقيّ، ولكن ما مستويات البنية السردية في (المستجاد) وكيف تجلت هذه المستويات داخل أخباره؟

العدد٤١، تونس، ١٩٩٧م).

المبحث الثّاني: البنية القصصيّة:

كان الحرص في المبحث السّابق على دراسة بنية الأخبار الإطاريّة، وقد خوّل ذلك تبيّن خصائص تلك البنية، بيد أنّها ليست البنية الوحيدة في أخبار (المستجاد)، ذلك أنّ الخبر الأدبيّ إجمالاً يحتضن بنية لا تقلّ أهميّة عن البنية الإطاريّة وهي البنية القصصيّة الّتي ينبغي التقيّد فيها بدراسة الحكاية من حيث كونُها مادّةً خاما مجرّدة قبل أن تُروى، وقوامُ مستواها أركانٌ أربعة، وهي الوقائع، الّتي تضطلع بها شخصيّات، في زمان، ومكان معيّنين.

١) الوقائع في أخبار (المستجاد):

الوقائع مقوّم أساسيّ من مقوّمات القصص، ومنها تتشكّل الحكاية، وقد ذهب بعض السرديّين إلى أن الفعل «هو مجموع الأحداث المترابطة بحسب التعاقب الزّمني والترتيب النسبي»[(١)]، فالوقائع تتوالى في السياق السردي داخل النصّ بحكم أن لاحقها مترتّبٌ على سابقها، وهذا التوالي يعتمد على منطق يخضع له حتى لو لم يظهر لنا ذلك المنطق[(٢)]، أيّ أنها وحدات سرديّة تترابط في ما بينها وفق ضروب من العلاقات أهمّها في أخبار المدوّنة ثلاثةٌ، وهي: علاقة علّية، وعلاقة زمانيّة، وعلاقة مكانيّة.

١- العلاقة العِلّية:

وقد وردت على أنواع ثلاثة:

أ) عليّة حدثيّة:

وفيها ينبثق الحدث عن حدث آخر، ومثاله: «كان ناس من أهل المدينة يعيشون وما يدرون من أين معاشهم، فلمّا مات عليّ بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به من اللّيل فانكشف حالهم»[(٣)]، فوفاة علي بن الحسين أظهرت لهؤلاء النّاس مصدر معاشهم الّذي كان يُؤتى به إليهم سرًّا[(٤)].

---

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٤٥.

(٢) يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي،مرجع سابق، ص٤٣ .

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٥.

(٤) ومثله ما جاء في خبر (عكرمة الفياض)، المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٦، وخبر (كنت بحضرة والدي في ديوان الخراج بسر من رأى)، نفسه، ص٣٥، وخبر (أصابت بني شيبان سنة ذهبت بالأموال)، نفسه، ص٦٦.

ب) علّية نفسيّة:

وهي التي يكون فيها الحدث ناتجًا عن صفة خُلقيّة، من ذلك ما ورد في هذا الخبر: «كان مخارق يهوى جارية لأمّ جعفر يقال لها: نهار، وكان بها كلِفًا، ويستر ذلك عن أمّ جعفر حتّى بلغها، فأقصتْه ومنعته من المرور ببابها، فلمّا علم أنّ الخبر قد بلغ إلى أمّ جعفر قطعها وتحاماها إجلالاً لأمّ جعفر وطمعًا في السلوّ عنها...»[١]، فاستياء أمّ جعفر من مخارق دفعها إلى إقصائه عن دارها، على حين أنّ إجلال مخارق لأمّ جعفر جعله يقاطع الجارية[٢].

ج) علّية آيديولوجيّة:

ومدارها على الفكر، وآية ذلك هذا الخبر: «وصحّ أنّ أبا طالب ابن كثير كان شيعيًّا فقال له رجل: بحقّ علي بن أبي طالب إلاّ ما وهبت لي نخيلك بموضع كذا، قال: قد فعلت وحقّه لأعطينّك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرّجل»[٣]، فاعتناقُ الرّجل المذهبَ الشيعيَّ حفزه إلى إغداق العطاء على السّائل؛ لأنّه توسّل إليه بعليّ بن أبي طالب[٤].

٢- العلاقة الزّمانيّة:

وهي تستقيم بالتّرابط الزّمنيّ بين الأحداث، ومن الأمثلة الّتي يمكن الاستدلال بها قولُه: «مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه، فقيل: إنّهم يستحيون ممّا لك عليهم من الدّيْن، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزّيارة، ثم أمر مناديًا فنادى من كان لقيس عليه حقّ فهو منه في حلّ فكسرت درجته (بالعشيّ) لكثرة من عاده»[٥].

٣- العلاقة المكانيّة:

وهي تعني أنّ الأحداث تتجاور وتجتمع في حيّز مكانيّ واحد، ولعلّ ما ورد في هذا

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠٢.

(٢) ومثله ما جاء في خبر «اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن أبي معيط داره التي في السوق...»، نفسه، ص١٧، وكذلك خبر «جرى بين الحسين بن علي وأخيه محمد بن الحنفية كلام فانصرفا متغاضبين... »، نفسه، ص١٨.

(٣) نفسه، ص١٧٣.

(٤) ومثله خبر «حج هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد... »، نفسه، ص٨٦، وكذلك خبر «ما رأيت رجلا عرض على الموت فلم يكترث به...» نفسه، ص١١٧.

(٥) نفسه، ص١٧٦، ومثله خبر «أن الإسكندر لما انتهى إلى الصين»، نفسه، ص٤٦، وخبر «دخل يزيد بن معاوية على أبيه فوجده مطرقًا... »، نفسه، ص٢٢٦.

الشّاهد يجلّي ذلك: «ركب الفضل بن يحيى يومًا من مترله بالخلد يريد مترله بالشماسية فتلقّاه فتًى من الأبناء مملك، ومعه جماعة من النّاس يحملون إملاكه فلمّا رأى الفتى نزل وقبّل يده و لم يكن يعرفه، فسأله عن الصّداق فعرف أنّه أربعة آلاف درهم، فأمر له بأربعة آلاف درهم صداق زوجته، وأربعة آلاف درهم ثمن مترل يسكنه، وأربعة آلاف درهم للنّفقة على وليمته، وأربعة آلاف درهم يستعين بها على العقد الّذي عقده على نفسه وانصرف»[١]. فخروج الفضل من بيته في الخلد إلى بيته في الشماسيّة لا علاقة له بإسباغه العطاء على الفتى إلاّ من حيث تجاور الأحداث في الخطاب[٢].

على أنّ لبناء الخبر السرديّ نظامًا مخصوصًا في ترتيب المرويّ لا يتعدّاه، فتقديم وحدة على وحدة من شأنه أن يحدث خللاً في نسق نموّ الخبر. ومثلما للوقائع علاقات شتّى تشدّ بعضها إلى بعض على غرار ما سلف بيانُه، فهي كذلك تتشكّل في أبنية سرديّة مختلفة، فكيف انتظمت هذه الأبنية في أخبار المدوّنة؟

يُتبيّن من خلال تفحّص (المستجاد) كثرةُ الأخبار البسيطة قياسًا إلى الأخبار المركّبة، إذ تتسم أغلبها بالإيجاز، ولعلّ البساطة تُعاين بوضوح من خلال حركة سرديّة قد تُختزل غالبًا في ثنائيّة سرديّة واحدة[٣]، من قبيل ثنائيّة الاستخبار والإخبار الّتي تُستشفّ بيسر في الخبر التّالي: «قالت سعدى بنت عوف: دخلت على طلحة بن عبيد الله فرأيت منه ثقلاً، فقلت: ما لك؟ قال: اجتمع عندي مالٌ أهمّني وغمّني، قلت: وما يغمّك؟ اُدعُ قومك فاقسمه فيهم، فقال: يا غلام عليّ بقومي، فقسّمه فيهم، فسألت الخادم: كم كان؟ قال: أربعمائة ألف»[٤]، أو مثل ثنائيّة الطّلب والاستجابة الّتي تُصادف في هذا الخبر: «حدّث سليمان بن وهب قال: لـــمّا نكبني الواثق قال لمحمّد بن عبد الملك الزيّات: عَذّبْ سليمان وضيّقْ عليه وصادره وطالبه بالأموال. قال سليمان: فألبسني جبّة صوف وقيّدني وضيّق عليّ، وكان يحضرني في دار الواثق ويخاطبني أغلظ مخاطبة ويهدّدني، ويعاملني أقبح معاملة وأشنعها،

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٣٥.

(٢) ومثله خبر «أن عبيد بن أبي بكرة كتب إلى يزيد بن مفرغ أني قد توجهت إلى سجستان... »، نفـــسه، ص٩٣، وخبر «قال الأصمعي مررت ببعض أحياء العرب...» نفسه، ص١٢١.

(٣) انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٨٥.

(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٥.

ويكتب المخبرون بذلك إلى الواثق فيعجبه»[١]. أو ثنائيّة الفعل وردّ الفعل مثلما تُلمس في قوله: «اِشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره الّتي في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء آل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون لدارهم الّتي اشتريت، قال: يا غلام ائتهم فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا»[٢].

وعلاوة على ذلك فإنّ بناء بعض الأحداث في المدوّنة قد اتّسم بالتحوّل والانقلاب. حسبي شاهدٌ يجلّي ذلك: «لما حضرت عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الوفاةُ دعا بنيه، وكانوا أحد عشر ابنًا وكان عنده مَسلمة بن عبد الملك، ولم يخلِّف غير بضعة عشر دينارًا فأمر أن يُكفن ويُشرى له موضعٌ يُدفن فيه بخمسة دنانير ويفضّ الباقي على ورثته، فأصاب كل ابن نصفًا وربع دينار، فقال: يا بنيّ ليس لي مالٌ فأوصي به ولكنّي قد تركتكم وما لأحدٍ قِبَلكم تَبعة، فلا تقع عين أحد منكم على أحد إلاّ ويرى له عليكم حقّا، قال له مَسلمة: أَوَ خير من ذلك يا أمير المؤمنين. قال: وما هو؟ قال: هذه ثلاثمائة دينار فرِّقها فيهم، وإن شئت فتصدّق بها. قال: أَوَ خير من ذلك يا مَسلمة؟ قال: وما هو؟ قال: تردّها إلى من أخذتها منه، فإنّها ليست لك بحقّ، فقال له مَسلمة: رحمك الله يا أمير المؤمنين حيًّا وميّتا فقد ألنت منّا قلوبا قاسية، وذكرتها وإن كانت ناسية وأبقيت لنا في الصالحين ذكرًا، فيقال: إنّه ما رُوئي قطّ أحد من أولاد عمر بن عبد العزيز إلاّ وهو غنيّ، ولقد شوهد أحدهم وقد جهّز من خالص ماله مائة فارس على مائة فرس في سبيل الله، ولـــمّا حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة خلّف أحد عشر ابنًا كما خلّف عمر فأوصى فأصاب كل واحد من البنين ألف ألفِ دينار، فيقال: إنه لم يُرَ أحدٌ منهم قطّ إلاّ وهو فقير، وقد شُوهد أحدهم وهو يوقد في أتون الحمام على ملء بطنه»[٣].

وقد بلغت بعض بساطة الأخبار في (المستجاد) حدًّا من الضّمور لم تنهض فيه إلاّ بوظيفة الإخبار مثل: «عن الرّبيع بن سليمان أنّه قال: أخذ رجل بركاب الشافعي رضي الله عنه فقال: يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عنّي»[٤].

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٨٥.

(٢) نفسه، ص١٧.

(٣) نفسه، ص١٨٣.

(٤) نفسه، ص١٧٨.

إلاّ أنّ تلكم البساطة لم تمنع قيام بعض أخباره على بُنى مركّبة أثْرتْ حركته السرديّة؛ إذ إنّ أغلب الأخبار تنتظم في نسق مقاطع مخصوص يواكب ما يُعرف لدى (بول لا ريفاي)، و(تزفتان تودوروف) بالجمل السردية الخمس، أو البناء الخماسي، أو الترسيمة الخماسية[١]. ويتعيّن تجويد النظر في البناء الخماسي الّذي نهضت عليه مقاطع أحداث (المستجاد).

٤- البناء الخماسي:

البناء الخماسي مصطلح يُقصد به الجمل الخمس المكونة للحكاية أو المقطع السردي التام، وهي تتضمن سلسلة أحداث مكتملة بمقاطعها الفرعية الخمسة، إذ تبدأ بوضع أولي يتسم بالتوازن، ثم ينجم اضطراب، يعقبه اختلال توازن، فيؤول إلى اضطراب معاكس، ثم سرعان ما يختم بتوازن فريد[٢]، ويمكن تطبيق هذا على خبر في (المستجاد) من قبيل: «كان لأبي حنيفة القاضي جار بالكوفة يغني، فكان إذا انصرف وقد سكر يغني وهو في غرفته فيسمعه أبو حنيفة فيعجبه، وكان يكثر أن يغني هذا البيت من الشعر: [الوافر]

أضـــاعُوني وَأيَّ فَتًـــى أضـــاعُوا لِيَـــومِ كَرِيهَـــةٍ وَسِـــدادِ ثَغـــرِ

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبسوه، ففقد أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنه من غد فأُخبر أنه حبس، فدعا بسواده وطوليته فلبسها وبكر إلى عيسى بن موسى، وقال: إن لي جارًا أخذه عسسك البارحة وحبس، وما علمتُ فيه إلا خيرًا، فقال عيسى بن موسى سلموا إلى أبي حنيفة كل من أخذه العسس الليلة فأُطلقوا جميعًا، فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة ثم قال له سرًّا: ألست كنت تغني يا فتى كل ليلة: أضاعوني وأي فتى أضاعوا، فهل أضعناك؟، فقال: لا والله أيها القاضي، ولكن أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك، قال: فعد إلى ما كنت تغنيه فإني آنس به ولم أرى به بأسًا، قال له: افعل»[٣].

ويشتمل الخبر على مقطع تامّ، قوامُه مقاطع فرعية خمسة:

يبدأ المقطع الفرعي الأول بقوله: (كان لأبي حنيفة القاضي جار) حتى نهاية بيت الشعر، وفيه يتم الإعلان عن الأنس الّذي كان يشعر به القاضي تجاه جاره.

---

(١) انظر لمزيد تفصيل: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، مادة: جملة قصصيّة ص١٢٩، مادة: مقطع سرديّ ص٤١٢، مادة: ترسيمة خماسية ص٨٨.

(٢) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٨٨.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١٨.

وأمّا المقطع الفرعي الثاني فيبدأ من قوله: (فلقيه العسس) حتى قوله: (فحبسوه)، ويمكن وسمه بـــ(الحبس).

المقطع الفرعي الثالث يبدأ من قوله: (ففقد أبو حنيفة صوته)، حتى قوله: (فأُخبر أنه حُبس)، ويمكن أن يُطلق عليه: التفقد.

المقطع الفرعي الرابع يبدأ من قوله: (فدعا بسواده وطوليته) حتى قوله: (وما علمتُ منه إلا خيرًا)، وعنوانه: المساعدة.

المقطع الفرعي الخامس يبدأ من قوله: (سلموا إلى أبي حنيفة كل من أخذه العسس) حتى نهاية الخبر، وخلاصته الحرية.

وقدْ تضمّن المتن حكاية وحيدة، فكانت بُنيته بنية بسيطة تتألف من مقطع تام، وقد تفرّع هذا المقطع التّام إلى مقاطع فرعيّة خمسة وردت محتكمة إلى نظام تعاقبي، كما ارتبطت المقاطع الفرعية فيما بينها بعليّة حدثيّة، فالحدث السابق يفضي إلى الحدث اللاحق، كما بُنيت الأحداث بناءً خماسيًّا مسايرًا عدد مقاطعها. فقد انطلقت من وضع أولي اتّسم بحالة توازن، وتجلت ملامح هذا التوازن في أُنس القاضي بغناء الفتى كل ليلة، ثم سرعان ما انتاب التوازن اضطراب (قدح الفعل) كان سببه إمساك العسس للفتى في حالة سُكر وحبسه، وأما اختلال التوازن (صميم الفعل)، فتمثل في افتقاد القاضي للفتى وسؤاله عنه، تلا ذلك اضطراب معاكس (مآل الفعل) تبدى في ذهاب القاضي إلى رئيس العسس، وآل في الوضع النهائي إلى توازن فريد تم فيه إطلاق سراح الفتى.

يمكن أن تتجلى تفاصيله أكثر في الجدول التالي:

وضع أولي	تحول			وضع نهائي
	قدح فعل الفعل	صميم فعل	مآل فعل	
توازن	اضطراب	اختلال توازن	اضطراب معاكس	توازن فريد
أُنس القاضي بغناء الفتى كل ليلة	حبس الفتى	افتقاد القاضي وسؤاله عن الفتى	ذهاب القاضي إلى صاحب العسس	إطلاق الفتى من الحبس

وقد يظفر المتلقّي أيضًا في (المستجاد) ببعض الأخبار ذات البنى المعقدة والمعززة بأكثر

من ثنائية، إذ اعتمدت بعضُ هذه البُنى على التّوفيق بين البُنى البسيطة كما هو الحال في هذا الخبر: «خرج على الرّشيدِ بعضُ الخوارج، فأنهض إليه جيشًا فظفر به، فلما دخل عليه قال: ما تريد أن أصنع بك؟ قال: الّذي تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه، فأطرق الرّشيد مليًّا ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه، فلمّا خرج قال بعضُ من حضر: يا أمير المؤمنين يقتل رجالك ويفني أموالك وتطلقه بكلمة واحدة؟ تأمل هذا الأمر فإنّه يجرّئ عليك أهل الشرّ، فأمر بردّه فلما مثل بين يديه عَلم أنّه قد شنّع به عنده، فقال: يا أمير المؤمنين لا تطعهم فيّ فلو أطاع الله ﷻ فيك ما استخلفك لحظة واحدة، فأمر بإطلاقه وقال: لا يعاودني أحدٌ في شأنه»[1]، وما يلاحظ أنّ الرّاوي جمع بين بُنًى بسيطة كثيرة، فنهض الخبر في مقطعه الأوّل على ثنائيّة الاستخبار والإخبار، ثم في المقطع الثّاني على ثنائيّة الطّلب والاستجابة.

واستنادا إلى ما سلف، فقد تمّ تدبّر أهمِّ البُنى الّتي تواتر حضورُها في كتاب (المستجاد)، وهي ما تنفكّ تثبت أمر التّأليف الّذي مارسه صاحبه في أدب الأخبار، وما من شكّ في أنّ التّنوخي وإنْ نوّع في بناء الأحداث وسرد الوقائع فإنّه لم يخرج عن قواعد التّأليف في هذا الفنّ، بيد أنّ تلكم الوقائع تظلّ تضطلع بأدائها شخصيّاتٌ. فما طبيعة تلك الشخصيّات؟ بل ما سماتها؟

٢) الشخصيّات في أخبار (المستجاد):

الشخص هو «جماعة شخص الإنسان وغيره، مذكر، والجمع أشخاص وشخوص وشخاص»[2]، وتتجلّى أهميّة الشخصيّات في المدوّنة من جهات شتّى أنماطًا وعلاقات وأدوارًا، كما تدُرس في إطار الحكاية؛ لأنها تمثل مع الأحداث عمود الحكاية الفقري[3]، ويمكن توضُّحُ ذلك من أخبار المدوّنة، فقد اشتملت على عدد كبير من الشخصيّات، حشد لها التّنوخي شخصيّات متنوّعة، وأغلبها استمدّه من التّاريخ، بيد أنّه استَقَى القليل منها من وحي الخيال، فمن الشخصيّات التّاريخيّة الخلفاء من قبيل المأمون، والرّشيد، والمهديّ، والواثق، كما استحضر الوزراء، ومنهم يحيى بن خالد البرمكيّ، ومحمد بن عبد الملك

(١) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٩٠.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد السابع، ص٤٥.

(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٧٠.

الزيّات، والفضل بن الرّبيع، و لم يغفل كذلك عن توظيف الشّعراء في نصّه القصصيّ على غرار مسلم بن الوليد، والحطيئة.

إلاّ أنّ المؤلِّف قد أشاح عن عدد غير قليل من الشخصيّات الّتي عاصرته، حتّى إنّه أسقط ذكر خلفاء القرن الرابع الهجري كلّيًّا، رغم دوران أخبار جمّة عليهم وعلى وزرائهم، وسادات القبائل العربيّة؛ لما تقتضيه قيمتا الكرم والجود من سعة ذات اليد، ووفرة المال.

وإلى جانب الشخصيّات التاريخيّة الّتي لا تَنِي تبرز في إطار قيمة الجود وتتنافس على تلك القيمة السّمحة داخل الأخبار تُتبيّن في (المستجاد) شخصيّاتٌ أخرى لا صلة لها بالواقع كالملائكة مثلاً، إذ يقول التَّنوخي في أحد أخباره: «رُوي أنّ علي بن أبي طالب نام على فراش النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لـــمّا اجتمعت قريش على قتله يفديه بنفسه، فأوحى الله تعالى إلى جبريل وميكائيل: إنّي قد آخيْت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر صاحبه، ولكما الخيار فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فأحبّ كلّ منهما كمال الحياة واختارها فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيْت بينه وبين نبيي محمد، وقد نزل على فراشه ونام عليه علي يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، اِهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه فكان جبريل على رأسه، وميكائيل عند رجليه وجبريل ينادي: بخٍ بخٍ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة»[1].

وقد يستبدّ الخيال بالخبر، فإذا الشخصيّة هاتفٌ من الهواتف أو خيال ميّت، كخبر: «أبو الخيبري مع خيال حاتم الطّائي الّذي خرج من قبره»[2]، وخبر: «إسحاق بن إبراهيم الظّاهري مع خيال النبيّ صلى الله عليه وسلّم في منامه»[3].

وفضلاً عن ذلك فإنّ الشخصيّات اتّسمت بالكثافة والتّنوع، فقد لُوحظت أيضًا ميزةٌ تتعلّق بنسبة حضور هذه الشخصيّات داخل أخبار المدوّنة، فالخلفاء والوزراء وسادات القبائل مثلما أشرت آنفًا هم الأكثر ورودًا لما تتطلّبه شيمة الكرم من سعة ذات اليد وبذل المال، والشّأن في ذلك الحضور المتواتر شأن خلفاء بني العباس في العصر الأوّل مثل المهديّ، والرّشيد، والمأمون، والواثق، ورجال دولتهم هم الأكثر حضورًا؛ ولعلّ ذلك راجع إلى زيادة

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠.

(٢) نفسه، ص٧٢.

(٣) نفسه، ص١٠٥.

الرّخاء الاقتصادي واتساع رقعة الدولة، وتنافس الوزراء وعمّال الولايات في كسب محبّة النّاس ومديح الشعراء، على أنّ ذلك لم يمنع توفّر شخصيّات أخرى أقلّ مترلة من الخلفاء ورجال الدّولة، وقد تكون منتمية إلى أزمنة تاريخيّة سابقة ومتكرّرًا حضورُها داخل الأخبار كعبد الله ابن العباس، والشّافعي، وعبد الله بن جعفر، وحاتم الطّائي، ومعاوية بن أبي سفيان، ومعن بن زائدة، وغيرهم ممّن اشتهروا بالكرم والسّخاء، أضفْ إلى ذلك أنّ اسم قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد قد تكرّر في أكثر من خبر؛ ممّا يدلّ على إعجاب القاضي التّنوخي بهذا الرّجل فضلاً عمّا يكنّه له من تبجيل وإجلال، حسبي هذه اللاّزمة الافتتاحيّة الّتي ما ينفكّ يقولها عند قصّ أخباره: (من ملح أخبار القاضي أحمد بن أبي دؤاد).

على أنّ صورة الشخصيّات في (المستجاد) لا تكتمل إلاّ بالنّظر في طبيعة علاقاتها، فما أهمّ العلاقات بين شخصيّات المدوّنة؟

إنّ تجويد النّظر في أخبار المدوّنة يدفع إلى استخلاص أنّ للشخصيّات حضورًا وظيفيًّا. فبعضها قد يكون المحتاج أو السّائل، أو قد يكون شخصيّة مجهولة يُشار إليها بكلمة (رجل)، أو (أعرابيّ)، أو (فتًى)، أو (امرأة)، وما تقوم به قد تكون نسبتها صالحة لأيّ شخصية أخرى، بينما يكون بعضها الآخر جوادًا كريمًا يسدّ حاجة الملهوف، والغالب على هذه الشخصيّات كونها معرفةً لا من النكرات؛ إذ إنّ الاسم بشكل عام قد يكون أحد مفاتيح النصّ في بعض الأوقات[1]، ومثلما تستمدّ الشخصيّات قيمتها من علاقات بعضها ببعض داخل الخبر فإنّها تستخلصها أيضًا من الوظائف[2]، الّتي تضطلع بها. فما أهمّ وظائف شخصيّات (المستجاد)؟

وقبل الخوض في الوظائف يتعيّن تدبّر أبعاد الشخصيّة، فما القصد منها؟

---

(١) أحمد العدواني، بداية النص الروائي مقاربة لآليات تشكل الدلالة، ط١، ص١٥٣ (النادي الأدبي بالرياض والمركز الثقافي العربي، ٢٠١١م).

(٢) يرى (فلاديمير بروب) أن ثمة قيمًا ثابتة وقيمًا متحولة. فالمتحولة هي أسماء الشخصيّات وصفاتها، وأمّا الثابتة فأفعالها ووظائفها، وغالبًا ما تسند الأفعال ذاتها إلى شخصيات مختلفة،؛ لذلك تعتبر دراستها غير مجدية، انظر: فلاديمير بروب، مورفولوجيا القصة، ترجمة: عبد الكريم حسن وسميرة بن عموّ، ط١، ص٣٧ (شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٦م).

١- أبعاد الشخصيّة:

يقوم المؤلف بتقديم شخصياته للقارئ بمختلف الطرق المباشرة من خلال سرد الرّاوي أو ما تقوله الشخصيّات الأخرى عنها، أو بطرق غير مباشرة من خلال ما تقوم به الشخصيّة نفسها واستجاباتها، ومن خلال حواريْها الداخليّ أو الخارجيّ[١]؛ لذلك «فإن هذه الشخصية قابلة-كما سلف- لأن تحدّد من خلال سماتها، ومظهرها الخارجي»[٢]، لذلك ينبغي الوقوف على خصائص كلّ شخصيّة في ضوء تدبّر أبعادها الخارجيّة والداخليّة في المدوّنة.

أ) بعد الشخصيّة الخارجي:

تتحدّد الشخصيّة بمجموعة سمات، كالنّسب والجنس، والسنّ والصّفات الجسديّة والسلوكيّة، فضلاً عن المستويين الثقافيّ والاجتماعيّ، والعلاقات العاطفيّة وغيرها[٣].

ومما يلفت الانتباه في أخبار (المستجاد) أن التَّنوخي لم يولِ وصف الشخصية الخارجي أهمية ذات بال، ولعّل ذلك عائد إلى اهتمام التَّنوخي بالحديث عن الخُلق، وما يجسده الكرم من غرض مهم لمحتوى مصنفه ما ينأى به بعيدًا عن الخوض في الصفات الشكلية لشخصياته؛ إذا لا يكون لهذه الصفات تأثير فاعل، وقد لا تضيف شيئًا إلى بنية الأحداث.

ومع ذلك فإنّ (المستجاد) لا يخلو من وصف كان له بعض التأثير المباشر في وضع الشخصيّات، وهو وضع يشمل خصائصها ووظائفها السردية[٤]، من ذلك وصف يونس الكاتب للوليد بن يزيد بأنه: «فتى حسن الوجه والهيئة، على فرس أشقر ومعه خادمان، وعليه ثيابُ وشْيٍ مذهّبة...»[٥]، وهو ما يدل على رفعة منزلته الاجتماعية، ويُلاحظ مثله في حديث الفرزدق عن زين العابدين بن علي: «وهو أحسن النّاس وجهًا، وأنقاهم ثوبًا، وأطيبهم رائحةً...»[٦].

---

(١) أحمد العدواني، بداية النص الروائي مقاربة لآليات تشكل الدلالة، مرجع سابق، ص١٥٢.

(٢) حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مرجع سابق، ص٥٠.

(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٧٥.

(٤) فيليب هامون، سميولوجية الشخصيّات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، ط١، ص١٢٠ (دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م).

(٥) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤٤.

(٦) نفسه، ص٨٦.

ومن الأوصاف الّتي اشتملت عليها أخبار (المستجاد) ما ذُكر عن جمال (مزنة بنت مروان بن محمد الأموي)، إذ جاء على لسان جارية الخيزران: «بالباب امرأة لها جمال وخلقة حسنة»[١]، وفي نفس الخبر تصفها زينب بنت سليمان العباسية فتقول: «فدخلت امرأة كأجمل النساء وأكملهن لا تتوارى»[٢]، ومثلها وصف جارية يونس الكاتب بأنها «حسناء محسنة في الغناء»[٣]، وأيضًا وصف جارية أخرى بأنها «خارقة الجمال»[٤].

وعلاوة على ذلك ما وصف به اللحام الّذي استجار به إبراهيم بن المهدي بقوله «فرأيتُ في صدر الزقاق عبدًا أسود»[٥]، ووصف عبدان كانا مع زيد الخيل بأنهما (أسودان)[٦]، وقد وردت أكثر هذه الصفات مجملة دون تفصيل، لكنها أسهمت في الكشف عن بعض معالم الشخصيّات، وقد تتضح الصورة أكثر فيما يتعلق ببعد الشخصيّة الداخليّ.

ب) بعد الشخصيّة الداخليّ:

قد يذهب المؤلف إلى تحديد نوعية الصفات الّتي سيسندها إلى شخصيّاته، عن طريق تقديمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فيكون مدارها على التلميح لا التصريح، أو قد يَعمدُ أحيانًا إلى المراوحة بين الطريقتين[٧]، ويجدر عند دراسة شخصيات (المستجاد) رصد أبرز انفعالاتها وسلوكها وطبائعها النفسيّة.

صفات مباشرة:

قد يجنح الراوي إلى عرض شخصياته بشكل صريح ومباشر، فيذكر سماتها الواحدة تلو الأخرى[٨]، فالشخصيّة تتكشف بمجموعة من الصفات الّتي تميزها من بقية الشخصيات

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١.

(٢) نفسه، ص٢١.

(٣) نفسه، ص١٩.

(٤) نفسه، ص٣٣.

(٥) نفسه، ص٧٤.

(٦) نفسه، ص٦٦.

(٧) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص ص ٢٦٦-٢٢٧.

(٨) نفسه، الصفحة نفسها.

الأخرى[١]؛ لذلك هي تُعرض بوسائل مختلفة، فقد يتمّ تعيينها بالاسم أو اللقب أو الكنية، أو السنّ أو الوصف، أو العرق والقرابة[٢]، أو غير ذلك.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك الوصف الّذي أطلقه الدمشقي على خزيمة بن بشر بقوله: «كانت له مروءة، ونعمة حسنة، وبر بالإخوان»[٣]، كذلك وصف عكرمة الربعي بالفياض وتفسير هذه التسمية في متن الخبر: «وإنما سُمي بذلك لأجل كرمه»[٤].

ومن الأوصاف السلوكيّة الواردة في النصوص ما نُعت به الشاعر أبو دهبل على لسان معاوية بأنه: «فاسق»[٥]؛ لأنه قال في ابنته عاتكة شعرًا يصف فيه ما لم يحدث بينه وبينها.

كذلك من الأوصاف الظاهرة ما نُعت به يزيد بن قرة الشيباني بكونه: «شديدًا منيعًا»[٦]، حتى إنه لا يخشى عمال الخليفة في العراق رغم اعتناقه رأي الخوارج؛ لشدة منعته في قومه، كذلك وُصف صالح بن علي الأضخم بأنه: «من وجوه الكُتاب»[٧].

ومن الصفات السلبية المباشرة ما قاله فتى عراقي عن نفسه: «أنه كان وعدة معه يرتكبون كل عظيمة، ويستحلون كل محرم»[٨]، ومثله وصف هشام بن عبد الملك بـــ«المغتاظ»[٩]، من صنيع الناس مع زين العابدين بن علي حينما وسعوا له في الحرم ليستلم الحجر؛ إجلالاً له رغم ازدحام الناس في موسم الحج.

ويظهر أن أكثر صفة تكررت في أخبار (المستجاد) هي صفة الكرم والبذل، سواءٌ كان هذا العطاء ماديًّا يبذله السخيّ من ماله أم معنويًّا تجود به أنفس أصحابها الكريمة.

إن المقاربة السابقة مكنت من تجلية أبرز الصفات المباشرة الّتي نُعتت بها الشخصيّات في

---

(١) هيفاء محمد العجلان، بناء الشخصية في نماذج من الرواية السعودية، ص٧٦، (رسالة ماجستير، إشـــراف: محمـــد نجيب العمامي، جامعة القصيم، ٢٠١٥م).

(٢) نفسه، ص١٨.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٦.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

(٥) نفسه، ص٢٢٦.

(٦)نفسه، ص٢٣٣.

(٧) نفسه، ص١٩٨.

(٨) نفسه، ص١٠٥.

(٩) نفسه، ص٨٦.

أخبار (المستجاد)، ويتعين بعد ذلك إمعان النّظر في الصفات غير المباشرة.

صفات غير مباشرة:

أمّا في الصفات غير المباشرة فإنه يتم وصف حال الشخصيّة ولكن دون تصريح مباشر، أيْ أن المتلقيَ يستوعب سماتها من خلال بعض الإشارات الّتي يدلي بها الرّاوي؛ لذلك يجدر دراسة دلائل الأخبار السلوكيّة النفسيّة غير المباشرة.

وإذ إنه من القيم الّتي تميز بها أوس بن حارثة في أحد الأخبار الحكمة، حيث إنه لم يذهب إلى مجلس النعمان بن المنذر رغم أنه أَعلنَ أنه سَيمنح سيد العرب حلة وقَصدتُه وجوه العرب كافة إلا أوس قائلاً: «إن كنتُ سيد قومي فلستُ بسيد طبقات العرب عند نفسي، وإنما وعد الملك أن يدفع الحلة إلى سيد العرب ولستُ أعرفه مني ولا من غيري، إلا أن الملك أولى برأيه، فإن أنا حضرت و لم آخذها انصرفتُ منقوصًا مهمومًا، وإن كنت المطلوب فسيرسل إلي، فأمسكوا عنه مستعجزين لرأيه»[(١)].

ومن الصّفات الدّالّة على كرم النفس ما قابل به أحمد بن أبي خالد سلفه عبد الله بن سليمان حينما تولى إمارة مصر، فقد خصه بالأمن والعطاء، وأظهر ما يتميز به من مروءة وشهامة، وكيف أنه قابل الإساءة بالإحسان، حتى قال عبد الله بن سليمان في نهاية الخبر «علمنا ابن أبي خالد أحسن الله جزاءه حسن التصرف»[(٢)].

وقد يعكس كلام الشخصيّات في الأخبار سلوكها ومستوى أخلاقها، من ذلك ما وصفت به زينب بنت سليمان العباسية غريمتها مزنة الأموية بأنها «عدوة الله»[(٣)]، وأسمعتها كلامًا جارحًا حتى إنه أغضب الخليفة المهدي منها فقال معاتبًا لها: «يا زينب الله الله! هذا مقدار شكرك لله على نعمته»[(٤)].

لعل ما سبق أبان عن أبرز السّمات الّتي تميزت بها الشخصيّات في (المستجاد)، وقد تراوحت بين الإيجابيّة والسلبيّة، على أن حظ شخصيات الأخبار الرئيسة كان الغالب، فقد شملتها تلكم الصفات؛ لأنها تشكل محور الأحداث، بل إنّها مكون أخبار الكرم الأساسيّ،

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٦٤.

(٢) نفسه، ص٣٥.

(٣) نفسه، ص٢١.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

فما أبرز وظائف تلك الشخصيّات؟

٢- وظائف الشخصيّات:

عند تأمل شخصيّات (المستجاد) يتّضح أن لها وظائف تكتسب بها أهميتها إذ إنّ «الشخصيّة لم تعُد تُحدَّد بصفاتها وخصائصها الذاتيّة، بل بالأعمال الّتي تقوم بها، وبنوعية هذه الأعمال»[١]، ويرى (بروب) أن الوظيفة «عمل شخصيّة ما، وهو عمل محدّد من زاوية دلالته داخل جريان الحبكة»[٢]، وما يهم (بروب) هو عمل الشخصيّة الوظيفيّ لا الشخصيّة نفسها ولا أوصافها؛ لأن ما تضطلع به الشخصيّة هو السؤال الأهم عند دراسة مستوى الحكاية، لذلك تتعيّن دراسة بعض الوظائف الّتي أدتها الشخصيّات داخل المدونة.

اضطلعت الشخصيّات في (المستجاد) بوظائف عديدة، أهمّها ضمان صدق الخبر وتوثيقه، فأكثر الأخبار ضمّت شخصيّات تاريخيّة واقعيّة معروفة، وهذا ما يؤكّد صلة الخبر بما هو مرجعيّ، ومثاله: «كان رجل يقال له: أبو الخيبري، مرّ في نفر من قومه بقبر حاتم، وحوله أنصاب متقابلات كأنّهن نساء ينحن، فنزلوا فبات أبو الخيبري ليلته كلّها يقول: يا أبا عديّ اقرِ أضيافك!، فيقال له: مهلاً ما تكلّم من رمّة بالية، فقال: إنّ طيّئًا يزعمون أنّه لم ينزل به أحدٌ وهو ميّت إلاّ أقراه (كالمستهزئ)، فلمّا كان آخر اللّيل نام أبو الخيبري حتّى إذا كان في السّحر وثب فجعل يصيح: وا راحلتاه! فقال له أصحابه: ويلك ما لك؟

قال: خرج والله حاتم بالسّيف وأنا أنظر إليه حتّى عقر ناقتي...، فنظروا إلى راحلته فإذا هي مختزلة ما تنبعث. قالوا: لقد والله قراك... »[٣]، فحضور شخصيّة حاتم الطّائي بما اشتهر به من الكرم أسهمت في تأصيل الخبر، وعقره ناقة أبي الخيبري قد أحال على قصّته التّاريخيّة حينما عقر فرسه لأضيافه فزاد ذلك دعم صحّة المرويّ.

ولعلّ من الوظائف الّتي أدّتها الشخصيّات أيضًا الوظيفة النقديّة، حيث تُتّخذ الشخصيّة وسيلةً للنّقد، وآية ذلك هذا الخبر الطويل الّذي يُفتتح بقوله: «أمر المأمون أن يُحمل إليه من أهل البصرة عشرة...»[٤]. فشخصيّة الطفيليّ في الخبر وظّفت خصّيصًا لنقد التطفّل وبيان

(١) حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، مرجع سابق، ص٢٥.

(٢) فلاديمير بروب، مورفولوجيا القصة، مرجع سابق، ص٣٧.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٢.

(٤) آثرت عرض الخبر في الحاشية لا في المتن لطوله: «كانوا قد رموا بالزندقة عنده فحملوا، فبينما أحد الطفيليين يرتاد

ما يجرّه على صاحبه من شرور، ومنه قول المأمون متعجبًا في سياق الخبر: «بلغ من شؤم التطفّل أن أحلّ صاحبه هذا المحلّ»[١].

كما أُسندت إلى الرجال الثلاثة في خبر «تمارى ثلاثة في الأجواد»[٢]، وظيفة الاختبار، إذ وضع كل منهم خطة لثلاثة كرماء حتى يحتكموا في من الأكثر كرمًا بينهم، وقاموا بتنفيذ هذه الخطط الّتي كانت أساس الحبكة الّتي قام عليها الخبر.

وكذلك خُصّصت لعكرمة الفياض وظيفتيْ البذل والسّخاء، حتى إنه فعل ذلك متخفيًا، ولما سأله الرجل عن اسمه أجاب بأنه «جابر عثرات الكرام»[٣].

كما تبرز وظيفة النصح والتوجيه من خلال حديث معاوية مع ابنه يزيد: «يا بني إذا بُليت بهذا الداء فداوه بمثل هذا الدواء»[٤]، في حديثه عن عبد الله بن الزبير وتصرفه الحليم معه.

ومما سبق يُستخلص أنه ليس كل عمل وظيفة، وإنما تطلق الوظيفة على الأعمال الرئيسة الّتي هي لحمة البنية الحدثيّة وسداها[٥]، وقد أُسندت إلى شخصيات (المستجاد) وظائف متنوعة، كما تنوعت كذلك العلاقات بين تلكم الشخصيات، ولتجلية الأمر بصورة أدق

إذ رآهم مجتمعين يمضي بهم إلى الساحل للمسير إلى بغداد، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فانسل معهم ودخل في جملتهم، ومضى بهم الموكلون إلى البحر، فأطلعوهم في زورق قد أُعد لهم، فقال الطفيلي: لا شك أنها نزهة. فصعد معهم في الزورق، فلم يكن بأسرع من أن قُيد القوم وقُيد الطفيلي معهم، فعلم أنه قد وقع في ورطة، ورام الخلاص فلم يقدر، ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد، وحملوا حتى أُدخلوا على المأمون، فأمر بضرب أعناقهم، فاستدعوا بأسمائهم رجلاً رجلاً، فكل من دعيَ سأله وأمر بضرب عنقه، حتى لم يكن إلا الطفيلي وفرغت العدة، فقال المأمون للموكلين بهم: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به. فقال المأمون: ما قضيتك ويلك؟ فقال: يا أمير المؤمنين امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم شيئًا، ولا يعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأنا إنما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى وليمة أو دعوة فالتحقت بهم، فضحك المأمون [...] وإبراهيم بن المهدي حاضر يومئذ، فقال: يا أمير المؤمنين هبه لي وأحدثك بحديث عن نفسي في التطفيل عجيب، قال: وهبته لك فهات حديثك [...]»، المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

(١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢) نفسه، ص١٢٥.

(٣) نفسه، ص٢٦.

(٤) نفسه، ص٣٤.

(٥) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٦٨.

ينبغي تدبّر الفواعل.

٣- الفواعل[١]:

بين الفعل والشخصيّة تقوم علاقة وطيدة، فلا يمكن أن تكون الشخصيّات بلا فعل، بل لا فعل من غير شخصيّات[٢].

وحتى يتم ضبط مستوى الفواعل لا بُد من التعرض للشخصيّات بغية تحديد علاقاتها، لذلك يُستشهد بدءًا بهذه الأمثلة من أخبار المدوّنة، ومن ثم تدبر علاقات الشخصيّات فيها:

المثال الأوّل: «قيل: كان لكثيّر عزة غلام تاجر، فأتى الشام بمتاع يبيعه فأرسلت عزّة امرأة تطلب لها ثيابًا، فوقفتْ على غلام كثيّر وهي لا تعرفه فابتاعت منه حاجتها و لم تدفع الثّمن فكان يختلف إليها مُقتضبًا فأنشد ذات يوم من قول مولاه: [الطّويل]

قَضَى كُلُّ ذي دينٍ فوفّى غريمَــهُ وَعزَّةُ مَمْطُولٌ مُعنًّــى غَرِيمُهَــا

قال: فقالت المرأة الّتي ابتاعت منه الثّياب: هذه والله دار عزّة، ولها والله ابتعت منك الثّياب، فقال: والله وأنا غلام كثير وأشهد الله أنّ الثّياب لها، ولا آخذ ثمنها شيئًا فبلغ ذلك كثيرًا، فقال: وأنا أشهد الله أنّه حرٌّ وما بقي معه من المال فهو له»[٣].

المثال الثاني: «حدث سليمان بن وهب قال: لما نكبني الواثق قال لمحمد بن عبد الملك الزيات: عذب سليمان وضيق عليه وصادره وطالبه بالأموال، قال سليمان: فألبسني جبة صوف وقيدني وضيق علي، وكان يحضرني في دار الواثق ويخاطبني أغلظ مخاطبة، ويهددني ويعاملني أقبح معاملة وأشنعها، ويكتب المخبرون بذلك إلى الواثق فيعجبه، فإذا كان الليل أمر محمد بن عبد الملك الزيات بترع قيودي وتغيير ثيابي، ويطرح لي مصلى ويأنس بي ويأكل ويشرب معي، ويشاورني في أموره، ويفضي إلي بأسراره، فإذا كان وقت انصرافي عنه ضرب يده على كتفي وقال: يا أبا أيوب هذا حق المودة، وذاك حق السلطان، لا تنكر هذا ولا تنكر ذاك، فأشكر له فعله، فإذا كان في غد عدنا إلى ما كنا عليه كأنا ما

---

(١) الفاعل هو القائم بالفعل، ويجب تمييزه من الشخصيّة، فالشخصيّة تنتمي إلى مستوى السطح وعددها غير محــدود، بينما الفواعل تنتمي إلى مستوى العمق، وعددها ستة لا أكثر ولا أقل، وهي: المرسل، والمرسل إليه، والمــساعد، والمعارض، والذّات، والموضوع، انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ٣٠٤.

(٢) هيفاء العجلان، بناء الشخصية في نماذج من الرواية السعودية، مرجع سابق، ص١٣٩.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٢٤.

تعارفنا»[١].

أ) العلاقات بين الفواعل:

قام التَّنوخي ببناء شخصيّات (المستجاد)، وتحديد سماتها معتمدًا على وسائل فنيّة عديدة، أهمّها الصلات القائمة بين تلكم الشخصيّات؛ ذلك أنّ العلاقات تُعدّ وسيلة مهمة من وسائل بناء الشخصيّة وإيضاح ملامحها[٢]، ويُلاحظ أنها تحتكم في أخبار (المستجاد) إلى قانون (الاتصال والانفصال)، وقانون (المظهر والمخبر).

قانون الاتصال والانفصال:

يظهر جليًّا أن العلاقة بين جارية عزة وغلام كثير مرَّت من اتصال نتيجة إعجابها ببضاعته وقيامها بشراء الثياب منه، إلى انفصال حين لم تقم الجارية بدفع الثمن؛ ما جعل الغلام يغضب منها، إلا أنّ الاتصال بينهما عاد حينما عَلم الغلام أنها جارية عزة فوهبها الثياب، ورفض أخذ الثمن منها.

كما ظهرت علاقة انفصال بين محمد بن عبد الملك الزيات وبين سليمان بن وهب حينما كان يعذبه ويضيق عليه ويعامله أشنع معاملة، ثم ما لبثت أن أصبحت علاقة اتصال عندما يأتي الليل ويبقيان وحدهما، فيقوم محمد بن عبد الملك الزيات بضيافة سليمان والأكل معه واستشارته في أموره، والإفضاء إليه بأسراره كصديق له.

قانون المظهر والمخبر[٣]:

يتبدى غلام كثير في هيئة البائع السمح حينما يبيع للجارية ثيابًا دون أن يقبض ثمنها، غير أنّ أمره يتبدل حينما يختلف إليها مقتضبًا مطالبًا بثمن الثياب بسرعة، مستشهدًا ببيت شعر يوضح فيه تبرمه من تأجيلها الدفع.

وأمّا الجارية فقد ظهرت بمظهر المشترية الودودة، ولكن بدت عليها سمات عدم الأمانة حينما لم تدفع ثمن الثياب، وظلت رغم إلحاح الغلام تماطل في سداد الدين.

وأما محمد بن عبد الملك الزيات فإن مظهره يوحي بشدته في تعذيب سليمان والتنكيل

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٨٥.

(٢) هيفاء العجلان، بناء الشخصية في نماذج من الرواية السعودية، مرجع سابق، ص٧٤.

(٣) انظر: علي عبيد، مقاربات سردية، ط١، ص٢٦٢، (دار الانتشار العربي والنّادي الأدبي في منطقة الباحة، بيروت، ٢٠١٤م). وانظر: محمد القاضي، تحليل النص السردي، مرجع سابق، ص٨٨.

به، إلا أنّ مخبره يُبين عظيم المودة الّتي يكنها للرجل.

بينما أوحى مظهر سليمان بالإذعان للتعذيب الّذي يتعرض له على يد الزيات، غير أنّ المفاجأة سرعان ما تتجلى لاحقًا حينما يشكر له فعله حينما يأتي الليل ويبقيان بمفردهما.

يُستصفى مِمّا سبق أنّ قيمة الشخصيّات في أخبار (المستجاد) إنّما مردّها إلى تنوعّها من حيث سماتُها المختلفة، ووظائفها المتنوعة والعلاقات المتماسكة المتينة بين الفواعل. إنّها بقدر ما تطوّف بالخبر في أوساع الخيال فإنّها لا تفتأ ترسّخه في دنيا الواقع.

ولكن ما خصائص الأزمنة والأمكنة الّتي دارت فيها وقائع (المستجاد)؟

٣) الأزمنة والأمكنة في أخبار (المستجاد):

١- الزّمان:

يكتنف الزّمانُ في القصص الأحداثَ ويؤطّرها، وقد تباينت آراء الدارسين حوله وتوجهاتهم في تناوله، ومن ثَم اختلفت المفاهيم المتعلقة به وتباينت مصطلحاته، ولقد ورد في لسان العرب أنّ: «الزمن والزمان: اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم: الزمن والزمان العصر، والجمع أزمُن وأزمان وأزمِنَة [...] وأزمَنَ بالمكان: أقام به زمانًا»[(١)].

ويتكوّن مَسَار الزمن من الماضي والحاضر والمستقبل، وللمؤلف الحرية الكافية في تحريك هذا المسار في مؤلفاته وفق رؤيته الفنية[(٢)]، لكن التطور الطبيعي لأحداث أيِّ قصة في الأصل ينطلق من الزمن الماضي متدرجًا نحو الحاضر في اتّجاهه إلى المستقبل، وآية ذلك هذا الخبر: «أتى النصيبُ عبدَ الله بن جعفر فحمله وأعطاه وكساه، فقال له قائل: يا ابن جعفر أعطيت هذا العبد الأسود هذه العطايا؟ فقال: والله إن كان هذا أسود إن ثناءه لأبيض، وإن شعره ليهزني، ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وما ذاك؟ إنما هي رواحل تنضى، وثياب تبلى، ودراهم تفنى، وثناؤه يبقى، ومديحه يُروى»[(٣)].

وقد تناول المهتمون بالزمن قضايا تقسيمه، وحاولوا تحديد العلاقات القائمة بين أقسامه[(٤)]، ويشير (تودوروف) إلى أنّ الاختلاف في قضية الزمن سببه التفاوت الحاصل بين

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الثالث عشر، ص١٩٩.

(٢) بشرى عبد الله، جماليات الزمن في الرواية، ط١، ص٣٨ (منشورات ضفاف وهدهد للنشر، ٢٠١٥م).

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٣.

(٤) ولعل أهم هذه التقسيمات تصور الشكلانيين الروس ونظرهم لقضية الزمن، فقد أشار (توماتشفسكي) إلى

زمن الحكاية المتعدد الأبعاد وزمن الخطاب، ويمكن إدراك ذلك التفاوت من خلال هذا الخبر: «يُروى أن طلحة الطلحات خرج في يوم صائف فأصابه الحرّ فعطش، فنظر إلى دار لها فناء حسنٍ، وظل ممدودٍ، فعدل إليها، وجلس ثم استسقى ماء، فخرجت إليه جارية نظيفة بيدها إناء نظيف فيه ماء بارد، فشرب وقال: يا جارية ما أنظفك وأنظف ما معك...»[١]، ففي الخبر وقعت عدة أحداث في الوقت نفسه، بينما في الخطاب لا بد أن تتابع الواحد تلو الآخر[٢].

كما يؤكد (تودوروف) أنّ هناك نوعين من الأزمنة:

أزمنة داخلية: وهي زمن القصة وهو ما يخص العالم التخيلي، وزمن الكتابة أو السرد وهو الزمن المتعلق بالتلفظ، وزمن القراءة المتعلق بقراءة النص[٣].

وأزمنة خارجية: كزمن السرد التاريخي وزمن الكاتب، أي الزمن الّذي تهيأت للكاتب فيه ظروف الكتابة، وزمن القارئ، وهو زمن استقبال ما تم سرده[٤]، كما في هذا الخبر الّذي يمكن نسبته إلى زمن الواقدي: «قال الواقدي: كان لي صديقان، أحدهما هاشمي والآخر نبطي، وكنا كنفس واحدة، فنالتني ضيقة شديدة، وحضر العيد فقالت لي امرأتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة...»[٥].

وبالعودة إلى المدوّنة يتّضح أنّ أزمنة الأحداث يغلب عليها الزمن الماضي كما اتّسمت بالاتّساع؛ إذ تمتدّ الأخبار على رقعة تاريخيّة شاسعة من القرن الرّابع للهجرة، وعودا إلى ما

ضرورة تحليل الزمن وأهميته في العمل الحكائي وإبراز أدواره، مميزًا بين زمن المتن الحكائي وزمن الحكي، فزمن الحكي أو السرد هو الوقت الذي يُقرأ فيه العمل أو يتم عرضه، أما زمن المتن الحكائي فهو مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، ويمكن أن تُعرف عن طريق ما يتم الإخبار به داخل العمل، ويمكن الحصول عليه أيضًا من خلال التأريخ للوقائع والمدد الزمنية التي تجري فيها الأحداث. انظر: بشرى عبد الله، جماليات الزمن في الرواية، مرجع سابق، ص ص ٢٩-٣١.

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٧٨.

(٢) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١١٤.

(٣) نفسه، ١١٤.

(٤) ربيعة بدري، البنية السردية في رواية (خطوات في الاتجاه الآخر) لحفناوي زاغز، ص١٩٥ (رسالة ماجستير، إشراف: رحيمة شتير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠١٥م).

(٥) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١١٠.

سبق من قرون حتّى عصر ما قبل الإسلام، كما تظهر في الأخبار الكثير من الشخصيّات التاريخية المعروفة في هذه العصور، كحاتم الطائي، ومعاوية بن أبي سفيان، والمهدي، والرشيد والبرامكة، وغيرهم.

وفي كل خبر تظهر أزمنة ثلاثة، وهي زمن التلقي المتعلق بسماع التَّنوخي للخبر وتلقيه، وزمن الرواية الّذي يشير إلى رواية التَّنوخي لها وكتابتها للقراء، بالإضافة إلى زمن الحكاية المتعلق بالزمن الّذي وقعت فيه أحداث الخبر، وبالتالي يكون الزمنان الأول والثاني متلاحقين، بينما الزمن الثالث سابق لهما؛ إذ إنه لا بد أن تكون أحداث الحكاية قد جرت وانتهت(١)، وفي أخبار (المستجاد) يظهر الاحتفاء بالزمن والحرص على تحديده في أغلبها، إذ إنّ لوجود الشخصيّات التاريخيّة بكثافة داخل الأخبار الأثرَ الواضح في إمكانية تحديد زمن وقوع الأحداث الّذي كانت الشخصيّة شاهدة عيان عليه، أو عاشت فيه(٢).

وقد ورد الزّمان على هيئات مختلفة، فهو في أكثر الأخبار مُبهمٌ مجمل كما يتبدّى في خبر (الحسن والحسين مع المرأة العجوز) على هذا النّحو: «... ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها»(٣)، ومثله قوله: «كان هذا الرّجل يتقلّد مصر سنين»(٤)، غير أنّه في بعض الأخبار قد يأتي محدَّدا تحديدًا دقيقًا، كخبر: «كان إبراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة لنفسه بالري، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا... »(٥)، وقد يتحدد بطرائق أخرى، منها وصلُ حدث بحدث آخر على غرار ما ورد في هذا الخبر: «كنتُ وأبو العباس أحمد بن الخصيب مع خلق من العمال والكتاب معتقلين في يدي محمّد بن عبد الملك الزيّات في آخر وزارته للواثق، واشتدّ مرض الواثق وحُجب ستّة أيام عن النّاس، فدخل عليه أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد قاضي القضاة...»(٦)، ومنها تعليق الحدث

(١) سليمان الطالي، بلاغة النادرة في الأدب العربي، ط١، ص٨٦ (كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٥م).

(٢) إنّ أسماء الشخصيّات تشير أحيانًا إلى زمن الوقائع، فللأحداث نظريًّا زمن يُدرك من السياق، أو من مألوف العادة. فزمن الحكاية يعني فحص مجرى الأحداث في وجودها التاريخي. انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ٣٩٧.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١١.

(٤) نفسه، ص٣٥.

(٥) نفسه، ص٧٤.

(٦) نفسه، ص١٤١.

بشخصيّة تاريخية معروفة، ومثاله: «... فتبسّم الفضل بن يحيى وقال: كم أتى عليك من السّنين قال: خمسٌ وثلاثون سنة، قال: صدقت هذا المقدار الّذي أعدّ لنفسي...»[١].

ولَمَّا كان المؤلِّف ينقل في كثير من الأخبار ما رُوي له وما قرأه أو عاشه وشاهده فإنّ أكثر مرويّه جاء متّصلاً بالزّمن والبيئة المحتضنة تلك الشخصيّات، الّتي اشتهرت بالكرم والجود على مرّ الأزمان، فالإطار التاريخيّ قد شهد أكثر هذه الأخبار، بل غدت قصص الأخبار تجسيدًا فنّيًّا لما هو تاريخيّ، على غرار ما يُلمس بوضوح في خبر «كان إبراهيم بن المهدي قد ادّعى الخلافة لنفسه بالريّ... »[٢]، وهذا الخبر أطّره زمنٌ قصصيّ يحيل على البداية والنّهاية. إذْ يبدأ من دخول المأمون بجيشه إلى الريّ طلبًا لإبراهيم بن المهديّ حتّى لحظة القبض عليه والعفو عنه، لكنّ هذا الزّمن القصصيّ يبدو على صلة بالزمن التّاريخيّ، إذ تتّخذ القصّة لها إطارًا تاريخيًّا وهو العصر العبّاسي الأول، فخروج إبراهيم بن المهديّ على المأمون، ثم انطلاق المأمون بجيشه لإخماد ثورة عمّه إبراهيم، ومعاقبته إيّاه ليست إلاّ أحداثًا تعكس صورة التقلّبات السياسيّة الّتي شهدتها الدّولة العبّاسيّة.

وممّا سبق يتّضح أنّ الزّمان على جانب من الأهميّة وافرٍ، فبه تغدو الأخبار معبّرة عن نفسها، وطيدةَ الصّلة بالإطار التاريخيّ الّذي أنجبها، بل يزداد شأن الزّمان إنْ نُظر إليه من خلال الوظائف الّتي بها ينهض في سياق سرديّ مخصوص، فما تلك الوظائفُ؟

يُوظّف الزّمان في أخبار كتاب (المستجاد) وظائف عديدة، منها تأطير الأحداث على غرار ما يُستوضح في هذا الخبر: «... فقالت: اقعدْ أحدّثْك حديثًا كان أمس أنفع لك من كلّ كتاب... »[٣]، كما قد يحيل على فكرة من الأفكار الّتي يريد المؤلِّف تبيانها، مثال ما جاء في هذا الخبر: «حدّث سليمان بن وهب قال: لَمّا نكبني الواثق قال لمحمد بن عبد الملك الزيات: عذّب سليمان وضيِّق عليه، وصادره وطالبه بالأموال، قال سليمان: فألبسني جبّة صوف وقيّدني وضيّق عليّ، وكان يحضرني في دار الواثق ويخاطبني أغلظ مخاطبة ويهدّدني ويعاملني أقبح معاملة وأشنعها، ويكتب المخبرون بذلك إلى الواثق فيعجبه، فإذا كان اللّيل أمر محمد بن عبد الملك الزيّات بترع قيودي وتغيير ثيابي ويطرح لي مصلّى ويأنس بي،

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٦٩.

(٢) نفسه، ص ٧٤.

(٣) نفسه، ص٢١.

ويأكل ويشرب معي ويشاورني في أموره ويفضي إليّ بأسراره، فإذا كان وقت انصرافي عنه ضرب بيده كتفي وقال: يا أبا أيوب هذا حقّ المودّة، وذاك حقّ السّلطان لا تنكر هذا ولا تنكر ذاك، فأشكر له فعله، فإذا كان في غد عدنا إلى ما كنّا عليه كأنّا ما تعارفنا»[١]، فللزّمن في هذا الخبر بُعدٌ رمزيّ، فإذا أوحى قدوم اللّيل بالسّتر وغياب عيون المخبرين جعل الوزير الزيّات يتصرّف بطبيعته مع سليمان بن وهب، في حين أنه عند قدوم الصّبح، وخشية انكشاف الأمر، وكثرة عيون المخبرين، يتصرف الوزير مثلما أمره السّلطان.

كما قد يُساهم الزّمان في استبطان الشخصيّات القصصيّة، من ذلك ما ورد في هذا الخبر: «... فلمّا كان اللّيل سمع بكاء آل خالد، فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا: يبكون دراهم الّتي اشتريت، قال: يا غلام أعلمهم أن الدار والمال لهم جميعًا»[٢]، فقدوم اللّيل كان وراء إحساس آل خالد بالحزن وقرب الرّحيل عن دارهم عند الصّباح، ومن ثمّ فقد ساعد الزمان على تعرية باطن الشخصيّة.

يُستخلص ممّا سبق أنّ الزّمن القصصيّ ليس مجرّد إطار فحسب، وإنّما عنصر فاعل في الوقائع والشخصيّات، وعامل مؤثّر في الكون الحكائيّ؛ نظرًا إلى تنوّع سماته وأشكال حضوره ووظائفه، بيد أنّ دراسة العناصر الحكائيّة لا تقتصر على الزمن وإنّمَا تشمل أيضًا المكان.

٢- المكان:

المكان[٣] هو «الموضع، والجمع أمكنة: كقذال أو أقذلة، وأماكن جمع الجمع...، والمكان في أصل تقدير الفعل مَفْعَل، لأنه موضع لكينونة الشيء فيه»[٤]، ولا يعتبر المكان مجرّد إطار للأحداث وحسبُ بقدر ما هو عنصر حكائيّ مستقلّ بنفسه أيضًا ينضمّ لباقي العناصر في الكون الحكائي، ومكوّن فاعل في العمل القصصيّ؛ ذلك أنّ «أيّ حدث لا يمكن

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٨٥.

(٢) نفسه، ص١٧.

(٣) يختلف النقاد حول المسميات التي يمكن أن تطلق على المكان نفسه، حيث تعددت المصطلحات الدالة على ذلك، ومنها الموقع والفراغ والبقعة، ولكن المصطلح الأكثر شيوعًا في الدراسات النقدية هو مصطلح المكان، انظر: سيزا قاسم، بناء الرواية، ط١، ص٧٥، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٤م).

(٤) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الثالث عشر، ص٤١٤.

أن يتصور وقوعه إلاّ ضمن إطار مكاني معين»[١].

ومهما «تكن أبعاد المكان (بيتًا أو كونًا) وأيًّا يكن انتماؤه (حضريًّا أو بدويًّا، مفتوحًا أو مغلقًا إلخ...)، فإنه يتخذ مظهرًا دقيقًا للغاية»[٢]، إذْ يرتبط بمعانٍ غير مستحبة كلما ضاق وانغلق، أمّا حين يتسع فيكون رمزًا للحرية والانطلاق[٣]، ويُلاحظ أن بناء الأمكنة في (المستجاد) لم يقم على آلية الوصف، فالتَّنوخي لم يهتم كثيرًا بوصف المكان وتفاصيله الدقيقة، فلا وجود للمقاطع الوصفية الّتي تعبر عن هذه الأمكنة، ويمكن تحديد مصادر الأمكنة عن طريق إمعان النظر في اختيارات التَّنوخي المكانية، هل توجه إلى أماكن واقعية أم اختار الأماكن الخيالية؟ ويمكن تبيّن هذا الأمر بصورة كبرى عند تصنيف الأمكنة.

١- أصناف الأمكنة:

تصنّف الأمكنة في الغالب الأعمّ إلى تقاطبات ضديّة، منها أمكنة مفتوحة، أي لا محدودة، وأمكنة مغلقة أي محدودة، ومنها أمكنة بسيطة وأخرى مركّبة.

أ) الأماكن المفتوحة:

تتميز هذه الأماكن المفتوحة بأنْ لا حدود لها ولا حواجز تحدد مساحتها، وتنطلق فيها الشخصيات دون قيود، ولكنها في بعض الأوقات قد توحي لهم بالضياع وعدم الاستقرار، ومن أبرز الأماكن المفتوحة:

المدينة:

تقع المدن على مساحات شاسعة تتحرك فيها الشخصيات بحرية وانطلاق، وتهيئ مساحتها الواسعة لتكوين علاقات مختلفة بين الشخصيّات، كما تتميز المدن بتنوع السكان، وتعدد الأعراق والجنسيات والديانات، وعلى نحو ما نرى في أخبار المدوّنة فقد جرت الأحداث في أكثر من مكان، ونتيجة طغيان أخبار العباسيّين على نصّ (المستجاد) فقد حضرت عواصم ومدائن هذا العصر بشكل يفوق ما عداها من قبيل بغداد، والبصرة، والكوفة، وسُرّ من رأى، وخراسان والريّ وسجستان، كما يُلاحظ حضور مدينة أكثر من سواها من المدن كالمدينة المنوّرة، فهي ما تلبث أن تكون مسرحًا لبعض الأخبار المتعلّقة

(١) حميد لحميداني، بنية النص السردي، مرجع سابق، ص٦٥.

(٢) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤١٨.

(٣) محمد نجيب العمامي، البنية والدلالة في الرواية، مرجع سابق، ص٥٥.

بالعصريْن الإسلامي والأموي، كذلك كان لمصر حضورٌ لافتٌ في بعض الأخبار، وقد التقت هذه الأمكنة في الانفتاح، لكنّها قد لا تجمع بين السّعة المكانية والسّعة النفسية[١]، فنرى حضور مدينة الريّ في خبر (إبراهيم بن المهدي)[٢]، لما ادعى الخلافة لنفسه فيها قد انقلب من كونها مدينة فسيحة إلى مدينة بالغة الضيق في عينيْ (إبراهيم) لما طالب المأمون بالقبض عليه فحاول التخفي مرتديًا أزياء النساء، والهرب خوفًا من القتل.

وإذا كانت الالتفاتة السابقة حولت إلى حدّ تحديد طبيعة المدن بوصفها أماكن مفتوحة في (المستجاد)، فإنه من الأجدى التساؤل عن شأن الأماكن المغلقة؟

ب) الأماكن المغلقة:

تتحدّد الأماكن المغلقة بكونها مساحة معينة، تكون فيها حركة الشخصيّة ضمن إطار محدود، وتتصف بالضيق، ولكنها تتميز بأنها ذات خصوصية، كما أنها تشعر الشخصيّات بالأمن والهدوء، ومن هذه الأماكن المغلقة:

الحبس:

وهو مكان يرتبط بالضر والحصار والعزلة، وهو من الأماكن المندرجة في سمة الانغلاق، وهو ما يوحي به في خبر عكرمة الفياض لما رآه خزيمة بن بشر «في قاع الحبس متغيرًا قد أضناه الضر»[٣]، حتى إن خزيمة نكس رأسه ندمًا على حبسه.

ومثله خبر: «كنت أنا وأبو العباس أحمد بن الخصيب مع خلق من العمال معتقلين»[٤]، وهذا الحبس وما ذاقوه من الاضطهاد فيه دون جرم كان سببًا لأن يشفع فيهم القاضي بن أبي دؤاد عند الخليفة الواثق حتى يطلق سراحهم فأصبح للقاضي مكرمة عندهم.

ج) الأماكن البسيطة:

وقد لُوحظ أن البيت هو أكثر الأمكنة البسيطة تواترًا في المدونة، فما تأثيره في سير الأحداث، وما أهميته في الكشف عن أحوال الشخصيات؟

---

(١) محمد نجيب العمامي، البنية والدلالة في الرواية، مرجع سابق، ص٦٣.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.

(٣) نفسه، ص٢٦.

(٤) نفسه، ص١٤١.

البيت:

تعبر البيوت عن مظاهر الألفة والحياة العائلية الّتي تعيشها الشخصيّات، و«البيت جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول»[١]، والبيت فضاء مكون لمعالم الشخصيّات وسلوكياتها، حتى إن البيت القديم «بيت الطفولة، مكان الألفة، ومركز تكييف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل نستعيد ذكراه»[٢].

وإنّ كان حضور هذا المكان قليلاً في المدونة، فلا يُعدم ذكره في أخبار من قبيل بيت (خزيمة بن بشر) الّذي أغلقه على نفسه لما أحس من رفاقه جفوة حينما أصابه الضيق[٣]، ومثله بيت الشاعر (مسلم بن الوليد) الّذي قصده صديق له قديم طالبًا للمساعدة[٤]، وكذلك بيت (حاتم الطائي) الّذي كان يسامر فيه زوجته وأولاده ويعللهم بالحديث ينسيهم ما يعانونه من الجوع حتى يناموا[٥].

وهكذا يُلاحظ أنّ هيمنة المكان لا تتجلى في السّرد من خلال المدن فقط، بل ثَمّ أطرٌ أخرى للأحداث تتمثّل في أماكن الإقامة الخاصّة والعامّة، فقصورُ الخلفاء ومجالسهم، ودورُ الوزراء، وبيوتُ سادات العرب هي الأكثر تداولاً قياسًا إلى بيوت العامّة الّتي كان ورودها في الأخبار أقلّ حظّا، وقد يُعزى ذلك إلى تقيّد المؤلِّف بأسلوب الرّواية المعتاد، والقائم على إسناد ومتن. فقد كانت مصادره من الكتب والأوراق، أو من المرويّات الشّفاهية، وفي جميعها لا تتوقّف عند حياة العامّة بقدر ما تحفل بتسجيل ما يدور في بلاطات الخلافة والحكم حيث محطّ أنظار التّاريخ والنّاس[٦]، وفي مقابل ذلك يُعرض راوي (التَّنوخي) أحيانًا عن ذكر المكان كما في هذا الخبر: «وصحّ أنّ أبا طالب بن كثير كان شيعيًّا فقال له رجل:

---

(١) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ط٢، ص٣٨ (المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨م).

(٢) نفسه، ص٩.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٦.

(٤) نفسه، ص١٠٦.

(٥) نفسه، ص٧١.

(٦) انظر: مصطفى عطية، أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، ط١، ص ٦ (مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، ٢٠٠٦م).

بحقّ عليّ بن أبي طالب إلاّ ما وهبت لي نخيلك بموضع كذا، قال: قد فعلت... »[١]. فهو لم يحدّد في سياق الخبر أين يكون موضع هذا النخيل وسكت عن ذكره، وعليه، فإنّ ثنائيّة الحضور/ الغياب للمكان لا تعدم في ثنايا الأخبار تكرارا شأنها شأن ثنائيّة التفصيل/ الإجمال، فراوي (المستجاد) في بعض الأخبار يضبط المكان بدقّة كقوله: «اشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره الّتي في السوق...»[٢]، وكذلك قوله: «وشيعه عبيد الله بن أبي بكرة إلى قرية على أربعة فراسخ يقال لها زالق... »[٣]، إلاّ أنّه أحيانًا يشير إليه بشكل خاطف، حسبي استدلالٌ بأحد الأخبار الّتي يقصّها إبراهيم بن المهدي: «خرجتُ يومًا متنكّرا أنظر إلى سكك بغداد، فاستهواني التفرّج وانتهى بي المشي...»[٤].

وتكمن أهميّة المكان في المدوّنة علاوة على كثافة حضوره وتنوّع سماته فيما يؤدّيه من وظائفَ، فما تلك الوظائفُ؟

من أبرز الوظائف إكساء المتن الحكائي طابعا نفسيًّا خاصًّا مثلما ورد في نهاية هذا الخبر: «ورجعتُ إلى ديار قومي وأقمت سبع سنين، ثم عدتّ إلى الحجاز فوردتّ إلى الزّيارة فقلتُ: والله لأعودنّ إلى قبر عُيينة أزوره، فأتيتُ على القبر فإذا عليه شجرة نابتة عليها عصائب حمر وصفر وخضر، فقلت لأرباب المترل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين... »[٥]، فالقبر والشّجرة واسمها تحيل جميعُها على النّهاية الحزينة لحكاية عيينة بن الحباب بن المنذر الأنصاري مع ريَّا بنت الغطريف السّلميّ والّتي فَصَّل الخبر في ذكرها.

ومن وظائف المكان أيضًا إبراز التّغيير الحاصل في حياة الشخصيّة، وحسبي شاهدٌ خبرَ محرز بن ناجية الرّصافي: «كنتُ أحد من وقعت عليه التّهمة في مال مصر أيّام الواثق، فطلبني السّلطان طلبًا شديدًا حتّى ضاقت عليّ الرّصافة وغيرها من المدن، فخرجت أريد البادية مرتادًا رجلاً عزيز الجار، منيع الدّار، أعوذ به وأنزل عليه حتّى أتيت إلى بني شيبان...»[٦].

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٧٣.

(٢) نفسه، ص١٧.

(٣) نفسه، ص٩٣.

(٤) نفسه، ص ٥٣.

(٥) نفسه، ص ١٢٦.

(٦) نفسه، ص٢١٦.

فالبادية ومضارب بني شيبان وفّرت جميعها للرّجل الأمان بعد الخوف، إذ يقول في آخر خبره الطّويل: «فلم أزل في جواره حتّى هلك الواثق، وأنا عنده في أهنأ عيش، وأغبط نعم، فرحلت عنه وأنا من أشكر النّاس له»[١].

د) الأماكن المركّبة:

وهي أماكن تتعدد مناشط الشخصيّات فيها، كما أن طبيعتها المركبة وكثرة مرتاديها تسمح بإقامة ضروب من العلاقات بين الشخصيّات، ومنها:

السوق:

وهو مكان يُرتاد لقضاء الحوائج، ورمز للحركة والنشاط والازدحام، حيث تلتقي فئات مختلفة من البشر، ونجد حضورًا له في خبر: «كنت رجلا أشتري الغلمان وأبيعهم لأجل الفائدة»[٢]، فوجود الشيخِ في السوق هو الّذي خَول للفتى المرور به من أجل الغلام، بل لعلّ موته في آخر الخبر جعل الشيخ يقول: «أبكي على ذلك الشاب وظرفه وحسنه وعفته إلى أن أموت»[٣].

القصر:

والقصر مكان يختص بفئة معينة من المجتمع ويُظهر معالم الرفاهية والثراء، وهو عادة فضاء مركب يشتمل على أماكن كثيرة متنوعة، ويظهر في خبر: «كنتُ آلف زينب بنت سليمان»[٤]، إذ مَثَّلَ قصر المهدي مسرحا للخبر، ويُلمح فيه التركيب المكاني من خلال ذكر مجلس الخيزران وجواريها الكثيرات والإيوان، ومجلس المهدي والحمام الّذي دخلته مزنة الأموية حتى تغتسل، ثم المقاصير الكثيرة داخل القصر، والّتي قيل لها أن تختار ما تريد منها للإقامة الدائمة.

في ضوء ما سبق تتّضح أهميّة المكان في المدوّنة، إنّه عنصر حكائيّ مهمّ، ولعلّ ذلك يجعل حضوره في المنجز السرديّ وظيفيًّا. فهو لا مراء عنصر هامّ من عناصر الكون القصصيّ، وقد جاءت الأمكنة في المدونة إمّا مفتوحة مثل المدن كالبصرة والكوفة، ومصر

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

(٢) نفسه، ص٦٣.

(٣) نفسه، الصفحة نفسها.

(٤) نفسه، ص٢١.

والمدينة المنورة، وهي تشكل مرجعية تاريخية عظيمة، ومنها ما هو منغلق كالحبس، ومنها ما هو بسيط كالبيت، أو مركب كالقصر والسوق، وقد أسهمت هذه الأمكنة في بناء الأحداث والكشف عن سمات الشخصيات وعلاقاتها.

خاتمة الفصل:

كانت الوقفة السابقة لإيضاح مكونات الكون الحكائي في (المستجاد) من خلال تدبر البنية الإطاريّة والبنية القصصيّة، وقد مثّل الإسناد والمتن أساس نظام البنية الإطاريّة في المدونة، كما تنوعت خصائص الإسناد وتعددت وظائفه، كذلك تنوعت المتون وجاءت على هيئات متباينة وأدت وظائف متنوعة.

وفي بنية الأخبار القصصية يُلاحظ أن التنوع في بناء الأحداث وسرد الوقائع لم يخرج عن قواعد التأليف في هذا الفن، كما أن قيمة الشخصيات مردّها إلى تنوعّها من حيث سماتها ووظائفها المتنوّعة، وكان للزمان حضور مهم بشكل تتنوع فيه سماته ووظائفه، كما تنوعت الأمكنة بين مفتوحة ومغلقة، وبسيطة ومركبة، وكان لها حضور وظيفي لافت داخل أخبار المدونة.

ولكن كيف تجلت سمات الخطاب القصصّي في (المستجاد)؟

الفصل الثّاني
الخِطابُ القصصّي في (المستجاد)

ويشتمل على ما يلي:

تمهيد:

المبحث الأوّل: زمن القصّ:

١- التّرتيب.

٢- السّرعة.

٣- التّواتر.

المبحث الثّاني: الصّيغة:

١- أساليب القصّ.

٢- وجهة النظر.

المبحث الثّالث: الصّوت السّرديّ:

١- زمن السّرد.

٢- أعوان السّرد (الرّاوي، المرويّ له).

تمهيد:

يُقصد بالخطاب لغويًّا «مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابًا، وهما يتخاطبان...، ورجل خطيب: حسن الخطبة، وجمع الخطيب خطباء»[١]، وأمّا لدى السّرديّين فالخطاب هو الكيفية التي يتمّ من خلالها عرضُ الأحداث في السرد[٢]، وقد أطلق عليه (جيرار جونات) مصطلح الخطاب القصَصِيّ[٣]، ويرى أن الخطاب هو الذي يُمكنُ من دراسته وتحليله[٤]، وهو «دالّ كلاميّ منسق يتجاوز حدود الجملة الواحدة، وفيه وبه تتأدَّى مجموعة من المداليل»[٥]، ويمكن أن يُعبّر عنه بكونه كلامًا يحمل مضمونًا حكائيًّا يحكيه راوٍ إلى مروي له[٦].

وقدْ اقترح (جونات) في تقسيمه الخِطاب عناصر ثلاثة هي الزَّمن، والصِّيّغة، والصَّوت السَّردي[٧]، وسأعتمد هذه المكونات مدخلاً إلى مقاربة خطاب (المستجاد)، وسأفتتحها بالزَّمن، فكيف وظفه التَّنوخي في أخباره؟

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الأول، ص٣٦١.

(٢) علي عبيد، مقاربات سردية، مرجع سابق، ص٢٨.

(٣) وقد استعاض عنه بعض الباحثين مثل (رولان بارت)، و(يان مانفريد) بمصطلح السَّرد، ولم يقصروا السَّرد على القصة المكتوبة كما فعل (جونات) بل شمل لديهم أنواعًا وأشكالاً مختلفة، انظر: رولان بارت، النَّقد البنيوي للحكاية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، ط١، ص٨٩ (منشورات عويدات، بيروت، باريس، ١٩٨٨م)، وكذلك ينظر تفصيله لدى: يان مانفريد، علم السَّرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، ط١، ص٥١ (دار نينوى، سوريا، ٢٠١١م)، ويسميه (ميخائيل باختين) الخطاب الروائي ويرى بأنه ظاهرة اجتماعية لا ينفصل فيها الشكل عن المضمون، انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ص ٤٠-٤٢، وأمّا (تودوروف) فاستنَّ مصطلح السَّردية ويقصد به «كلّ ما يخصّ قوانين الأدب القصصي، ودراسة البنية الداخلية للقصص»، انظر: تزفتان تودوروف، طرائق تحليل السرد الأدبي: دراسة مقولات السرد الأدبي، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد صفا، ط١، ص٤١ (منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ١٩٩٢م).

(٤) لمزيد تفصيل انظر: جيرار جونات، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ترجمة: محمّد معتصم وآخرون، ط٢، ص٣٩ (المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، الرباط، ١٩٩٧م).

(٥) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٨٤.

(٦) محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، ط١، ص١١ (الناشر مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ٢٠١٤م).

(٧) جيرار جونات، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص ص ٤٠-٤٢.

المبحث الأول: زمن القصّ:

الزّمن أو الزّمان من أهمّ مقوّمات المبنى الحكائي[١] في دراسة الأعمال السّرديّة، والزّمن بمعناه العام المطلق هو: «اسم لقليل الوقت وكثيره، وفي المحكم: الزّمن والزمان العصر، والجمع أزمنٌ وأزمان وأزمنة، وزمن وزامن: شديد، وأزمنَ الشيءُ طال عليه الزّمان»[٢].

ويُحدَّد زمن القصّ[٣] بالعلاقة بين زمنيّة الحكاية وزمنيّة الخطاب، فلأحداث الحكاية زمنيّة تتنزل فيها تُدرك من السّياق، ولكن حين تُذكر في الخطاب فإنها: «تتّخذ زمنيّة جديدة هي التي تهبها وجودها النصيّ»[٤]؛ ذلك أنّ زمن الخطاب يتميّز بالخطيّة بينما يَغلبُ على زمن الحكاية التعدّد[٥]، وهذا التلاعب بالنظام الزمني يُتيح للرّاوي إمكانيّاتٍ إبداعية، فقد يروي قصّة بطريقةٍ يتطابق فيها زمن الحكاية وزمن الخطاب القصصيّ، أو قد يتحوّل عن ذلك إلى قصٍّ قوامُه على المفارقةِ الزمنيّة[٦]، ويُقصد بالمفارقة الزمنيّة ذاك التّنافر بين ترتيب الأحداث في الخطاب القصصيّ وبين ترتيبها في الحكاية، ويتمّ التعرّف على هذا التّنافر من خلال ما يَظهرُ من إشاراتٍ زمنيّة في الخطاب، سواءٌ كانت إشارات صريحة أو ضمنيّة[٧].

---

(١) اعتبر الشّكلانيّون الرّوس أنّ النص وحدة مُنغلقة، وسنّوا مفهومين هما: المتن الحكائي والمبنى الحكائي، يفيد الأول الحكاية قبل أنّ تُروى، ويعني الثاني الكيفية التي بها رويت تلكم الحكاية، ويرى (شلُوفسكي) أنّ الحكاية بحد ذاتها ليست فنًّا؛ لأنّها سابقة للنّص الذي وردت فيه، ولكن الفن الحق يتجلّى في ذلك الخطاب الجمالي الذي نقل الحكاية وفق تركيب مخصوص؛ لذلك عدَّ الشّكلانيّون أنَّ أدبيّة النّص إنما تتمثل في الخطاب. انظر: الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ط١، ص٥ (دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٠م).

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، المجلد الثالث عشر، ص١٩٩.

(٣) ويُقصد به: «تجلّيات تزمين زمن القصة وتمفصلاته، وفق منظور خطابيّ متميز يفرضه النوع، ودور الكاتب في عمليّة تخطيب الزّمن، أي إعطاء زمن القصة بعدًا متميزًا وخاصًّا»، انظر: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ط٣، ص٨٩ (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٩٧م)، كذلك يذهب بعضهم إلى أنّ: «زمن القصة مزدوج على الأقل بين زمن الملفوظ أو المدلول أي الحكاية نفسها بوصفها تسلسلاً زمنيًّا وأحداثًا مترابطة، وزمن الخطاب: أي الترتيب الّذي يختاره الراوي لقصّ تلك الأحداث في النص القصصي الذي يقوم بروايته». انظر مزيد تفصيل لدى: سمير المرزوقي وجميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصة تحليلاً وتطبيقًا، ص ١٣٤-١٣٥ (طباعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م).

(٤) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٩٧.

(٥) محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية المعاصرة، مرجع سابق، ص٨٨.

(٦) حميد لحميداني، بنية النص السردي ، مرجع سابق، ص٧٤ .

(٧) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٩٩.

واستنادًا إلى ما سبق، فإنّي اعتمدتُّ في هذا المبحث على تقسيم (جيرار جونات) زمن الخِطاب إلى عناصر ثلاثة، وهي: التّرتيب، والسّرعة، والتّواتر[١].

والسّؤال الّذي ما انفك يخامرني بدءًا هو: كيف رتَّب التَّنوخي خطابه القصصيّ؟

١) التّرتيب:

الترَّتيب مسألة مهمّة في دراسة الزَّمن، إذ الأصل في القصِّ التتابعُ المنطقيُّ، وكذلك الشّأن بالنسبة إلى أحداث الحكايات[٢]، فالخِطاب القصصيّ إنّما يَقتضي ترَّتيب زمن الحكاية المُتشعّب، وينهض التَّرتيب أساسًا على مراعاة الرَّاوي تسلسل الوقائع في سرده، إلاّ أنّ خرْقَه ذلكَ الترَّتيبَ إنّما يؤدّي حتما إلى ما أُطلق عليه (المفارَقةُ الزّمنيّةُ).

فالرّاوي أساسًا لا يُشكّل زمن قصّه اِعتباطيًّا بل يبني ذلك على أسس يُبلّغ بها مقاصده السّرديّة والدّلاليّة التي يستشف المروي له غاياتها من خلال قصّ أحداث الحكاية، وأمّا من النَّاحية السَّردية فيعتمد التّرتيب على مقارنة ترتيب الأحداث أو المقاطع الزمنيّة الواردة في الخطاب بنظام تتابعها في الحكاية[٣]، ويتحددّ التّرتيب من خلال الوقوف على ما أدخله الرّاوي من تحويرات على نظام ترتيب الأحداث وفق إجراءين أساسيين هما: الارتداد والاستباق[٤]، فما المقصود بهذين الإجراءين؟

الارتداد:

يُحدّ الارتداد بكونه سردًا لاحقًا لحدث سابق للّحظة التي أدركتها القصّة، وهو خاضع لمدّة زمنيّة تستغرقها الأحداث منذ انفتاحها حتّى انغلاقها، وتُعرف بسعة الارتداد[٥]، ممّا تصيّره مُندرجًا في أنواع مختلفة؛ فإمّا أن يكون اِرتدادًا داخليًّا[٦]، أو ارتدادًا خارجيًّا[١]، أو

---

(١) قد ظلّت دراسات الباحثين السرديّين زمنَ الخطاب تتطوّر وتتشعّب، إلى أن سنَّ (جونات) منهجًا سرديًّا دقيقًا، انظر للاستزادة: جيرار جونات، عودة إلى خطاب الحكاية، ترجمة محمّد معتصم، ط١، ص٢٥ (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م).

(٢) انظر: محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص٨١.

(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٨٧.

(٤) نفسه، ص٨٨.

(٥) انظر: نفسه، ص ص ١٧- ١٨.

(٦) وتقع سعته أي المدة الزمنية التي يستغرقها من انفتاحه إلى انغلاقه داخل مجال القصة الابتدائية الزمني.
انظر: نفسه، ص ١٧.

ارتدادًا مزجيًّا[٢].

ويضطلع الارتداد داخل النّص بوظائف متعدّدة ذات أهميّة بالغة، إذ يساعد الرّاوي في الكشف عن ماضي الشخصيّات وتوضيح خفاياها، وبيان خلفيّات الأحداث التي قدْ تترتّب عليها بُنى سرديّة جديدة أو إعادة بلورتها، فالارتداد إنّما يحقق بعض السّمات الفنيّة، ومنها ملء بعض الفراغات الزمنيّة الشّاغرة والثغرات الحكائيّة؛ حتّى يساعد القارئ على فهم مسار الوقائع القصصيّة[٣]، فقد يضيء موقفًا سابقًا، أو يُخبر المتلقي بمعلومة ترتبط بالشخصيّة لم يتّسع مقتضى الحال السّرديّ لذكرها[٤].

إنّ التّرتيب القائم على المفارقة الزمنيّة قليل نادر في القصص العربي القديم، وقد أسقطها الدّارسون عند مقاربة التّرتيب، مُلمّحين إلى أنّ الترتيب إنْ هو إلاّ عاديّ[٥]، و لم تشذّ أخبار (المستجاد) عن هذه القاعدة، فهو في الغالب الأعمّ ترتيبٌ خطيٌّ[٦]، وقد يُعزى ذلك إلى قِصر مدّة هذه الأخبار، أو إلى بنيتها البسيطة التي تشتمل في أغلبها على حدث وحيد، أو إلى حرص الرّاوي على أن يكون واضحًا في نقله، مُتحاشيًا قدر الإمكان الغموض، فالرّاوي القديم حريص على التواصل مع المرويّ له بخطاب سهل دون تعريج ولا تعقيد، ولعّله لم يدرك أصلاً أسلوب التشويق الذي أُكتشف حديثًا من خلال فنّ السّيناريو السّينمائي الذي سيغدو خصيصة الرّواية المعاصرة، أو قد يعود ذلك أيضًا إلى طبيعة الخبر في حدّ ذاته الّذي يتأسّس على نقل الواقعة الإخباريّة نقلاً مسترسلاً دون إجراء أيّ انحرافات قد تُخلخل بنية

(١) تقع سعته خارج مجال القصة الابتدائية الزمني.
انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ١٨.

(٢) ويسمى (المختلط): وهو الذي تقع سعته خارج مجال القصة الابتدائية الزمني وبعضها داخله.
انظر: نفسه، ص ١٨.

(٣) سيزا قاسم، بناء الرواية، مرجع سابق، ص٤٠ .

(٤) بشرى عبد الله، جماليات الزمن في الرواية، مرجع سابق، ص١١٧ .

(٥) ويشير محمد القاضي إلى ذلك بقوله: «ولّما كانت المدّة التي تتحدث عنها الأخبار قصيرة عادة، فإن ترتيب الأحداث يكون فيها تصاعديًّا قلّما تعتريه ضروب الارتداد والاستباق». انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٤٠٠.

(٦) ويُقصد به أن يُحيل كل طرف في القصِّ إلى الآخر بشكل تدريجيّ متصاعد، فالحدث السّابق إنّما يُحيل على الحدث اللاحق، مكونًا بذلك سلسلة من الأحداث الحكائيّة المتّصلة، وقد أسماه (جيرار جونات) ترتيبًا من الدرجة الصفر. انظر مزيد تفصيل لدى: جيرار جونات، خطاب الحكاية، مرجع سابق، ص٤٧.

متنها[١]، وآية التّرتيب الخطِّيِّ الخبرُ التَّالي الّذي يورده راوي التَّنوخي: «عن الرّبيع بن سليمان أنّه قال: أخذ رجل بركاب الشّافعي رضي الله عنه فقال: يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني»[٢]، إذ إنَّ قِصَر مدّة الخبر فضلاً عن بساطة أحداثه ولغته المباشرة جَعلت الأحداث مُتعاقبة زمنيًّا، حتّى إنّ الرّجل أخذ بركاب الشّافعي، فأكرمَه واعتذر له، دون أن يَطرأ أيُّ تغيير على ترَّتيب الزّمن.

ومن الأخبار التي يمكن سوقُها في هذا التّرتيب هذا الخبر: «أذن معاوية بن أبي سفيان للناس يومًا فوقف له فتًى من الأعراب، فقال معاوية: ما خطبك؟ فقال: جعلني الله فداك أنا رجل من أهل البصرة تزوجتُ ابنة عم لي وكنت لها عاشقًا، وكانت معجبة بي، فوقع بيني وبين أبيها ما يقع بين الإخوان من الكلام فحجبها عني فأخذني من ذلك ما لا يعلمه إلا الله، فأتيت عاملك ابن أم الحكم فشكوت إليه بعض ما أجد فرقّ لي وبعث إليها وإلى أبيها فأتى بهما، فلما نظر إليها أعجبته فأمر بي فحُبست من غير أن يسمع منها ولا من أبيها، ثم بعث إليّ أن طلقها فأبيت، فعذبني بأنواع العذاب فلما خشيت التلف طلقتها»[٣]، إذ يلوح زمن الخطاب متطابقًا في ترتيبه وترتيب الوقائع في الحكاية، فالأحداث تتجه نحو السَّببيّة بشكل متواتر، بدايةً من هيام الفتى بابنة عمّه وزواجه بها، ثم ما دار بينه وبين أبيها من خلاف أدّى إلى انتزاعها منه غصبا، فتبرّمُ الفتى من حاله، ورفعُ شكواه إلى عامل الخليفة، فإعجابُ العامل بالفتاة، وحبسُه زوجَها وإرغامُه على تطليقها حتّى يفوز بها، كلّها أحداث متعاقبة تعاقبًا منطقيًّا.

ومن الأخبار التي سارت وفق هذا التّرتيب يمكن إيراد ما يلي: «نذر المهدي دمَ رجل من أهل الكوفة وكان يسعى في فساد دولته [...]، فبينما الرجل على تلك الحال إذ سمع وقع الحوافر من ورائه فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال: يا أبا الوليد أجرني أجارك الله [...]، ثم سار إلى المهدي فدخل وسلم فلم يرد عليه السلام، قال: يا معن أتجير عليّ؟! قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: ونعم أيضًا، واشتد غضبه، فقال: يا أمير المؤمنين قتلتُ في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفًا إلى أيام كثيرة قد تقدم بلائي وحُسن غنائي،

(١) عبد الله إبراهيم، المتخيل السّردي، ط١، ص١٠٨ (المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٩م).

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٧٨.

(٣) نفسه، ص٢٤٠.

فما رأيتموني أهلاً أن يُوهب لي رجل واحد استجار بي»[١]، ويمتد الخبر من مطاردة جيوش المهدي للرجل حتى قبضهم عليه ثم إجارة (معن بن زائدة) له وطلب المهدي قدومه إليه حتى يعاقبه فيودع أهله ويؤمن ضيفه، ويخرج للخليفة، فقدْ رتَّب الرّاوي خطابه القصصيّ وفق ترتيب وقوع الأحداث في زمن الحكاية بشكل خطّيّ متماسك، ولعّل القصد من ذلك تحقيق المصداقية في نقل فِعلة من فِعلات الأجواد المشهورين وهو (معن بن زائدة)، إذ إنّ هذه الخطّية تتناسب مع النّزعة التّاريخية التوثيقيّة التي اتسمت بها أغلب المؤلفات العربيّة في العصور الإسلاميّة قبل تحقيقها المتعة الفنيّة.

وإذا كان هذا حال الارتداد في المدونة فماذا عن الاستباق؟

الاستباق:

هو سرد حدث لاحق أو ذكره مقدّمًا في الخطاب[٢]، وللاستباق[٣] نوعان:

أ) الإنباء:

وهو حين يرد الاستباق في هيئة إشارات قصيرة إلى ما سيروى في إبّانه بصفة مطوّلة[٤]، ولا يكون هذا النوع إلاّ صريحًا[٥]، ومثاله في (المستجاد) ما جاء في بداية هذا الخبر: «ما رأيتُ رجلاً عرض على الموت فلم يكترث به ولا شغله عما أراده حتّى بلغه وخلصه الله من القتل، إلاّ تميم بن جميل السّدوسي الخارجي... »[٦]، فقد عُلم من خلال الفاتحة السرّدية ما ستؤول إليه الأحداث من خلاص الشخصيّة ونجاتها من الموت في نهاية الخبر.

أو ما تضمّنه خبر الرّجل النبطيّ مع الشّيباني إذ جاء فيه: «هذا أوان نبيّ يخرج فيملك هذه الأرض، ويحُول بين أربابها وبينها، حتّى إنّ أحدكم ليبتاع البستان بثمن بعير...»[٧]،

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٠.

(٢) انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ٢١.

(٣) وقد صنّفه (جيرار جونات) إلى استباق داخليّ، واستباق خارجيّ، واستباق مختلط، استنادًا إلى موقع المفارقة الزمنيّة من المجال الّزمنيّ للقصّة الابتدائيّة.

انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٢.

(٤) نفسه، ص٣٨.

(٥) نفسه، ص٤٨.

(٦) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١١٧.

(٧) نفسه، ص٦٦.

فالراوي قد أعلن عن الحدث الذي ورد في آخر الخبر: «وما مضت إلاّ أيّام حتّى اشتريت بثمن بعير من إبلي بستانًا بالحيرة»[١]، فالراوي باستخدامه تقنيّة الاستباق حَفز المرويّ له إلى استقبال تطوّر الأحداث ونموّها، فأوجد لديه حالة انتظار[٢]، وإذا كان ذلك كذلك فما البارقة؟

ب) البارقة:

وهي التطلّع إلى ما هو متوقّع أو محتمل الحدوث، ولا تُفهم إلاّ بصفة ارتداديّة فهي مجرّد محطّة انتظار شأن البذرة لا تكاد تُلمح في النصّ السرديّ[٣]، وآية ذلك ما تضمنه خبر جعفر بن يحيى مع عبد الملك بن صالح الهاشمي وهو عمّ الرّشيد الوقورُ إذ دخل على جعفر في مجلس خمر: «فلمّا رآه جعفر اِسودَّ وجهه»[٤]، فاسوداد وجه جعفر دليلُ حيائه من الرجل وعظيم تقديره له، وهو ما سيتّضح في تضاعيف الخبر الطويل.

يُستنتج ممّا أنِفَ:

أنَّ السّمة البارزة في ترتيب أغلب أخبار (المستجاد) هي الخطّية، إذ يفضي سابق الأحداث إلى لاحقه في تسلسلٍ مُطّرد، فغياب القصّة الابتدائيّة في أغلب النّصوص جعل المدوّنة شبه خالية من تقنيّة الارتداد، وإنْ تمَّ رصد بعض الأخبار، وقد استخدمتْ فيها تقنيّة الاستباق وإن ظلّ حضورها منحسرًا فإنّ ذلك دليلٌ على أنّ راوي التَّنوخي لم يشذّ في سرده عمّا كان سائدًا في القصّ القديم، من حيث تطابقُ ترتيب الأحداث في الحكاية وترتيبها في الخطاب القصصيّ.

وإذْ سعى التّحليل سالف الذّكر إلى إيضاح طريقة ترتيب راوي التَّنوخي في قصّ أخباره فإنّ السّؤال الذي يقتضي الإجابة الآن هو: كيف سرد أخباره تلك؟ أسَرَدَها مسرعًا أم مبطئًا؟

---

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، الصفحة نفسها.

(٢) للاستباق وظائف سردية متعددة يؤديها داخل الخطاب القصصي. انظر تفصيله لدى: مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، ص ٢١٢ – ٢١٣ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م).

(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ٤٨.

(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٥٢.

٢) السّرعة:

إنّ السّرعة عنصر أساسيّ من عناصر الزّمن القصصيّ، شأنها شأن التّرتيب والتّواتر، تَدرس المتغيّرات التي تطرأ على نسق السّرد وإيقاعه[١]؛ لذلك فهي تُعنى بدراسة «العلاقة بين الحيّز الذي استغرقته الوقائع في الحكاية والحيّز الذي امتدّ عليه سردها في الخطاب»[٢]، ومن خلال المقارنة بين الحيّزين يُعرف نسق السّرد إسراعًا كان أم إبطاءً، ونتيجة لذلك، تُرصد لدراسة السّرعة حركات سرديّةٌ أربعٌ تُدرج في نسقين اثنين، وهما:

١- إسراع السرد: ويقتضي حركتين سرديّتين، وهما: الإضمار (الحذف)، والمجمل (التلخيص)، فكيف وردتا في أخبار (المستجاد)؟

الإضمار[٣]:

ويُستخدم لإسقاط زمنٍ مّا أو تهميش ما جرى فيه من أحداث، إذ يُسرع الرّاوي بالأحداث نحو نهاية الحكاية مُتجنبًا بذلك ترهّل السّرد، وكلّما قد يُورث الملَلَ والضّجر.

ويمكن تفريعه إلى:

١- إضمار مُعلن محدّد: وهو إضمار تُعيّن فيه المدّة الزمنيّة المحذوفة من الحكاية، ومثاله ما انطوى عليه هذا الخبر: «ورجعت إلى ديار قومي، وأقمت سبع سنين ثم عدت إلى الحجاز...»[٤]، فهو إضمار معلن محدّد بسبع سنين غابها الرجل عن الحجاز، وحتى لا أقتصر على شاهد واحد أسوق هذا أيضًا: «فلمّا دخل المدينة فرق فيها تلك الأموال حتى احتاج بعد شهر إلى القرض...»[٥]، فقد أسقط الرّاوي من الأحداث شهرًا كاملاً.

٢- إضمار مُعلن غير محدّد: وفيه لا يتمّ تعيين المدّة الزمنيّة المحذوفة من الحكاية، حسبي منه مثالاً الخبر التّالي: «فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٥٤.

(٢) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٢.

(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٠.

(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٥) نفسه، ص٢٢٠.

سالمين فألـــمّي بنا فإنّا صانعون إليك خيرًا ثم ارتحلوا، وأقبل زوجها وأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب وقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثم تقولين: نفر من قريش، ثم بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها»[١]، فقد أسقط الرّاوي من السرد فترة زمنيّة هي ما بين ارتحال القوم عن المرأة ثم دخولها مع زوجها إلى المدينة بعد مدّة، بل يمكن إيراد خبر آخر من قبيل هذا: «كان هذا يتقلد مصر سنين...»[٢]، فلعّل لفظة (سنين) إنّما تشي بمدّة محذوفة من الأحداث، لكنّها غير محدّدة.

والرّاوي غالبًا ما يستخدم الإضمار لاختزال الأحداث الثانويّة التي لا تطوِّر السّرد، وهو بهذا الفعل يدفع الأحداث إلى الإسراع نحو نهاية القصّة، فيتخلى عن الزّمن الذي يتراءى له أنّه صيّر السّرد مترهّلاً متورّما؛ ممّا قد يُورث المقروئيّةَ الملَّ والضّجرَ، إلاّ أنّ الإضمار المعلن بنوعيْه يجعل القارئ مطلعًا على الأحداث، ويخوّل له إقامة تصوّر كامل عن مجريات القصّة وفق فضاء زمنيّ محدّد، بيد أنّ هذا الضّرب من الإضمار يرد في نصوص المدوّنة قليلاً نادرًا.

٣-إضمار ضمنيّ: وهو إضمار لا يُعلن عنه صراحة، إنما قد يُستشف وجوده من خلال فجوات يتفطّن إليها القارئ في مسار الأحداث ومن خلال منطقها الزّمني.

حسبي استدلالاً عليه خبرُ: «حججت سنة إلى بيت الله الحرام، فلما قضيت حجّي عدت لزيارة قبر محمد صلى الله عليه وسلم...»[٣]، فما بين مكّة والمدينة المنوّرة مسافة لا تُقطع بوسائل النّقل البطيئة إلاّ في أيام معدودات سقطت أحداثها من السرد، فقد يكون المحذوف تفاصيل هامشيّة لا تعرقل فهم النصّ مطلقًا.

كما يتوفّر إضمار ضمنيّ في خبر: «فأمر غلمانه لوقته باستدعاء عشرة مشايخ سماهم، ثم قام فأخرج بدرتين فيهما عشرون ألف درهم، وحضر المشايخ...»[٤]، فاستحضار مشايخ عشرة يقتضي وقتا مخصوصًا وليس بالقصير، وقد جنح الراوي إلى حذف مختلف التفاصيل في سرده، مُقتصرًا على عبارة حضروا جميعًا إلى بيت الرّجل، ولم يوضّح الكيفيّة

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١١.

(٢) نفسه، ص٣٥.

(٣) نفسه، ص١٢٦.

(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

التي بها تمّ استدعاؤهم؟ على أنّ إيراد التفاصيل الدّقيقة قد يبخس لذّة التّشويق، ويُجهز على متعة المتابعة.

لذلك كلّه، فإنّ الإضمار يمنح الرّاوي حريّة التصرّف في قصّ الوقائع، فقد يستغني عمّا يراه هو هامشيًّا معطّلاً تعاقبها، وإنْ كانت الحاجة تقتضي ذكر زمنها الفعلي استخدم عندئذ الإضمار المّعلن المحددّ ليعرّف المرويّ له بالزّمن الذي استغرقته أحداث الخبر، على حين أنّ الإضمار الضّمني قد اضطلع بتجلية الأحداث المسلّم بها، مقتصرًا على التلميح إليها من خلال الثغرات الزّمنية التي تستصفى من النصّ، وإذا كان هذا حال الإضمار فكيف ورد المجمل في أخبار (المستجاد)؟

المجمل[١]**:**

وفيه تكون البُنى السردية متضمّنة تلخيص أحداث جرت دون الخوض في تفاصيلها، والفيصل بين الإضمار والمجمل هو أنَّ الإضمار يحذف حذفًا كاملاً من سياق الأحداث مددًا زمنيّة قد تطول أو تقصر، بينما في المجمل لا يعتمد الرَّاوي على الحذف بل يُجمل أحداثًا ويختصرها في حيّز المستطاع، حسبي على ذلك دليلاً خبرُ: «وحجّ معاوية تلك السّنة، فلمّا انقضت أيّام الحج كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وكتب فيهم اسم أبي دَهبَل...»[٢]، إذ يتّضح حجّ معاوية، وانقضاء أيّام الحج دون أن يُعرف بأيّ صورة مرّت، لكن سرعان ما يُدرَك اجتماعُ معاوية بالشاعر أبي دَهبَل، وقد أزمع معاوية على الحجِّ بغية اللّقاء به في تلك السنة بالذات.

ومن هذا الضَّرب أيضًا خبر: «فلم أزل في جواره إلى أن هلك الواثق، وأنا عنده في أهنأ عيش، وأغبط نعم، فرحلت عنه وأنا من أشكر الناس له»[٣]، فالراوي أَجمل سنوات طويلة من إقامة الشخصيّة المحوريّة في بني شيبان، مُقتصرًا على إيراد عبارة مختصرة وهي: «في أهنأ عيش، وأغبط نعم».

---

(١) وهو سرد وقائع استغرقت زمنًا طويلاً من الحكاية في حيّز محدود من الخطاب، إذ تُختزل فيه أحداثٌ استغرقت أيامًا أو أشهرًا أو أعوامًا في حيّز من النص، قد يمتد على بضعة أسطر أو فقرات أو صفحات دون تفصيل للأحداث. انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ٣٧٣.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٢٦.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١٦.

ويُلمس المجمل أيضًا في هذا الشّاهد: «أصابت بني شيبان سنة ذهبت بالأموال، فخرج رجل منهم بعياله حتى أنزلهم الحيرة...»[١]. فالسرد يبدأ مجملاً إلى أن ينهي الرّجل رحلته التي بفضلها كسب قوت عياله. فسنة أذهبت أموال الناس وجعلتهم يقاسون الجوع والفاقة؛ ممّا حدا بهم الأمر إلى الهجرة عن بلدانهم، لكنّ الرّاوي لخّصها في قوله: (أذهبت الأموال).

ويُستفاد التّلخيص أيضا من عبارة دالّة على اختصار استخدمها التّنوخي في كثير من أخباره من قبيل تركيب (كذا وكذا)، أو (كيت وكيت) مُدلّلاً بها على ورود الحدث في مرة سابقة دون الحاجة إلى إعادة ذكره[٢]، حسبي دليلاً خبرُ: «كان الأفشين مبغضًا لأبي دلف القاسم العجلي، وحاسدًا له على فضله، فحمل نفسه يومًا على قتله واستدعاه باستحثاث وإزعاج، وكان أبو دلف صديقًا لقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد فبعث إليه: أدركني فمن أمري كذا وكذا...، فلما دخل عليه قال: يا أمير المؤمنين قد كذبت عليك واحدة أرجو بها الجنة ولك بها الفخر، قال: وما هي؟ قال: كان من الأمر كيت وكيت...»[٣]. وما يلاحظ في الخبر السابق أنّ الراوي استخدم التراكيب الدالة على الإيجاز بدل التفصيل.

يُستخلص ممّا سبق، أنّ المجمل قد أدّى في أخبار المدوّنة دورًا مُفادُه اختزالُ فترات زمنيّة مهمّة، وإذا كان راوي التّنوخي قد جنح في قصّهِ إلى الإسراع فإنّه لا يعدمُ كذلك إبطاءً، فكيف تجلى الإبطاءُ في المدوّنة؟

٢- إبطاء السّرد: ويقتضي إبطاء السرد حركتين سرديّتين وهما:

المشهد:

يتحقّق المشهد عند تساوي زمن الحكاية وزمن الخطاب، إذ يتقلّص حضور الرّاوي ليهيمن حضور الشخصيّة بشكل مباشر، ويتميّز المشهد بخصيصتين اثنتين: أولاهما تتعلّق بتصوير الأحداث بكامل تفاصيلها، ونقل خطاب الشخصيات بحذافيره. بينما الثّانية تُرصد

(١) نفسه، ص٦٦.

(٢) انظر: محمد محمود حرب، السرد في أدب القاضي التنوخي، مرجع سابق، ص ٧٣.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤٨.

لخلق وهم التّمثيل[١]، على حين أنّ المشهد أيضًا تقنية تمنح «الامتياز للمشاهد الحواريّة، فتختفي الأحداث مُؤقّتًا، وتُعرض أمامنا تدخّلاتُ الشّخصيّات كما هي في النصّ»[٢]، وقد يتنازل الرّاوي من خلال توظيفه تقنية المشهد عن دوره في القصّ للشخصيّات، مُفسحًا لها المجال حتّى تتحاور فيما بينها. وقد يرد حوارها حوارًا ثنائيًّا شأن ما يضمّه هذا الخبر: «يا غلام كم قوتك في اليوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرتَ هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب وإخاله جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت رده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، قال: ألام على السخاء إن هذا إلا أسخى مني... »[٣]، ومثاله أيضًا خبر: «دخل يزيد بن معاوية على أبيه فوجده مطرقًا فقال: يا أمير المؤمنين ما هذا الأمر الذي أشجاك؟ قال: أمر أمرضني وأقلقني منذ اليوم، قال: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الفاسق أبو دهبل كتب إلى أختك عاتكة بهذه الأبيات...»[٤]، وقد يتجلّى المشهد الحوارّي كذلك في خبر: «فقال له المنصور: قد رُفع إلينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبني أمية فأخرجْ إلينا منها، فقال: يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية، قال: لا، قال: فوصيٌّ لهم في أموالهم ورباعهم، قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك...»[٥]، فقد اضطلعت المشاهد الحوارّية بإبطاء سرعة السّرد بفضل الخطاب المباشر الّذي تمّت فيه الاستعاضة بالحوار عن الأحداث القصصيّة. فلو حُذف الحوار لما بقي من هذه الأخبار شيءٌ يُذكر، إنّه لُحمتها وسَداها.

وقد يأتي المشهد الحوارّي تبادلاً لفظيًّا بين شخصيّات مُتعدّدة، ومثاله: «تمارى ثلاثة في الأجواد، فقال رجل: أسخى النّاس في عصرنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقال آخر: بل أسخى النّاس اليوم عرابة الأوسي، وقال آخر: بل هو قيس بن سعد بن عبادة، فتلاحوا وأفرطوا في المراء وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: قد أكثرتم الملاحاة فلا عليكم أن يمضي كلّ واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتّى ننظر ما يعطيه فنحكم على

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٩٤.

(٢) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٢٠ .

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٧.

(٤) نفسه، ص٢٢٦.

(٥) نفسه، ص١٨٤.

العيان...»[١].

وقد يكون الحوار باطنيًّا تخوضه الشخصيّة مع ذاتها، وآية ذلك ما تضمّنه خبر يونس الكاتب: «فما هو إلاّ أن غاب عنّي حتّى عرفتُ موضع خطئي وغلطي، وقلتُ: ماذا صنعتُ بنفسي وجنيتُ عليها؟ أسلمتُ الجارية إلى رجل لا أعرفه ولا أدري ممّا هو، ولا ما اسمه ونسبه، ولا من أي البلاد هو؟ وهبْني عرفته من أين أصل إليه، وجلست مفكّرًا حتّى أصبحت...»[٢]، فالحوار مع الذّات قد يُخوّل للرّاوي الكشف عن دواخل الشخصيّات وطبائعها وأفكارها.

والمشاهد الحواريّة غالبًا ما توظّف قصد الإيهام بواقعيّة الأحداث والشّخوص، فالتبادل الحواريّ يُيسّر للمتلقّي إمكانيّة المشاركة بوصفه طرفًا ثالثًا صامتًا يُصغي للمتحاورين، وهو لا ينفكّ يضطلع بعمليّة التّحليل والتّركيب، والربّط والاستنتاج[٣].

وقد يكون المشهد ممسرحًا للأحداث، فيَخلقُ لدى المروّي له الوهم بالتمثيل أو المشاكلة[٤]، ومثاله خبر المعتصم وندمائه مع القاضي أحمد بن أبي دؤاد: «أنّ المعتصم كان بالجوسق مع ندمائه [...]، وأكل من جميعها كما ذكر ثم قال: أمّا هذه فقد أحسن صاحبها إذ أظهر فلفلها وقلّل كمونها، وأمّا هذه فقد أجاد صاحبها إذ كثر خلّها وقلّل فلفلها ليشتهى حمضها، وأمّا هذه فقد أحكمها طبّاخها بتقليل مائها وكثرة رُبِّها...»[٥]، فقد التمسوا منه الحكم على طبخ الأطعمة التي قدّموها إليه، فتعداده مزاياها بتفاصيل دقيقة إنّما يعطي انطباعًا على البطء الزّمني الذي تمّ فيه الوصف، فضلاً عن إحساس بمسرحة الحدث، وكأنه ماثل أمام المروّي له.

وإذْ بيّن العرض السّابق مدى توسّل راوي التّنوخي بالمشهد إلى إبطاء السّرد، فماذا عن الوقفة؟

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٢٥.

(٢) نفسه، ص١٤٤.

(٣) بشرى عبد الله، جماليات الزمن في الرواية، مرجع سابق، ص١٤٨.

(٤) المشاكلة: وهي «أن يبدو الكلام مقبولاً مُقنعا، وأنْ يتزيّا بزيّ الحقيقة». انظر: محمّد القاضي، الخبر في الأدب العربي، نفسه، هامش ص٢٠٩.

(٥) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٦.

الوقفة:

يُقصد بالوقفة إيقاف أحداث الحكاية رغم استمرار الخطاب، إذ يشير المصطلح إلى مواضع في القصّة يتعطّل فيها السّرد، فتُعلق الحكاية ليفسح المجال إلى الوصف أو التعليق، أو التأمّل أو غيرها من الاستطرادات التي تندرج في ما يسمى تدخّلات المؤلّف، وتجسّد أقصى درجات الإبطاء في السرد[١]، وتتوفّر خاصّة في الجمل الوصفيّة التي دخلت في خطاب الخبر، فعطّلت الوقائع، وجعلت الرّاوي مُركّزًا على مكان أو هيئة، أو دارسًا نفسيّة الشّخصيّة، ولهذه الوقفة غايةٌ، وهي تعليق زمن الأحداث[٢].

ونسوق خبرًا من (المستجاد) يجلّي الوقفة: «بيت مشرف على رابية منيعة، وبفنائه فرس مربوط، ورمح مركوز يلمع سنانه، ومن تحته حلّة عظيمة (...)»[٣]، فهذه الوقفة الوصفيّة لم تعطّل مجرى الأحداث بقدر ما انصهرت في السّرد، مميطة اللّثام عن المنزلة الاجتماعية التي يحظى بها الشّيخ الشّيباني في قبيلته، وتُلمح أيضًا وقفة وصفيّة في خبر: «أقبل معه حمّال عليه كلّ ما يُحتاج إليه من خبز ولحم، وقدر جديدة وآلتها، وجرة نظيفة، وكيزان جدد...»[٤]، إذ تعطّل السّرد، واضطلع الراوي بوصف هذه الآلات المستخدمة في الطّهي، بيد أنّ هذا الوصف امتزج أيضًا مع السّرد، شافًا عن الكرم الذي أسبغه الرّجل اللحّام على إبراهيم بن المهدي حين استجار به.

ويُلاحظ أنّ حضور الوقفة قليل نادر في أخبار (المستجاد)، شأن حضورها في الأجناس النثريّة القصصيّة القديمة، إذ قد تنعدم المقاطع الوصفيّة أو قد تحضر حضورًا لا يُعطّل السّرد.

يُستصفى ممّا سبق، أنّ السُّرعة في أخبار (المستجاد) قد راوح فيها الرّاوي بين إسراع السَّرد وإبطائه، ولـــمّا كانت الأخبار تتوسّل إلى التّبليغ بالإيجاز[٥]، فإنّ ذلك من شأنه أن يبرّر ورود الإضمار فيها، فقد يكون راويها آثر الاستعاضة عن الكلام فيها بالصمت، فضلاً عن كونه وظّف المخاتلة والتقنّع حرصًا على إشراك المتلقّي في النصّ بدعوته إيّاه إلى ملء

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤٧٨.

(٢) حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، مرجع سابق، ص١٢٠.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١٦.

(٤) نفسه، ص٧٤.

(٥) انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٩٢.

ثغراته وإكمال نقصه[١]، على أنّه قد يُلاحظ أنّ المجمل والمشهد كليْهما كانا الأبرز حضورًا في جلّ الأخبار، وأمّا الوقفة فنادرة الحضور في (المستجاد)؛ ذلك أنّ الرّاوي في أكثر أخباره إنّما يركز على موضوع الكرم وقالبه العامّ جانحًا إلى الإيجاز دون تفصيل، أو وصف أو إسهاب.

فإذا كان هذا حال السّرعة فكيف حضر التواتر في خطاب المدوّنة؟

٣) التّواتر[٢]:

يُهيمن على نصوص الأخبار في المستجاد القصّ الإفرادي[٣]، ذلك أنّ ما حدث من وقائع في الحكايات مرّة يضطلع الخطاب القصصي بسرده مرّة أيضًا، إلاّ أنّ التّواتر في المدوّنة لا يخلو من قصّ إفرادي متعدّد[٤]، وَرَد في أخبار من قَبِيل هذا: «فحلب في عسّ حتّى ملأه ووضعه بين يدي الشّيخ، وتنحّى فكرع فيه الشّيخ مرّة أو مرّتين ثمّ نزع فنثرت إليه فشربته فرجع العبد فقال: يا مولاي قد أتى على آخره، ففرح بذلك فقال: احلب له فلانة فحلبها، ثمّ وضع العسّ بين يدي الشّيخ فكرع فيه كرعة واحدة ثم نزع فنثرت إليه فشربت نصفه...»[٥]، وما يُلاحظ هو أنّ أحداثًا على غرار الحلب، والشّرب تكرّرت في الحكاية فتعاودت في الخطاب أيضًا. والأمر ذاته يُستشفّ في خبر إبراهيم بن المهدي والتطفّل، فقد تكرّرت جملة: «اندفعت فغنّيت»[٦] ثلاث مرات في الخبر.

وأمّا القصّ التأليفيّ[٧] فيَتّضح في مواضعَ، منها على سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) علي عبيد، مقاربات سردية، مرجع سابق، ص٢٦٤.

(٢) ويتعلّق بدراسة العلاقة بين نِسب تَكرار الحدث في الحكاية ونِسب تكراره في الخطاب القصصي. انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٣) وهو أن يروى في الخطاب مرة ما حدث في الحكاية مرة.

انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٢٢.

(٤) وهو أن يروى أكثر من مرة ما حدث أكثر من مرة.

انظر: نفسه، ص٣٢١.

(٥) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٦٦.

(٦) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

(٧) وهو أن يروى في الخطاب مرّة ما حدث في الحكاية أكثر من مرّة.

انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٢٣.

- «يا أمير المؤمنين قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفًا»[١].
- «وكان في كلّ يوم يفعل مثل فعله في يوم حلولي به، فأقمتُ أيّامًا في أطيب عيش»[٢].
- «ثم دخل، فهتك السّتر عليّ، وأمتع السّوط منّي تمام عشرين سوطًا»[٣].
- «فغمز يد الغلام غمزة، ثم انصرف فنظرت في يد الغلام صرّة، فاعتبرتها، فإذا فيها مائة دينار، فقلت له: أتعرف الرّجل؟ قال: لا، فلمّا كان من الغد، جاء ففعل كفعله بالأمس، فلما كان في اليوم الثّالث جاء ففعل كفعله في اليومين المتقدّمين...»[٤].

فقد أدرج الرّاوي هذا القصّ التأليفيّ في الخطاب استعاضةً به عن تَكرار الوقائع التي قد تُورث المرويّ له الملل والسآمة، وكثيرًا ما يتعالق هذا النّمط مع القصّ الإفرادي في النصوص السّرديّة القديمة على سبيل الإيجاز، فينهض بمهمّة إسراع القصّ بل ضبط الإطار، أو اقتراح خلفيّة معيّنة[٥].

وأمّا القص التّكراري[٦] فلا تخلو منه الأخبار غالبًا في إسنادها، فما كان قصّه الرّاوي الأوّل قد تلقّاه الرّاوي الثّاني وحدث به راويًا آخر، وهكذا دواليك[٧].

وقصارى القول، إنّ حضور القصّ الإفراديّ في أخبار المدوّنة هو الّذي كان طاغيًا على بقية أنواع التواتر، ولعل السّبب في ذلك عائد خاصّة لاحتفاء الخبر بتسجيل «اللحظة العابرة»[٨]، وقد يكون السرّ في جنوح الرّاوي إلى القصّ التأليفيّ نتيجة التزام التّنوخي في حدّ ذاته بسنة التّأليف في أدب الأخبار، وما يستفاد أيضًا أنّ هيمنة نمطي القصّ الإفرادي والتأليفي لا تقتصر على أخبار (المستجاد) بقدر ما تتعدّى إلى القصّ القديم عموما، فهما، بلا شكّ، إنّما يمثّلان ملمحًا أساسيًّا من ملامح السرديّة العربية، إذ يُتبيّن استبداد القصّ

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٠.
(٢) نفسه، ص٢١٦.
(٣) نفسه، ص٤٩.
(٤) نفسه، ص٦٣.
(٥) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٢٣.
(٦) وهو أن يروى أكثر من مرة في الخطاب ما حدث مرة واحدة في الحكاية. انظر: نفسه، ص١٢٢.
(٧) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٣٩٩.
(٨) محمّد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٩٨.

التأليفي بالحضور في الأخبار الطويلة، ولا سيّما ذات البُنى المركبة أكثر من حضوره في الأخبار القصيرة النّاهضة على حدث وحيد، إلاّ أن توظيف التَّنوخي هذا النّوعَ من القصّ بشكل واضح دليل على نضجه الفنّيّ؛ ممّا يجعل أخباره متنكّبة عن التّكرار السّمج، غير جلاّبة للضّجر والسآمة. على حين أنّ القص التَّكراريّ يُلمح خاصّة في سلاسل إسناد طويلة اشتمل عليها كتاب (المستجاد) يناهز عددها اثنين وثلاثين خبرًا، وإن قورنت بأسانيد مفردة فإنّ أخبارها تقدّر بثمانية وتسعين خبرًا فهي لذلك، تظلّ محدودة العدد. ولَمّا كان هذا شأن زمن القصّ في أخبار (المستجاد) فماذا عن الصّيغة؟

المبحث الثاني: الصّيغة:

تُعدّ الصّيغة إحدى المقولات الثلاث الأساسية في دراسة الخطاب القصصيّ إلى جانب الزّمن والصّوت السّردي[١]، وتَنهضُ على الطّريقة الّتي يتوخّاها الرّاوي في تقديم الخبر للمرويّ له، وهي ما تُعرف بأساليب القصّ، كما تَنهضُ على الطّريقة الّتي يَرى بها ذلك الرّاوي وهي ما يُصطلح عليها بوجهة النَّظر[٢]، وسأُفصّل الحديث عن تلك المفاهيم لاحقًا.

فما الأساليب الّتي اِعتمدها راوي التّنوخي في سرده أخبار (المستجاد)؟ وما أنواع وجهات النَّظر الّتي أدرجها في خطابه؟

١- أساليب القصّ:

يُعتبر الأسلوب القالب الّذي يصوغ فيه المؤلِّف إبداعه ويتميّز من خلاله، ويُقصد بالأسلوب الطَّريقة الّتي يتوسّل بها الرَّاوي إلى تقديم الحكاية للمرويّ له[٣]، ومنها أساليب القصّ الّتي اِعتمدها راوي التّنوخي سواءٌ أسرد أم نقل حوارًا أم اِستخدم وصفًا، وتَضمُّ الأساليب القصّصية في أيّ خطاب مكوّنات ثلاثة، وهي:

السّرد:

يعني السّرد «صوت الرّاوي يطوي الأحداث طيًّا سريعًا»[٤]، وهو السّرد المحض الّذي يتمثّل في قصّ الأحداث، وتكون فيه للرّاوي سلطة القول[٥]، وهو ما يُعايَن داخل خطاب (المستجاد) في أخبار كثيرة، إذ ينطلق الخبر غالبًا بسرد خالص لا يتخلّله حوار، ويُختتم بقصّ أيضًا، وآية ذلك ما يتوفّر في الخبر التّالي: «قَدم الشّافعي رحمه الله من صنعاء إلى مكّة بعشرة آلاف دينار، فضرب خِباءه في موضع خارج مكّة ونثر الدّنانير على ثوب، ثم أقبل على كلّ من دخل عليه يقبض قبضة ويعطيه حتّى صلى الظّهر، ونفض الثّوب وليس عليه

(١) انظر تفصيله لدى: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(٢) ولا يتّفق السّرديّون في ضبط حدود الصّيغة وتعيين مباحثها، فبينما لا تتّسع دراسة الصيغة عند (تودوروف) لمباحث وجهة النّظر والرّؤية بل تعتمد على أسلوب تقديم الرّاوي الحكايةَ وفق صيغتي السّرد والتمثيل، فإنّ المسافة والمنظور لدى (جونات) يندرجان في صيغتيْ تنظيم الخبر السّرديّ. انظر مزيد تفصيل: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٣) محمد القاضي، تحليل النص السردي بين النظرية والتطبيق، ط١، ص٦١ (مسكيلياني للنشر، تونس، ١٩٩٧م).

(٤) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٣٩٠.

(٥) انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٢٠.

شيء»[١]، فالرّاوي اضطلع بمهمّة نقل الأحداث، فباشر بمفرده ما رُوي وكان محايدًا في نقله، فساهم أسلوب مرويّه ذاك ولغته البسيطة في تتالي الأحداث، ونحَت طبيعة الخبر إلى الإيجاز وتميزت بالتركيز.

واعتمد الرّاوي أسلوب السّرد أيضًا في خبر: «لما حضرتْ عمر بن عبد العزيز الوفاة دعا بنيه، وكانوا أحد عشر ابنًا، وكان عنده مَسلمة بن عبد الملك، ولم يخلِّف غير بضعة عشر دينارًا، فأمر أن يُكفن ويُشترى له موضع يُدفن فيه بخمسة دنانير، ويُفض الباقي على ورثته، فأصاب كل ابن نصفًا وربع دينار...»[٢]، يتّضح أنّ الخليفة وبنيه الأحد عشر ومَسلمة بن عبد الملك لم يشاركوا في نقل أحداث الخبر للمرويّ له، بل إنّ الرّاوي من خارج الحكاية هو من ناب عنهم في ذلك، وهذا ما يجري غالبًا في القَصَصِ ذي الطابع التّاريخي المتّسم بالتّوثيق.

بيد أنّ في أخبار (المستجاد) كثيرًا ما يراوح الأسلوب فيها بين السّرد والحوار؛ بُغية كسر الرّتابة الّتي قد تنتاب المتلقّي، وقد يَصدقُ هذا على أخبار من قبيل: «يُروى أن عبد الله بن جعفر خرج إلى ضيعة له، فنزل على نخيل قوم وفيها غلام أسود يقوم عليها، فأُتي بقوته ثلاثة أقراص، ودخل كلب فدنا من الغلام، فرمى إليه بقرص فأكله، ورمى إليه بالثاني فأكله، ثم الثّالث فأكله، وعبد الله ينظر إليه»[٣]. إذ بدأ الخبر بالسّرد الّذي اضطلع بتحديد الإطار العامّ للقصّة ثمّ توسّط الحوار الخبر على هذا النّحو: «فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فَلِمَ آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب وإخاله جاء من مسافة بعيدة جائعًا فكرهت ردّه، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السّخاء! إنّ هذا لأسخى مني»، حتّى يعود الخبر فيُختتم بالسّرد أيضًا: «فاشترى الحائط والغلام وما فيه من آلات، وأعتق الغلام، ووهبَ ذلك كله له»[٤]، فالتّناوب بين السرد والحوار كثير في أخبار (المستجاد)، والشواهد عليه قد تنْأَى عن الحصر.

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٧٩.

(٢) نفسه، ص١٨٣.

(٣) نفسه، ص١٧.

(٤) نفسه، الصفحة نفسها.

فإن تَكفّلت الإلمامة السّابقة بمعاينة ورود السّرد في أخبار (المستجاد)، فحريّ تتبّع الكيفيّة الّتي بها تجلّى الحوار في خطابه القصصي؟

الحوار:

يُحدّ الحوار بأنّه: «مصطلح يُستعمل للدّلالة على ما يُتبادل من أقوال وردود عليها، بين شخصّيتين فأكثر بطريقة متواصلة»[١]، وقد بان الحوار في أخبار (المستجاد) عبر مستويْن اِثنين، وهما:

١- الحوار الخارجي:

وهو حوار منطوق بالضّرورة، يجري بين طرفين أو أكثر، فتتناوب فيه شخصيّتان أو أكثر على الحديث وتبادل الكلام بطريقة مباشرة[٢]، وهو الأذيع في خطاب (المستجاد) والشّواهد على ذلك لا تحصى ولا تعدّ، حسبي منها خبرُ: «وحضر بن أبي دؤاد المجلس فجلس دون مجلسه الّذي كان يجلس فيه، فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك، فقال: يا أمير المؤمنين ما أستحق إلا دون هذا المجلس، قال: وكيف؟ قال: الناس يزعمون أنه ليس محلي محل من يَشفع في رجل قُذفَ بما ليس فيه، و لم يَصحَّ عليه منه شيء فلم يشفع، قال: فارتفع إلى موضعك، قال: مشفعًا أو غير مشفع؟ قال: بل مشفعًا، قد وهبتُ لكَ خالدًا ورضيتُ عنه...»[٣]، فهذا الحوار تبادل لفظيّ بين شخصيّتين، على أنّ الحوار يضطلع بأدوارٍ في الخطاب مهمّةٍ لعلّ أبرزها مساهمته في التعريف بطبائع الشّخصيات والكشف عن بواطنها في أخبار جمّة تضمّنتها المدوّنة. منها ما قد يُعاين في هذا الخبر: «فلما دخل على الحجاج قال له: أنت يزيد بن قرة؟ قال: نعم. قال: قتلني الله إن لم أقتلك، قال: نشدتك الله أن تقتلني فإني قيّم أربع وعشرين امرأة ليس فيهن رجل غيري ولا لهن قيّم سواي. قال: من يعلم ذلك؟ قال: هن بالباب...»[٤]، ذلك أنّ الحديث الذي خصّ به يزيد بن قرة نفسه، وتركيزه بالأخصّ على كونه عائل عدد كبير من النّسوة هو الّذي نجّاه من القتل في نهاية

(١) محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص٤٤٥.

(٢) فاتح عبد السلام، الحوار القصصي: تقنياته وعلاقاته السّرديّة، ط١، ص٤١ (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٩م).

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٥٩.

(٤) نفسه، ص٢٣٣.

الخبر.

وفي الاتجاه ذاته يُتبيّن من خبر (خزيمة وعكرمة الفياض) والّذي جاء فيه أنّ عكرمة: «تقدّم إلى الباب ودقّه بنفسه فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس وقال: أصلح بهذا شأنك، فتناوله خزيمة فرآه ثقيلاً فوضعه ثم أمسك لجام الدابة، وقال له: من أنت؟ جعلت فداك قال: ما جئتك هذه الساعة وأنا أريدك أن تعرفني، قال: فما أقبلُ أو تخبرني من أنت؟ قال: أنا جابر عثرات الكرام...»[1]، إنّ عبارة: (أنا جابر عثرات الكرام) يُستشف منها ما تنطوي عليه شخصية (خزيمة) من كرم، وإن كان قليل ذات اليد، وكذلك ما تتوفّر عليه شخصية (عكرمة) من مروءة ومساعدة للضعيف دون الكشف عن نفسه منعًا لإحراجه.

وقد يَنهض الحوار بوظيفة جَدليّة تُتوضّح في خبر الخليفة المنصور مع الرّجل الحكيم: «فقال له المنصور: قد رُفع إلينا خبر الودائع والأموال الّتي عندك لبني أمية فأخرج إلينا منها، فقال: يا أمير المؤمنين أوارث أنت لبني أمية؟ قال: لا، قال: فوصيّ لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عما في يدي من ذلك؟ فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها وأنا وكيل المسلمين في حقهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا فيه المسلمين فأجعله في بيت مالهم، فقال: يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البينة العادلة على أن ما في يدي لبني أمية مما خانوا وظلموا فيه دون غيره، فقد كان لبني أمية أموال غير أموال المسلمين، فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال: صَدّق يا ربيع ما يجب على الشيخ شيء»[2]، فالحوار الدّائر بين المنصور والشيخ انتهى باقتناع الخليفة بالحجة القوية الّتي جادله بها الرجل الحكيم.

وقد يميل الحوار إلى الوصفيّة مثلما يتجسّد في خبر: «نظر زياد إلى رجل من ضبّة يأكل أكلاً قبيحًا، وهو أقبح الناس وجهًا، فقال له: يا أخا ضبة كم عيالك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهن وهن آكل مني، فقال زياد: لله دره ما ألطف سؤاله، افرضوا لكلّ واحدة منهن مائة وخادمًا...»[3]، فزياد أدرك ممّا وصف به رجل من ضبّة بناته مسألته، ويتضح الوصف في الحوار أيضًا في خبر: «قال: إن كان ولا بد فاجلس، فجلستُ وقال: أنا عيينة بن الحباب

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٦.

(٢) نفسه، ص١٨٤.

(٣) نفسه، ص٢٣٥.

بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوتُ إلى مسجد الأحزاب فبقيتُ ساجدًا راكعًا ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا بنسوة يتهادين كأنهنّ القطا، وفي وسطهنّ جارية بديعة الجمال في نشبها، كاملة الملاحة في عصرها، نورها يسطع وطيبها يتضوّع...»[١]. فقد نهض الحوار بوظيفة الوصف، وكان الواصف (عيينة)، والموصوف المرأة الّتي كَلف بها.

وقد ينهض الحوار بوظيفة الإيهام بالواقع، وكثيرًا ما يلجأ إليها راوي التَّنوخي، من ذلك هذا الخبر: «إنّ الإسكندر لما انتهى إلى الصين ونازل ملكها [...]، فلما خلا المكان قال له الرسول: إنّي ملك الصين لا رسوله، وقد حضرت أسألك عما تريده مني، فإنْ كان مما يمكن الانقياد إليه، ولو على أصعب الوجوه أجبت إليه، وغنيت أنا وإياك الحرب، فقال له الإسكندر: وما أمنك مني؟ قال: علمي بأنّك رجل عاقل، وأنّه ليس بيننا عداوة متقدمة، ولا مطالبة بذحْل، وإنّك تعلم أنّ أهل الصّين إن قتلتني لا يسلمون ملكهم إليك، ولا يمنعهم عدمهم إيّاي أن ينصبوا نفسهم ملكًا غيري، ثم تنسب أنت إلى عين الجهل وضدّ الحزم، فأطرق الإسكندر مفكّرًا [...] ثّم قال له: الّذي أريده منك ارتفاع ملكك لثلاث سنين عاجلاً، ونصف ارتفاعه كلّ سنة...»[٢]، يُتبيّن أنّ راوي التَّنوخي هو من صنع هذا الحوار الخارجي بين الإسكندر وملك الصين، ليُوهم المتّلقي بموضوعيته في النقل مُثبتًا حقيقة جريان الأحداث على أرض الواقع، فلا الإسكندر ولا ملك الصّين بقادرين على التحدّث بالعربية.

يُستصفى ممّا سبق أنّ الحوار في نصّ (المستجاد) وإنّ نَهض بوظيفته الأساسية وهي الإخبار فقد ارتقى إلى وظائف أخرى جعلت تأثيره في المتلقّي أوضح، وإن استُنفد القول في الحوار الخارجي فكيف يتجسّد الحوار النّفسّي في المدوّنة؟

٢- الحوار النّفسيّ:

ويُصطلح على هذا النّوع من الحوار[٣] بكونه: «عبارة دالّة في الحقيقة على عمليّتيْن متكاملتيْن، تتمثّل أولاها فيما ينشأ في النّفس من أحاسيسَ وخواطرَ، وتتمثّل ثانيتهما في

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٢) نفسه، ص٤٦.

(٣) وتُسمّيه (دُورِيت كُون) (Dorrit Cohn) القصّ النفسي، وهو تقنية من تقنيات الشفافية الباطنية، تنضاف إلى تقنيتي الحوار الباطنيّ المباشر، والحوار الباطنيّ غير المباشر. انظر تفصيله لدى: الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٦٨.

تأدية هذا الباطن ضمن مادّة قصصيّة ذات أسلوب مخصوص»[١]، ويردُ هذا الخطاب بأساليبَ مختلفة، منها مناجاة النّفس والتخيّل وما شابهها[٢]، ولا يُلمح في المدوّنة كبيرُ حضور لهذا الصّنف من القصّ النّفسي الذي يُمثّل تعبير الرّاوي عن عالم الشخصيّة الباطني من خلال معالجة له خارجيّة في حالة عدم وعي الشخصيّة بباطنها، أو في حالة عجزها عن التّعبير عنه لغةً، إلاّ أنّ الحوارَ الباطني تقنيةٌ من تقنيّات الشفافيّة الباطنية الأكثر أهميّة[٣]، تتجلّى في عدد غير قليل من الأخبار، وإن ظلّ حضوره بسيطًا إنْ قُورن في المدوّنة بالحوار الخارجيّ، وقد يُلاحظ في خبر: «فما هو إلاّ أن غاب عنّي حتّى عرفتُ موضع خطئي وغلطي، وقلتُ ماذا: صنعتُ بنفسي وجنيتُ عليها؟ أسلمتُ الجارية إلى رجل لا أعرفه ولا أدري ممّن هو ولا ما اسمه ونسبه، ولا من أيّ البلاد هو؟ وهبْني عرفته من أين أصل إليه، وجلست مُفكّرًا حتّى أصبحت...»[٤]، فقد خاطب يونس الكاتب ذاته بضمير المتكلّم إثر بيعه جاريته لرجل دون أن يقبض ثمنها، وقد استخدم الرّاوي في الحوار الباطني التحليل، حيث أنحى يونس باللاّئمة على نفسه في تسليم الجارية مُتوسّلاً بالاستفهام، وقد شغل ذاك الأمر تفكيره حتّى الصّباح، وهو حوار باطني مباشر اضطلعت بترديده الشخصيّة بينها وبين ذاتها، ومثّلت وفرة التّساؤلات في هذا الخبر خصيصة مُهمّة من خصائص الحوار الباطني.

كما وقدّ ورد الحوار باطنيًّا مباشرًا على لسان إبراهيم بن المهدي في خبر (التطفل): «ثم جيء بالمائدة، ونقلت إليها الألوان، فكان طعمها يا أمير المؤمنين أطيب وألذ من ريحها، فقلتُ في نفسي: هذه الألوان قد منَّ الله عليّ ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمعصم...»[٥]، ويتحدّث رجل شيباني في خبر آخر قائلاً: «فقلت في نفسي: ما لهذا الخباء بد من أهل، وما لهذه القبة بد من رب، وما لهذا العطن بد من إبل»[٦]، فعبارة (قلتُ في نفسي) في الخبريْنِ قد أحالت المروّي له إلى الحوار الباطني مباشرة، وهو حوار باطني

(١) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٦٨.

(٢) فاتح عبد السلام، الحوار القصصي وتقنياته، مرجع سابق، ص١٠٨.

(٣) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٧٦.

(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤٤.

(٥) نفسه، ص٥٣.

(٦) نفسه، ٦٦.

تقليدي[١]، قام على نقل الأفكار والخواطر والأحاسيس بلا أدنى تدخل ولا تنظيم، ولا رقابة، وبمنتهى التلقائية والعفوية، وأمّا الحوار الباطني غير المباشر والذي يضطلع بنقله الرّاوي وإن كان مداره باطن الشخصيّة فلا يتوفر له حضور في أخبار المدونة.

- **أساليب نقل كلام الشّخصيّات:**

يندرج في مبحث الحوار البحث عن الكيفية الّتي بلّغَ بها الرّاوي كلام الشّخصيّات، فما الأساليب الّتي توسّل بها راوي التّنوخي إلى ذلك؟

تنمّ أساليب نقل الكلام عن قدرة الرّاوي على استحضار أقوال الشّخصيّات وكيفية احترامه المسافةَ في نقله ذاك، وتتعلق المسافة «بدرجة حضور الرّاوي فيما يروي، أي بدرجة وساطته بين العالم الممثّل والمتلقّي»[٢]، ويعني ذلك أن حضور الرّاوي متى كان كثيفًا في تحوير كلام الشّخصيّات فإنّ المسافة بين المرويّ والمرويّ له تطول، ومتى تقلص هذا الحضور أو انعدم تمامًا فإنّ المسافة تقصر أو تنتفي كليًّا.

إنّ الرّاوي ليس المتكلّم الوحيد في الخطاب، بل تشاركه الشّخصيّات الكلامَ، وهو الّذي يُورد كلامها – خارجيًّا كان أو داخليًّا – ويختار الأسلوب الّذي به يَنقل هذا الكلام؛ لذلك يحتل خطابه الناقل المستوى الأوّل من القصّ، في حين يقع خطاب الشّخصيّات المنقول في المستوى الثّاني[٣]، وبناءً على ذلك، فما أنواع الخطابات الّتي توسّل بها الرّاوي في (المستجاد) لنقل خطاب الشّخصيّات؟

تضمّنت أخبار (المستجاد) أصنافًا ثلاثة من الخطابات، وهي:

- **الخطاب المباشر:**

قوام هذا الخطاب قولٌ يَصدر عن إحدى الشّخصيّات فيُنقل بحرفيّته، وتكمن مهمّة الرّاوي في إيراد كلام الشخصيّة الّذي ينتهي إلى المرويّ له بطريقة مباشرة، أي دون وساطة

---

(١) «إنّ الفرق بين الحوار الباطنيّ القديم، والحوار الباطنيّ في معناه الحديث، لا يتمثل في أنّ الأوّل يُعبر عن أفكار أقل خفاء وحميمة من الثاني، وإنّما في أنه ينسق المادة التي يقدّمها ويثبت تسلسلها المنطقي، أيّ أنه يُفسرها وكثيرا ما يقتصر على تلخيصها». انظر: الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٨٩.

(٢) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٩٠.

(٣) انظر تفصيله: محمد نجيب العمامي، الرّاوي في السرد العربي المعاصر، ط١، ص٣٩ (دار محمد علي الحامي، صفاقس، ٢٠٠١م).

هذا الرّاوي[١]، ويمثّل هذا النّوع أكثر الخطابات موضوعيّة في نقل كلام الشخصيّة سواءٌ كان خارجيًّا منطوقًا أو داخليًّا لا منطوقًا.

وتَدلّ على هذا الضّرب من الخطاب في المدوّنة شواهد كثيرة منها خبر: «فقال له يومًا: حدثني عما مرّ بكَ في اختفائك، قال: كنتُ يا أمير المؤمنين مختفيًا بالحيرة في مترل شارف على الصحراء، فبينما أنا على ظهر بيت إذ نظرتُ إلى أعلام سود قد خرجتْ من الكوفة تريد الحيرة، فوقع في روعي أنّها تريدني، فخرجتُ من الدّار متنكّرًا حتّى أتيتُ الكوفة لا أعرف بها أحدًا أختفي عنده، فبقيتُ متلدّدًا، فإذا أنا بباب كبير، ورحبة واسعة فدخلتُ فيها، وإذا رجل وسيم حسن الهيئة على فرس قد دخل الرّحبة ومعه جماعة من غلمانه وأتباعه فقال لي: من أنتَ؟ وما حاجتك؟ قلت: أنا رجل مُستخفٍ يخاف على دمه استجار بمترلك... »[٢]، وما يُلاحظ أنّ الرّاوي في نقله حوار الشخصيّات كان محايدًا، استعان بعلامات الخطاب الإسنادي[٣]، كفعل القول (قال) والنّقطتين العموديّتين (:)، وضمير المتكلم الّذي يحيل على القائل في الخبر مثل (نظرتُ، خرجتُ، أتيتُ)، وما يدّل على الحاليّة من قبيل (مختفيًا، متلدّدًا)، وتعزيز الكلام المنقول بظروف زمانيّة: (فقال له يومًا)، وظروف مكانيّة: (بالحيرة في مترل شارف على الصحراء).

على أنّ المسافة في الخطاب المباشر بين المرويّ والمرويّ له ترد متقلّصة إلى الأقصى، وهذا من أهمّ ميزاته، فلا يتدخّل الرّاوي في كلام الشّخصيّة مطلقًا، مثل ما قد يُعاين في الخبر التّالي: «تمارى ثلاثة في الأجواد، فقال رجل: أسخى النّاس في عصرنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وقال آخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي، وقال آخر: بل هو قيس بن سعد بن عبادة، فتلاحوا وأفرطوا في المراء، وكثر ضجيجهم وهم بفناء الكعبة، فقال لهم رجل: قد أكثرتم الملاحاة فلا عليكم أن يمضي كلّ واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتّى ننظر

(١) انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٨٦.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٣٢.

(٣) ويُعرّف بكونه «العبارات والجمل التي ترد في سرد مكتوب، وترافق الخطاب المباشر، وتسنده إلى هذه الشّخصيّة أو تلك».

انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٧٤.

ما يعطيه فنحكم على العيان...»[١]، يُتبيّن أنّ الحوار المباشر المتبادل بين الشّخصيّات قد أماط اللّثام عن ميولها أثناء الحديث، وقد كان هذا الخطاب مدار العقدة والحلّ النّهائي للنّزاع الحاصل بين الرّجال الثّلاثة، فإنّ الرّاوي قد يكون توسّل به إلى إقناع المتلقّي بموضوعيته في نقله.

واللاّفت للاهتمام أنّ في (المستجاد) أخبارًا جمّة، تنأى عن الحصر، توفّرت على الخطاب غير المباشر، فما تعريف الخطاب غير المباشر؟ وكيف كان حضوره في المدوّنة؟ وما وظائفه الّتي نهض بها؟

- **الخطاب غير المباشر:**

وهو «ضرب من الأقوال المنقولة عن الشّخصيّة، ولكنّها لا تخرج عن نطاق لغة الرّاوي الخاصّة به»[٢]، أي أنّه قد حَوّر كلام الشّخصيّات بنسب متفاوتة أثناء نقله، مُدرجًا إيّاه في سرده، وصائغًا بعض عباراته وفق أسلوبه هو، وبذلك أخذت المسافة تتّسع قياسًا إلى الخطاب المباشر.

ولعّل هذا ما يُعاين في خبر (إسحاق بن إبراهيم مع السجّين): «فانبرى يخبره فذَكرَ أنّه هو وعدّة معه يرتكبون كلّ عظيمة، ويستحلون كلّ محرّم، وكان اجتماعهم بمدينة أبي جعفر يعتكفون على كلّ بليّة...»[٣]، ويَتّضح أنّ الحوار كان بعيدًا عن مصدره، وأنّ هناك قولاً قد قيل يُستشفّ من عبارة دالّة وهي (ذَكَر)، مُسندة ضمنيًّا إلى الفتى السّجين، وقد جنح الرّاوي إلى تحوير كلامه تحويرًا طفيفًا، ونقله بلغته السّردية الخاصّة، مُبقيًا على بعض المشيرات المكانيّة من قبيل: (كان اجتماعهم بمدينة أبي جعفر)، وقد أدّى هذا النّوع من الخطاب وظيفة سرديّة تمثّلت في دفع الأحداث نحو التقدّم[٤]، وفي الضغط عليها إلى الأقصى، فترد مختصرة مكتترة.

وأمّا النّوع الثّالث من الخطابات فهو المرويّ. فكيف وُظّف في المدوّنة؟

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٢٥.

(٢) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٨٠.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠٥.

(٤) انظر: فاتح عبد السلام، الحوار القصصي وتقنياته، مرجع سابق، ص٩١.

• **الخطاب المرويّ:**

ويتميّز الخطاب المرويّ باتّساع المسافة بين الكلام مثلما قالته الشّخصيّة وما نقله الرّاوي عنها نقلاً ينحرف به تمامًا عن أصله، حتّى لتحسبنّ أن القول قد تحوّل إلى مجرّد حدث يُسرَد[١]، على أنّ في هذا الجنس من الخطابات تبلغ المسافة أقصى اتساع لها، وكان حضور هذا الخطاب في أخبار (المستجاد) لافتًا للاهتمام، بيد أنّ نماذجه لا تحصى ولا تعدّ، حسبي منها: «سأل رجل الحسن بن علي بن أبي طالب حاجة...»[٢]، و: «ثم بعث إلى الرجل فسأله عن خبره فأعلمه إياه وصدقه عنه...»[٣]، و: «جرى بين الحسين بن علي وأخيه محمد بن الحنفية كلام فانصرفا متغاضبين...»[٤]، فسؤال الرّجل حاجته من الحسن بن علي، وكذلك استفساره عن الخبر وإجابة الآخر إيّاه، وما دار بين الحسين وأخيه محمد من كلام، وقد تغاضبا على إثره، لا تعدو كلّها أن تكون حوارات لكنّها حوّرت لتصبح مجرّد أحداث تروى على لسان الرّاوي، حتّى إنّه لمن المستعصي التّعرف إلى أقوال الشخصيّات[٥] في تلكم الأخبار، فقد نقل الرّاوي في سياق سرديّ ما كانت أفضت به الشّخصيّات[٦].

يُستصفى ممّا سبق أنّ الخطاب المرويّ في المدوّنة أكثر أنواع الخطابات الّتي نُقل بها كلام الشّخصيّات، وقد يُعزى ذلك إلى طبيعة الأخبار أساسًا في كونها مجرّدَ سرد شفويّ، ويلي الخطاب المرويّ في الحضور الخطاب المباشر وقد تخيّره الرّاوي بغية تأكيد حياده وموضوعيته أثناء النقل، لا سيّما أنّ أخبار (المستجاد) في الغالب الأعمّ ذات محتوى تاريخي، لكنّها مع ذلك لا تعدم حضور الخطاب غير المباشر، وإنْ بدرجة أقلّ.

وإذا كان هذا شأن الحوار في المدوّنة، فكيف ورد الوصف فيها؟

الوصف:

الوصف نشاط فنّيّ يمثّل باللغة الأشياءَ والأشخاصَ والأمكنةَ وغيرها، وسواءٌ تمّ الوصف

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص١٨٩.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠.

(٣) نفسه، ص١٩.

(٤) نفسه، ص١٨.

(٥) محمد نجيب العمامي، الرّاوي في السّرد العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٦٢.

(٦) محمد الخبو، الخطاب القصصي في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص٣٥١.

عن طريق الرّؤية أو الفعل أو القول فإنّه يؤدّي في النصّ السرديّ وظائف متعدّدة[١]، منها التعليميّة، والتمثيليّة، والتعبيريّة، والسرديّة، والإبداعيّة وغيرها[٢]، على أنّ بعض الباحثين اختصرها في وظيفتين أساسيّتين هما الوظيفة الجماليّة والوظيفة التوضيحيّة أو التفسيرية[٣]. وبناء عليه، فإنّ الرّاوي بهذا الأسلوب يستعيض عن وظيفة السّرد لتُناط به وظيفةُ الواصف، فيغدو بمقتضى ذلك غير حريص على تذكّر الأحداث وتنسيق حبكتها بقدر ما هو شديد العناية بانتقاء العبارات المناسبة لتمثيل الموصوفات[٤].

ولعّل الوصف عن طريق الرّؤية وإن كان قليل الحضور هو المهيمن على أخبار المدوّنة، ومصداق ذلك خبر (إبراهيم بن المهدي)، وهو بصدد قصّه على المأمون، إذ يقول: «خرجتُ يومًا متنكّرًا أنظر إلى سكك بغداد، فاستهواني التفرج وانتهى بي المشي إلى جناح شممت فيه روائح طعام وأبازير قد فاحت، فتاقت نفسي إليها، ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المضيّ، فرفعت بصري فإذا شباك، وإذا خلله؟ كفّ ومعصم ما رأيت أحسن منه فوقفت حائرًا ونسيت روائح الطعام [...]، فنظرت فإذا خياط قريب من ذلك الموضع [...]، فلما رآني صاحب المنزل معهما لم يشكّ أني منهما بسبيل، فرحّب بي وأجلسني في أفضل المواضع...»[٥]، يتبيّن من هذا الخبر أنّ الواصف استخدم فيه حاستين اثنتين وهما البصر في قوله: (فرفعتُ بصري)، و(نظرتُ)، والشمّ في قوله: (شممتُ)، وقد أسهمت تانك الحاسّتان في تصوير اللّقطة للمرويّ له عن طريق الوصف.

بل يكون الوصف مشتملاً بالفعل على أشكال رئيسة كوصف شيء معيّن أثناء صنعه، أو لوحة حيّة كما هو الحال في وصف المعارك والرّحلات[٦]، ويُرى له في المدوّنة تجسيدٌ في كلام القاضي أحمد بن أبي دؤاد في وصفه الطّعامَ المعدَّ في حضرة المعتصم: «أمّا هذه فقد أحسن صاحبها إذ أظهر فلفلها وقلّل كمّونها، وأمّا هذه فقد أجاد صاحبها إذ كثّر خلّها

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤٧٢.

(٢) سمر روحي الفيصل، الرواية العربية البناء والرؤيا، ص٤٧٢ (اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م).

(٣) حميد لحميداني، بنية النص السردي، مرجع سابق، ص٧٩.

(٤) انظر: الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٦٥.

(٥) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

(٦) مها الطويرش، تقنيات الوصف في الشعر الأندلسي عصري ملوك الطوائف والمرابطين، ص٩٢ (رسالة ماجستير، إشراف: علي عبيد، جامعة القصيم، ٢٠١٧م).

وقلّل فلفلها ليُشتهى حمضُها، وأمّا هذه فقد أحكمها طبّاخها بتقليل مائها وكثرة رُبّها...»[١]. وما يُستشفّ أنّ أوصاف الأطعمة الّتي عدّدها القاضي وقد أنهضها على اقتدار الطّهاة، صيّرت وظيفة الوصف فيها تعبيريّة مَحْض، فقد عَبّر الواصف من خلال تلكم الأوصاف عن مدى إعجابه بها.

وأمّا الوصف بالقول فيَقتضي معرفة الواصف بموضوع وصفه[٢]، وغالبًا ما يتجلّى من خلال أمثلة تتخلّل حوار الشخصيات على غرار قول يونس الكاتب: «فبينما أنا في تلك الحال إذ فتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان، وعليه ثيابُ وشْيٍ مذهّبة...»[٣]، أو ما ورد في قصّة الفرزدق مع هشام بن عبد الملك: «فأقبل زين العابدين بن علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو أحسن النّاس وجهًا، وأنقاهم ثوبًا، وأطيبهم رائحةً...»[٤]، يُستفاد من هذين الخبرين أنّ الوصف نهض بوظيفة يمكن أن نطلق عليها وظيفة الإشادة.

وغاية القول في أساليب القصّ أنّها تناوبت على الحضور في أخبار (المستجاد)، ولئن هيمن السّرد فيها فإنّ ذلك قد لا يجافي واقع القصص العربي القديم؛ ذلك أنّ راوي التّنوخي ما انفكّ يروي الأخبار، ملقيًا بالعهدة على ما عداه، موهمًا المرويّ له أنّ دوره لا يزيد عن كونه ناقلاً ما قيل فحسب، غير أنّ الوصف يظلّ ذا حضور خجول في المدوّنة، بل قد لا يُلمح إلاّ في شواهد قليلة نادرة، بينما الحوار -وإن نافس السّرد في الحضور- قد خيّر الانسحاب، مُفسحًا للرّاوي مجال الإمساك بزمام القصّ، حيث تتحاور الشخصيّات أنّى شاء، وتلوذ بالصمت متى أراد، فهو -لعمري- المتحكّمُ فيها، مُحقّقًا بذلك مقاصد صانعه التّنوخي.

(١) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٦.

(٢) محمد نجيب العمامي، الوصف في النص السردي بين النّظرية والإجراء، ط١، ص٧٤ (دار محمّد علي للنشر، تونس، ٢٠١٠م).

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤٤.

(٤) نفسه، ص٨٦.

٢- وجهة النَّظر:

تُعدُّ وجهة النّظر مبحثًا أساسيًّا مُندرجًا في الصّيغة والصّوت، ويُستعمل مرادف الرّؤية[١] والتبئير[٢]- إذ إنّ التّنظير السّرديّ الخاصّ بهذا المفهوم لم يستقرَّ بعدُ- إلاّ أنه يتميز منهما بشيوعه وبعده الدّلالي، فهو يشمل إدراك الذّات المبئِّرة وأفكارها ومواقفها الفكريّة في الوقت نفسه[٣].

وقد آثرتُ استعمال مصطلح وجهة النَّظر؛ لكونه تقنية سرديّة ذات بُعد دلالي بفضل كونها ممحّضة للآراء والمواقف والقيم[٤]. ولئن اشتهر بين سائر المنظّرين أنّ قوام وجهة النَّظر أطرافٌ ثلاثة بها يُرصد الكون الحكائيّ بمختلف أشيائه وشخصيّاته، وهي: الرّاوي، والشخصيّة، والمشاهد المتخيل[٥]، فإنّ (ألان راباتال) (Alain Rabatel) اقتصر على اثنيْن منها، وهما الرّاوي والشخصيّة، وخَلصت بحوثه إلى تحديد معايير لغويّة تُساعد على التعرّف إلى مواطن وجهة النَّظر، أو ما يسمّيه بالإدراك الممثّل، ونسبة هذه الوجهة إلى الذّات المبئِّرة أو ما يطلق عليه المصدر التلفّظي[٦].

---

(١) وهو أقدم المصطلحات المستخدمة تاريخيًّا، وقد برزت مع الفرنسي (جون بويون) سنة ١٩٤٦م، في مؤلَّفه (الزّمن والرواية)، إذ تحدث عن الرواية والرؤية والترابط الوثيق بينهما، كما استنتج ثلاثة أنماط للرّؤية: الرّؤية من الخلف أو الرّاوي العليم، الرّؤية المصاحبة أو الرّؤية مع، والرّؤية من الخارج. انظر تفصيله لدى: جيرار جينيت وآخرون، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبئير، ت: ناجي مصطفى، ط١، ص٥٩ (منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، المغرب، ١٩٨٩م).

(٢) ويعني انتقاء معلومة سرديّة، أداته بؤرة واقعة في مكان مّا، هي ضرب من المصفاة لا تسمح إلاّ بمرور المعلومة التي يخوّلها المقام، وهذا المصطلح من وضع (جونات)، وقد استوحاه من عبارة بؤرة السّرد التي تعزى إلى (بروكس) و(وارّان) حتى يخلّص المفهوم من البعد البصريّ الذي توحي به المصطلحات الأخرى، مثل الرّؤية، ووجهة النظر. للاستزادة انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٦٥.

(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤٦٩.

(٤) محمد نجيب العمامي وآخرون، وجهة النظر في الرواية: بحوث محكّمة، ط١، ص٥ (دار محمد علي الحامي ونادي القصيم الأدبي في بريدة، ٢٠١٥م).

(٥) محمد الخبو، هل التبئير من الخارج قائم على الحياد؟ ضمن: وجهة النظر في الرواية، إشراف: محمد نجيب العمامي، مرجع سابق، ص١٥١م.

(٦) وقد طوّر (راباتال) دراسة وجهة النّظر بشكل كبير من منطلق لسانيّ، فحددّ المظاهر التي يعتبرها هي موضوع الإدراك، ثمّ التفتَ إلى الوجود الصّحيح أو الضّمنيّ لفعل الإدراك، ثمّ إلى المبئّر، وقد توسّع في دراسة الخصائص البنائيّة لوجهيْ نظر الشخصيّة والرّاوي، بوصفهما ذاتيْ التبئير الوحيدتيْن في النصّ السرديّ. انظر تفصيله لدى:

وبناءً على ما سبق، فسأسعى إلى مقاربة وجهة النّظر في أخبار (المستجاد)، مستعينة بما توصّل إليه (ألان راباتال)، متسائلة عند الخوض في نصوص المدوّنة: من هما ذاتا الإدراك؟ وكيف تم توظّيفهما؟ ومن المضطلع بالرّؤية في الخطاب؟ أهو الرّاوي أم الشخصيّة؟

وجهة نظر الشّخصيّة:

من البديهي أنّ وجهة النّظر مشروطة أساسًا بتحديد المبأّر (موضوع التبئير) ومظاهره، بيد أنّ القول بنسبة وجهة النظر هذه إلى ذات مبئّرة مخصوصة فذلك لا يصحّ إلاّ متى توفّرت قرائن دالّة[١]، وقد اعتمد (راباتال) على هذه القرائن قصد تعيين وجهة نظر الرّاوي أو الشخصيّة، فلجأ إلى الوسم الصّريح أو الوسم الضّمنيّ لتحديد المبئّر [٢]، فكيف تجلّت هذه القرائن داخل خطاب المدوّنة؟

الوسم الصّريح المباشر:

وسَمَ راوي أخبار (المستجاد) وجهةَ النظّر الممثَّلة وسمًا صريحًا مباشرًا، بإيراده معلنات البداية أيْ الأفعال الدالّة على الإدراك أو ما يظهر من أفكار مسندة إلى (الاسم العلم، أو الاسم المعرّف، أو الضّمير)، وما يجدر التنويه به أنّ الإدراك عند (راباتال) لا يقتصر على الحقل البصري وحسب، وإنّما يشمل سائر الحواسّ من سمع وشمّ، وذوق ولمس[٣].

ويُعدّ الاسم العلم الواصل الأوّل لوجهة نظر الشخصيّة، إذ يُسند هذه الوجهة مباشرة إلى شخصيّة بعينها، وكلّما قُدّمَ على الإدراكات كان إسناد وجهة النّظر إلى الشخصيّة أيسر[٤]، مثلما يُتبيّن في الشّاهد التّالي: «قال إبراهيم بن المهدي: خفتُ على نفسي وتحيّرتُ في أمري، فخرجتُ من داري في وقت الظّهر وكان يومًا صائفًا، فرأيتُ في صدر الزّقاق عبدًا أسود قائمًا على باب داره، فتقدّمتُ إليه وقلتُ له: عندك موقع أُقيم فيه ساعة من

محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤٦٩.

(١) صابرة الذويبي، وجهة النظر في رواية (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ، ضمن وجهة النظر في الرواية، إشراف: محمد نجيب العمامي، مرجع سابق، ص١٩٣.

(٢) يُتعرف عليه داخل النص السّردي بالإجابة عن السؤال: من يرى؟ أو من يُدرِك؟، ويكون عادة أحد اثنين: الرّاوي أو شخصيّة من الشخصيّات المشاركة. انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٩٦.

(٣) الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، مرجع سابق، ص١٥٥.

(٤) محمد نجيب العمامي، مفهوم وجهة النظر في السرديات التلفّظية: تصور ألان راباتال أنموذجًا، ضمن وجهة النظر في الرواية، مرجع سابق، ص٣٧.

نهار؟»[١]، يُستخلص من هذا الشاهد أنّ الاسم العلم قد ورد في بداية الخبر وقبل فعل الإدراك، ممّا جعل نسبة وجهة النّظر إلى الشخصيّة تكون أيسرَ، وقد أسند الرّاوي فعل الإدراك (رأى) إلى ذات (إبراهيم بن المهدي) عن طريق ضمير المتكلم، ويماثله ما جاء في خبر: «يُروى أن طلحة الطلحات خرج في يوم صائف فأصابه الحر فعطش، فنظر إلى دار لها فناء حسن، وظلّ ممدودٍ...»[٢]، يُتبيّن أنّ فعل الإدراك (نظر) قد سبقه ذكر الاسم العلم (طلحة الطلحات) وهو، بالتّالي، ذات الإدراك.

ويَتّضح الوسم المباشر أيضًا في خبر: «رأى إسحاق بن إبراهيم الظّاهري في منامه الرّسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول له: أطلق القاتل؟ فاستيقظ مرتاعًا»[٣]، ففعلُ الإدراكِ (رأى) أُسند إلى فاعل (إسحاق بن إبراهيم)، ومَثّلتْ بداية الحلم الحدّ الابتدائي لوجهة النّظر، بينما مثّلت عبارة (استيقظ مُرتاعًا) نهاية الوجهة.

ويُؤدّي الاسم المعرّف دور الاسم العلم كقرينة تسند وجهة النظر إلى الشخصية، وآية ذلك هذا المثال: «قال الرجل: رأيتك واقفًا بزمزم، وغلامك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظللتك بطرف إزاري حتّى شربت»[٤]، وقد يَضطلع الضّمير العائد على الاسم بإسناد وجهة النظّر إلى الشخصيّة أيضًا، ومثاله الشّاهد الموالي: «فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم!»[٥]، إذ الضمير عائد على (الحسن بن علي) المذكور في مُفتتح الخبر، وموالي (الحسن) هم الّذين اطلعوا على خزانة ماله فوجدوها فارغة بعد أن وهب للرّجل السّائل جميع ما فيها.

إلاّ أنّ غياب الوسم المباشر لا يعني مطلقًا انتفاء نسبة وجهة النظّر إلى الشخصيّة، وإذا كان الوسم المباشر قد تجلّى بوضوح من خلال بعض الشواهد آنفة الذّكر فكيف لاح الوسم الضّمني في أخبار (المستجاد)؟

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.

(٢) نفسه، ص١٧٨.

(٣) نفسه، ص١٠٥.

(٤) نفسه، ص١٧٠.

(٥) نفسه، ص١٨.

الوسم الضّمني:

يقوم الوسم الضّمني بإقصاء أفعال الإدراك، بيد أنّه يهب الشَّخصية مترلة تسمح لها بأن تكون مدركة، فتُسند إليها وجهة النظّر، ولعلّ هذا ما يُلمس في شاهد كهذا: «فلما صرتُ في الطريق داخلني من الخوف شيء شديد، وجئت لأعبر الجسر، فإذا الماء بموضع قد رش حتى صار زلقًا [...]، فاجتهدتُ في المشي حتّى قطعتُ الجسر، ودخلتُ زقاقًا فوجدتُ باب دار وامرأة في دهليزه، فقلتُ: يا سيّدة النّساء احقني دمي، فإني رجل خائف، فقالتْ: على الرحب والسعة، وأطلعتني إلى غرفة وفرشتْ لي وقدمتْ لي الطعام...»[١]، وإنّما يُلاحظ في هذا الخبر أنّ الرّاوي أعرضَ عن استخدام الوسم المباشر، إلاّ أنّه هيّأ مناسبة تمثّلت في حادثة الهرب التي صيّرت شخصيّة (إبراهيم بن المهدي) قادرة على الإدراك، فإبراهيم هو من أدرك خوفه الشديد شأن إدراكه أنّ الجسر زلقٌ، وأنّ المرأة أقبلت على مساعدته.

وإذ تكتسي أفعال الإدراك أهميّة قصوى في تحديد المبئّر فكيف استخدمت قنواته في المدوّنة؟

يَلوح البصر أكثر الحواسّ تواترًا، حسبي الشّواهدُ التّاليةُ: «فنظر إلى دار لها فناء حسن وظل ممدود»[٢]، «فرأيتُ في صدر الزقاق عبدًا أسودَ»[٣]، «رأى إسحاق بن إبراهيم الظاهري في منامه»[٤]، فكلّ مبأّر في الشواهد السّابقة قد أدركته الشخصيّة عن طريق حاسّة البصر، إلاّ أنّ المدوّنة لا تَعدم استخدام حواسَّ أخرى من قبيل حاسّة الشمّ، من ذلك قول الرّاوي: «وانتهى بي المشي إلى جناح شممت فيه روائح طعام وأبازير قد فاحت»[٥]، فاستخدامه حاسّة التذوّق في قوله: «وأكل من جميعها كما ذكر، ثم قال: أمّا هذه فقد أحسن صاحبها؛ إذ أظهر فلفلها وقلّل كمونها، وأمّا هذه فقد أجاد صاحبها؛ إذ كثّر خلّها وقلّل فلفلها ليشتهى حمضها، وأمّا هذه فقد أحكمها طبّاخها بتقليل مائها وكثرة

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.

(٢) نفسه، ص١٧٨.

(٣) نفسه، ص٧٤.

(٤) نفسه، ص١٠٥.

(٥) نفسه، ص٥٣.

رُبّها...»[١]، وعلاوة على ذلك فقد اعتمدَ على حاسّة السّمع في قوله: «كان إذا انصرف وقد سَكر يغنّي وهو في غرفته، فيسمعه أبو حنيفة فيعجبه»[٢]، وأمّا حاسّة اللّمس فتُستشفّ من قوله: «فبات يلمسها فيجد خشونة الدّنانير ولا يصدّق»[٣].

يُستصفى مِمّا أنِف ذكرُه أنّ الرّاوي أكثر من استخدام الوسم الصّريح المباشر في أخبار (المستجاد)؛ بغية تسهيل الأمر على المرويّ له في معرفته المبئّر، ولا سيّما في ما يخصّ الاسم العلم والضمير، وتوسّله بقرائن دالّة على نسبة وجهة النظّر إلى الشخصيّة، وقد كان استخدامه إيّاها أكثر من استخدامه الاسم المعرّف، ولعّل ذلك عائد إلى ما به يتميّز موضوع المدوّنة من تحفيز الكرماء على البذل، بل إلى ما هو ممحّض لفعلات الأجواد عموما، فقد يقتضي ذلك المنافحة بهؤلاء الكرماء وإذاعة أسمائهم حتى تكتسب صيتًا ذا بال بل جعلها نماذج يُحتذى بها، ولعّل قلّة توسل الّراوي بالوسم الضّمني إنّما تُعزى إلى ذلك أيضًا، فقد يكون راوي التّنوخي اضطرّ إلى نسبة وجهة النظّر إلى شخصيّات مخصوصة صراحةً؛ قصد تخليد ذكرها في تصنيفه، ولكن كيف وُسمت وجهة نظر الرّاوي؟

وجهة نظر الرّاوي:

أُسندت وجهة النظّر إلى الرّاوي في كثير من أخبار المدوّنة، وقد تنوعت قرائنها. فما تلك القرائن؟

قرائن وجهة نظر الرّاوي:

للقرائن أهمية كبرى في تحديد الذّات المبئّرة (المصدر التّلفظيّ) تحديدًا دقيقًا، على أنّ إسناد وجهة النظّر إلى الرّاوي يستلزم توفر شرطين اِثنيْن، أوّلهما آليات تمثيل إدراكات أو أفكار ممثّلة، وثانيهما غياب شخصيّة بارزة[٤]، وثَمّ طريقتان لوصل وجهة نظر الرّاوي هما الوسم الصّريح غير المباشر والوسم الضّمنيّ[٥]، فكيف يجري ذلك في خطاب المدوّنة؟

---

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٦.

(٢) نفسه، ص٢١٨.

(٣) نفسه، ص٢٦.

(٤) محمد نجيب العمامي، مفهوم وجهة النظر في السّرديات التّلفظيّة: تصوّر (راباتال) أنموذجًا، ضمن وجهة النظر في الرواية، مرجع سابق، ص٤٣.

(٥) نفسه، ص٤٤.

الوسم الصّريح غير المباشر:

يكون الإعلان عن وجهة النظّر في الوسم الصّريح غير المباشر بطريقة صريحة غير مباشرة؛ نظرًا إلى عدم نسبة هذه الوجهة مباشرة إلى الرّاوي، وصريحة نظرًا إلى عدم وجود شخصية بارزة يمكن نسبة الإدراك إليها، ويكون القائم بعملية الإدراك الرّاوي وإن كان متخفّيًا لا يبرز إلاّ من خلال ملفوظه(١)، وحسبي شاهدٌ على ذلك الخبر التّالي: «أمر المأمون أن يُحمَل إليه من أهل البصرة عشرة كانوا قد رموا بالزندقة عنده فحملوا، فبينما أحد الطفيليين يرتاد إذ رآهم مجتمعين يمضي بهم إلى السّاحل للمسير إلى بغداد، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلاّ لوليمة، فانسلّ معهم ودخل في جملتهم، ومضى بهم الموكلون إلى البحر، فأطلعوهم في زورق قد أُعد لهم، فقال الطفيلي: لاشكّ في أنّها نزهة فصعد معهم في الزورق، فلم يكن بأسرع من أن قُيّد القوم وقُيّد الطفيلي معهم، فعلم أنه قد وقع في ورطة، ورام الخلاص فلم يقدر، ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد، وحملوا حتّى أدخلوا على المأمون، فأمر بضرب أعناقهم، فاستدعوا بأسماهم رجلاً رجلاً، فكلّ من دعا سأله وأمر بضرب عنقه، حتّى لم يبق إلاّ الطفيليّ وفرغت العدة، فقال المأمون للموكلين بهم: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنّا وجدناه مع القوم فجئنا به»(٢)، وما قد يلاحظ في هذا المثال أنّ فعل الإدراك ظلّ طي الكتمان، ولكن ذلك لم يمنع وجود رؤية بصريّة تتّضح من خلال السّياق مكّنت الرّاوي من ملاحظة خفيّة لما يُروى، وظلّت القرائن تُحيل وجهة النظّر في المثال السابق على الرّاوي، وهو راوٍ غير مشارك في الحكاية، محيط بحكاية الطفيلي قبل أن يعرفها المأمون والموكلون بالزنادقة -الشخصيّات المشاركة في الحكاية- إذ يبدو من خلال قسمهم (والله ما ندري) حين سألهم عنه، وقد علم الرّاوي حكاية المأمون وطلبه الزنادقة قبل أن يعرفها الطفيلي، وهو راوٍ عليمٌ فقد أدرك ما دار بين الطفيلي ونفسه.

---

(١) صابرة الذويبي، وجهة النظر في رواية (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ، ضمن وجهة النظر في الروايـــة، مرجـــع سابق، ص٢٠٢.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

ولعلّ في الاستعانة بجدول ما قد يوضّح أكثر الوسم الصّريح غير المباشر الوارد في بعض الأخبار:

الخبر	الصفحة	موضع الإدراك
عكرمة الفياض وخزيمة بن بشر	٢٦	وصف الشخصيات
معاوية بن أبي سفيان والفتى الأعرابي	٢٤٠	تركيز الراوي على الشخصيّات الرئيسة
تمارى ثلاثة في الأجواد	١٢٥	تتبع الشخصيّات في أماكن
عبد الله بن المعتمر القيسي	١٢٦	ملازمة الشخصيّة سنوات
الأشتر ونمير الهلالي	٤٩	تبئير الأماكن المختلفة
يونس الكاتب والوليد بن يزيد	١٤٤	تبئير نفسية الشخصيّة
إسحاق الموصلي	٨٩	وصف الشخصيّة الرئيسة

تُستشفّ قرائن حضور الرّاوي في أخبار (المستجاد) اعتمادًا على الوسم الصّريح غير المباشر، علاوة على أنّ الإشارة إلى الشخصيّات بأسمائها تُعدّ أيضًا من القرائن الدالّة على حضور الرّاوي حضورًا صريحًا غير مباشر، على أنّه في حال غياب تلكم القرائن فإنّ السّياق خير مساعد على الإحالة إلى الرّاوي، فينجرّ عن ذلك تدبّر الوسم الضّمنيّ، فكيف تراءى في المدوّنة؟

الوسم الضّمنيّ:

إنّ تواريَ الذّات المدركة في النصّ مع غياب فعل الإدراك يجعلان الوسم ضمنيًّا، وهو ما يحتّم بالضّرورة إسناد وجهة النّظر عن طريق الاستدلالات[١]، ورغم غموض الوسم الضّمنيّ عند التوسّل به في إسناد وجهة النظر إلى الرّاوي فإنّ بعض السّياقات قد تخوّل تحديد إدراكه إيّاها، ففي بعض المواضع يكون حضور الشخصيّات بارزًا، إلاّ أنّ إسناد وجهة النّظر إليها يكون متعذّرًا، ممّا يحتّم إيكالها إلى الرّاوي، ولعلّ الشّاهد التّالي ينهض بتجلية الأمر: «كان إسحاق الموصلي يُكثر من مديح البرامكة ويُطنب في الثّناء عليهم، فحضر ذات يوم مجلس الفضل بن الرّبيع فأجرى ذكر البرامكة، وكان يغيظ الفضل ويبلغ منه كلّ مبلغ، فقال بعض من حضر لإسحاق: أما تنفكّ من ذكر هؤلاء القوم وتقلع عن ذلك، ولك في الثّناء

(١) محمد نجيب العمامي، الذّاتية في الخطاب السّردي، ط١، ص٤٧، (دار محمد علي الحامي، تونس، ٢٠١١م).

على الوزير ما تبلغ به عنده أعلى الرّتب، وتحلّ من نفسه عليه أرفع محلّ، فأمسك الفضل عن الكلام إعجابًا بما خوطب به إسحاق»[١]، وما يستخلص من هذا المثال أنّ الرّاوي هو من يُدرك أنّ إسحاق يكثر من مديح البرامكة، وهو في مجلس الوزير صاحب الرّؤية من الخلف، عليم علمه أنّ مديح إسحاق كان يغيظ الفضل، وأنّ الفضل أُعجب بما خُوطب به إسحاق رغم أنه (أمسك عن الكلام)، ورغم حضور شخصيّات فإنّ نسبة الإدراك إليها لتبدو مُستعصية.

وقد كان في الوسم الضّمني من الصعوبة بمكان إسناد وجهة النظر إلى الرّاوي بطريقة واضحة، غير أنّه وبتجويد النّظر في بعض أخبار المدوّنة يتبيّنُ أنّ التّبئير صفريّ[٢]، اضطلع به راوٍ عليم في أكثر الأخبار، وقد تتبّعتُ الوسم الضمنيّ في بعض الشّواهد، ولعلّ الجدول التّالي يزيد الأمر تجلية:

الخبر	الصفحة	موقع الإدراك
القاضي سليمان	٢٧	الدخول إلى بواطن الشّخصيّة
الأشتر ونمير الهلالي	٤٩	معرفة الرّاوي بالشخصيات في أماكن مختلفة
إبراهيم بن المهدي	٥٣	علم الرّاوي بما تفكر به الشخصيّة
يونس الكاتب	١٤٤	فهم الرّاوي لنفسية الشخصيّة

يُتبيّن من الجدول الآنف أنّ إشارة المحتوى الدلالي إلى فعل الإدراك هي أهمّ أساليب الوصل الخاصّة بالوسم الضّمنيّ في المدوّنة، إذ تبدو الشخصيّة غير مُدركة؛ ممّا يجعل الرّؤية رؤية الرّاوي، زد على ذلك أنّ الوسم الضمني إنّما يؤكّد قرب الرّاوي من الأحداث، بل تغلغله في دواخل الشخصيّة قصد وصف أفكارها وحيرتها، ونقل أقوالها ومناجاتها ذاتها، وأنّ نسبة وجهة النظّر إلى الرّاوي قد تكون ناجمة عن تبئيره مكانين مختلفين استنادًا إلى

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٨٩.

(٢) ويسمي (جونات) هذا النمط بالقصص غير المبأّرة، ويتجلى في إيراد الرّاوي معلومات تتجاوز طاقة إدراك شخصيّة مشاركة أو شاهد عيان مجهول، فيورد مثلاً معلومة تخص دواخل شخصية تجهلها الشخصية نفسها، أو ينقل أحداثًا متزامنة تدور في أمكنة متباعدة. انظر تفصيله لدى: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٦٥.

شخصيّات مختلفة في الوقت ذاته.

على أنّ طريقة الوسم الصريح غير المباشر إنّما هي أكثر أنواع القرائن استخدامًا في أخبار (المستجاد)؛ ذلك أنّ التعرّف إلى الذّات المبئِّرة من خلالها قد يكون أيسر بكثير من طريقة الوسم الضمني.

بعد إنعام النّظر في ذاتَي الإدراك وفي مسألة توظيفهما في أخبار المدوّنة يتبادر إلى الذّهن سؤال مُرصد للمضطلع للرّؤية داخل خطاب (المستجاد) أهو الرّاوي أم الشخصيّة؟

إنّ وطأة السنّة القصصيّة القديمة الّتي تعتمد في أكثر الأحايين على راوٍ غائب يعرف ظواهر الأحداث وخفاياها، هي الّتي جعلت القسم الأكبر من الأخبار في التّراث العربي محكومًا برؤية من الخلف[١]، فعند تقصّي أخبار (المستجاد) يُتبيّن أنّ القسم الأكبر من خطابها ورد بضمير غائب، وهذا ما يُحيل عليه الجدول الآتي:

نوع الضمير	عدد الأخبار
ضمير الغائب	١٢١
ضمير المتكلم	٣١

يتّضح في الأخبار الواردة بضمير الغائب[٢] أنّ راويَها راوٍ خارجي غير مشارك، لكنّ التّنوخي صَيّره كليّ الحضور وكليّ العلم، مثلما يتجلّى ذلك في الخبر التّالي: «جلس النعمان ابن المنذر يوم نعيمة في حلّة مذهّبة مطوّقة بالدرّ لم يرَ أحسن منها، وأذن للعرب فدخلوا عليه، وكان فيهم أوس بن حارثة بن لام الطائي، فجعلت وجوه العرب تعجب من حسن الحلّة ويتحدّث بعضها إلى بعض وأوس بن حارثة مطرق، فقال النعمان: ما أرى فيمن دخل إليّ إلاّ من استحسن هذه الحلّة على نقصان قدرها عندي غيرك يا أوس، فقال: أيّها الملك أسعدك إلهك، وساعدك زمانك، إنّما تُستحسن هذه إذا كانت في يد تاجرها، وأمّا إذا كانت على الملك وتهلّل وجهه المشرق فيها فالأبصار مقصورة عليه دونها، فاسترجح عقله

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٤٠٠.

(٢) وهو نمط شائع في السرد العربي القديم، مع إيغال الراوي العربي في التخفّي، متوسّلاً في الغالب الأعمّ بالسّند أحد مكوّني الخبر الأدبي الأساسيين. انظر: محمد نجيب العمامي، الرّاوي في السرد العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٠٨.

واستحسن ما أتى به، فعرض للنّعمان خالد بن بشر بالتماسها، فقال النّعمان: أنا أفكّر ليلتي وأدفعها غدًا إلى من أرى أنه سيّد العرب، فانصرفوا وكلٌّ طامع مهموم»[١]، وما يُلاحظ أنّ المبئّر في هذا الخبر راوٍ خارجيّ غفل، قصّ الخبر وفق إدراكه الّذي لا يمكن أن يُسند إلاّ إليه، من حيث معرفته بحديث العرب بعضها إلى بعض، ومن حيث استحسان النّعمان قول أوس بن حارثة، ومن حيث انصراف الناس وكلّ (طامع مهموم)، بينما كان الرّاوي في الأخبار الواردة بصيغة المتكلّم راويًا مشاركًا، وغالبًا ما كان الشخصيّة الرئيسة في الخبر؛ لذلك كانت الرؤية رؤية مصاحبة، أي أنّ عِلمَ الرّاوي فيها مساوٍ عِلمَ الشخصيّة. ومثاله الموضِّح هو الخبر التّالي: «فسألتُه عن قصّته فعرفتُ أنّه من بني تميم هوي ابنة عم له وهويته، فسعي بينهما حتّى نُزعتْ منه فوسوسَا جميعًا. وها هي في الدّير الآخر، فمضيتُ حتّى دخلتُ عليها فلمّا رأتني تنفّستْ الصّعداء [...]، فسألتني من أين أقبلت؟ فقلتُ: من الدّير، وعرّفتها حال الفتى فبكت...»[٢]، فما يُتبيّن في الخبر أنّ معرفة الرّاوي لا تتعدّى معرفة الشخصيّة، بل هما متساويان.

يتّضح ممّا سبق أنّ (الرؤية من الخلف) هي النّمط السائد في خطاب المدوّنة؛ ذلك أنّ الرّاوي راوٍ خارجي كليّ المعرفة، لا يُفرّط في وجهة النظر للشخصيّات إلاّ قليلاً نادرًا، ولعلّ ذلك ما جعله مُستأثرًا بالسّرد، مقلّصًا من أسلوب الحوار حرصًا على منحه الشخصيّات المشاركة وجهة نظر، لكنّها في الغالب الأعمّ تكون محدودة، وإذا كان ذلك كذلك، فما الوظائف الّتي نهضت بها وجهة النظّر في خطاب المدوّنة؟

وظائف وجهة النظّر:

تتنوّع وظائف وجهة النّظر في المدوّنة، إلاّ أنّ أبرزها السّرديّة، والآيديولوجيّة، والإيهام بالواقع، وفيما يلي تفصيلها:

أ) الوظيفة السردية:

تُعدّ الوظيفة السرديّة أهمّ وظائف وجهة النظّر، سواءٌ أُسندت إلى الرّاوي أو إلى الشخصيّة، ذلك أنّ وجهة النظّر إنّما تساعد المبئّر في تحديد مواطن الإدراك، وتنظيم أداء

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٦٤.

(٢) نفسه، ص٢٣٠.

الشّخصيات، ورسم أبعاد الأمكنة، والكشف عن أمور تحرص الشخصيّات المبأّرة على عدم الإفصاح عنها، وقد يُساهم كلّ ذلك في بناء الكون الحكائيّ وتعميق منظور الرّاوي بفضل تحكّمه في العمليّة السرديّة[١].

كما تتمثّل وظيفة وجهة النظّر السّردية في الإنباء، أيّ التنبّؤ بما سيجري من أحداث ومثاله: «فطلبني السّلطان طلبًا شديدًا حتّى ضاقت عليّ الرّصافة وغيرها من المدن»[٢]، أو قوله «فلما أصبح وطلعت الشّمس أقبل جيش الصّين حتّى طبّق الأرض»[٣].

ب) الوظيفة الآيديولوجية:

إنّ وجهة النّظر تقنية سرديّة ذات بعد دلاليّ، أيْ أنّها لا تحمل فقط إدراك الذّات المبئّرة بل تحتضن أيضًا توجّهاتها الفكريّة في الآن نفسه، فأخبار (المستجاد) إنّما تنمّ عن مواقفَ آيديولوجيّة يمكن أن تُستخلص من معلومات نقلها الرّاوي إلى المرويّ له، وتخصّ الشخصيّات من حيث مظهرُها وتصرّفاتُها الخارجيّة، ومن حيث الحديثُ عن دواخلها أيضًا.

ج) وظيفة الإيهام بالواقع:

وقد ظهرت هذه الوظيفة في المدوّنة من خلال تعاقب وجهيْ نظر الرّاوي والشخصيّة، فتتحقّق نتيجة ذلك مصداقيّة وقوعها، وقد تحاكي وجهة النّظر الواقع متى كانت واصفةً الزّمانَ والمكانَ والشخصيّاتِ، وعند إيجاد مناسبات ملائمة للإدراك، وتخصيص أسماء للشخصيات بها تُعرف، وهو ما تحقّق في أكثر من شاهد في المدوّنة.

---

(١) محمد نجيب العمامي، تحليل الخطاب السردي وجهة النَّظر والبعد الحجاجي، ط١، ص٧٣ (كلية الآداب والفنون الإنسانيات بمنوبة ومسكلياني للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٠٩م).

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١٦.

(٣) نفسه، ص٤٦.

المبحث الثالث: الصّوت السّرديّ:

الصَّوت إحدى مقولات الخِطاب القصصيّ الثلاث علاوة على الزّمن والصيّغة، و«المعنيّ بالصَّوت منتِجُ الخِطاب القصصيّ ومتلقّيه»[١]، فمنتجُ الخطاب هو الرَّاوي، ومتلقيه هو المرويّ له، ويُطلق عليهما مصطلح أعوان السرد، إذ يُجيب الصَّوت عن سؤالين هما: من يتكلم؟ ومن يتلقّى؟ وهذا يُلخّص ما تطلق عليه البنيويّة الإنشائيّة الصَّوت.

ولكنْ ما المقصود أولاً بزمن السّرد[٢] في أخبار (المستجاد)؟

١- زمن السّرد:

ويُقصد بزمن السّرد المدّة الّتي يستغرقها سرد الرّاوي الحكاية مرتبطة بالحيّز الذي دارت فيه أحداثها[٣]، وقد اتّفق السرديّون في تحديد الوضع الزّمني للفعل السّرديّ في علاقته بالحكاية على أنماطٍ أربعة هي: السّرد اللاّحق، والسّرد السَّابق، والسّرد المتزامن، والسّرد المدْرَج[٤].

فما الأنماط الّتي تحضر في خطاب المدوّنة؟

من خلال المعاينة الدّقيقة لأخبار المدوّنة يتّضح أنّ السّرد اللاّحق هو أكثر أنماط السّرد ازدهارًا، فالرّاوي في الغالب الأعمّ قصّ الأحداث على المرويّ له بعد انصرامها، مُستخدمًا صيغة الفعل الماضي بشكل متواتر، والإشارات الزمنيّة الّتي تحدّد زمن الفعل الماضي، ولعلّ الجدول التّالي يتكفّل بعرض بعض الشّواهد المستقاة من المدوّنة وهي تكاد تنأى عن الحصر:

---

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٧٦.

(٢) ويشكّل مع المستوى السرديّ والشخصيّة المقولات الثلاث التي يُدرس من خلالها المقام المكتنف للخطاب السرديّ؛ على أنّ لتحديد المقام السرديّ الزمنيّ أهميّة لا يكتسيها تحديده المكانيّ. ذلك أنّ (جونات) يرى أنّه بالإمكان أن تُقصّ قصّةٌ دون تحديد المكان الّذي تُروى فيه، غير أنّه من المستحيل ألاّ يتحددّ موقعها الزمنيّ من الفعل السرديّ ما دامت تُروى بالضّرورة في الزّمن الحاضر أو المستقبل. انظر تفصيله لدى: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٣٢.

(٣) نفسه، ص٤٠٦.

(٤) فالسرد اللاّحق هو الّذي يتلو زمن الحكاية، وأمّا السّرد السّابق فهو الّذي يكون زمنه سابقًا لزمن الحكاية، ويكون السّرد فيه متزامنًا إذا رُويت الأحداث فور وقوعها على غرار النقل المباشر لمباراة في كرة القدم، ويكون مُدرجًا عندما يتداخل زمن السرد وزمن الحكاية. انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص ص ٢٣٢-٢٣٣.

الخبر	الصفحة	سرد لاحق (صيغة الماضي)
محرز بن ناجية الرصافي	٢١٦	في بداية الخبر عبارة (كنتُ)، مع التوسّل دائمًا بالفعل الماضي: (فطلبني السلطان طلبًا شديدًا (...)، فخرجتُ حتى انتهيتُ إلى بني شيبان).
المأمون في دير المجانين	٢٣٠	استخدام الفعل الماضي: (حججتُ فلما صرتُ بصور أحببتُ أن أدخل دير المجانين)، في نهاية الخبر: (وكان في جملة حاشيته حتى مات).
زين العابدين بن علي والفرزدق	٨٦	في بداية الخبر: (حج هشام... فجهد أن يستلم الحجر فلم يقدر من ازدحام الناس).
عبد الله بن عامر بن كريز	١٧	خرج – قام – مشى معه
حريق مسجد في مصر	٤٣	احترق- ظن – كتب - نثر
دار خالد	١٧	اشترى – كان- سمع

فصيغ الماضي إنّما تدُّل في تلكم الأخبار على أنّ الحكاية وقعتْ، ثم سردها الرّاوي إثر ذلك، وقد يكون السّبب في ذلك عائدًا إلى أنّ السنّة في القصص القديم هي قيامه على التّواتر، فسلاسل الإسناد في الأخبار لا تنفكّ تجلّي حقيقةً مُؤدّاها أنّ الرّاوي إنّما هو مرويّ له سابق ينقل خطابًا قد بلغه، ولعلّ في استخدام هذا النمط الإيهامَ بالواقعيّة، فالسّرد لاحقًا يُصيّر الأخبار وكأنّها وقائع تاريخيّة لا مجال للشكّ في حقيقة حدوثها[1]، وقد يكون هذا ما قصده التّنوخي من وضعه كتابًا، فيه يَمتدحُ فعلات الأجواد، داعيًا النّاس إلى التأسّي بهم.

يُستخلص مِمّا سبق بيانه أنّ جلّ أخبار (المستجاد) قد تكون اتّبعت طريقة السّرد اللاّحق، بل إنّ عددًا منها غير قليل قد يكون استخدم عبارات ما فتئت تتعاود من قبيل

(١) انظر مزيد تفصيل لدى: علي عبيد، المرويّ له في ضوء الموروث العربي، ضمن مقاربات سردية، ط١، ص١٧٤-١٧٨ (نادي الباحة الأدبي- الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١٤).

(يُروى)، و(يُحكى)، هذا علاوة على خصوصيّة قيمة الكرم الرّاسخة في الموروث الثقافي الاجتماعي العربيّ؛ مما يجعل من تلكم الأخبار أخبارًا ذات منزلة أدبيّة وتاريخيّة قيّمة.

وإذا كان هذا حال زمن السّرد، فما المقصود بأعوان السّرد؟ وما الوظائف الّتي حظيت بها في أخبار المدوّنة؟

٢- أعوان السّرد:

يُحيل مصطلح (عون) على القائم بالفعل في النصّ السرديّ، أيْ الذات الناهضة بهذا الفعل، سواءٌ أكان هذا الفعل سردًا أم تبئيرًا أم عملاً[١]، ويُطلق علماء السّرد هذا المصطلح على: الرّاوي، والمرويّ له، عند الخوض في المسائل المتعلّقة بهما في مبحث الصَّوت.

والسُّؤال الذي يتبادر إلى الذّهن في هذا المقتضى: ما المقصود أوّلاً بالرّاوي؟

الرّاوي:

يتحددّ مفهوم الرّاوي بكونه: «العون السّرديّ الذي يعهد إليه المؤلِّف الواقعيّ سردَ الحكاية أساسًا، ويُهتدى إليه بالإجابة عن السُّؤال (من يتكلَّم؟)»[٢]، على أنّ الرّاوي «ليس معلَّقًا في الهواء، وإنّما هو شكل وراءه مداليل، وهو بصفته شكلاً مرتبطٌ بكاتب يحمل همومًا معيّنة، ويعيش في بيئة ثقافيّة وحضاريّة يتأثّر بها، ويحاول من خلال فعل الكتابة أن يكون له فيها أثر»[٣]، وبالتّالي، فدوره لا يقتصر على النّهوض بعمليّة السّرد فحسب، بل يسهم في وجهة النظر أيضًا. وهو لذلك، يُعدّ صوتًا يتوارى خلفه كاتبٌ، إلاّ أنّ علاقته بما يروي هي التي تميّزه ممّا عداه، فيظلّ الممسكَ بالقصّ من سائر جوانبه، وهو من يترجم لغة الكاتب[٤].

وبناءً عليه، فإنّي سأدرس مستوى الرّاوي في نماذج من أخبار المدوّنة.

مستوى الرّاوي:

يمكن تحديد مستوى الرّاوي بحسب ما ضبطه (جونات) بأحد العاملين، إمّا بمستوى القصّ الذي يشغله، أو من خلال علاقته بأحداث الحكاية الّتي يروي[٥].

---

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٩٩.

(٢) نفسه، ص١٩٥.

(٣) محمد نجيب العمامي، الرّاوي في السرد العربي المعاصر ، مرجع سابق، ص١٥.

(٤) يمنى العيد، تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي، مرجع سابق، ص١٧٦ .

(٥) محمد نجيب العمامي، الرّاوي في السرد العربي المعاصر، مرجع سابق، ص٣٦.

وإنّ راوي أخبار (المستجاد) إنّما يحتلّ على امتداد النصّ السرديّ المستوى الأوّل من القصّ، فالرّاوي الغُفْل قُدِّر وجودُه من خلال مُعلنات القول: (قال، ذكر، روى، حدث)، وهو يتموضع في مستوى خارج الحكاية؛ ممّا يجعله ذلك على مسافة ممّا يروي، فهو راوٍ عليمٌ قادرٌ على النّفاذ إلى دواخل الشخصيّات، وحتّى إنْ وُجد في أخبار اضطلعت بأحداثها شخصيّاتٌ فهو من يُشركها في نصّه ويُنسّق حركاتها، ويكون مجرّد ناقل للأحداث، من قبيلِ هذا الخبرُ: «أمر المأمون أن يُحمَل إليه من أهل البصرة عشرة كانوا قد رُموْا بالزندقة عنده فحملوا، فبينما أحد الطفيليين يرتاد إذ رآهم مجتمعين يمضي بهم إلى الساحل للمسير إلى بغداد، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فانسلّ معهم ودخل في جملتهم، ومضى بهم الموكلون إلى البحر، فأطلعوهم في زورق قد أُعد لهم، فقال الطفيليّ: لاشكّ في أنها نزهة فصعد معهم في الزّورق، فلم يكن بأسرع من أن قُيّد القومُ وقُيّد الطفيليُّ معهم، فعلم أنّه قد وقع في ورطة، ورام الخلاص فلم يقدر، ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد، وحملوا حتّى أدخلوا على المأمون، فأمر بضرب أعناقهم، فاستدعوا بأسمائهم رجلاً رجلاً، فكلّ من دعا سأله وأمر بضرب عنقه، حتّى لم يبق إلاّ الطفيليّ وفرغت العدّة، فقال المأمون للموكلين بهم: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري يا أمير المؤمنين غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به»[1]. على أنّ هذا المستوى يضمُّ كذلك رواة آخرين لا يشاركون في الحكاية أيضًا، ولكنّهم يُكوّنون سلسلة الإسناد السرديّ، فوظيفتهم إنْ هي إلاّ توثيقُ الخبر.

وما قد يلاحظ أنّ المؤلّف المجرّد المحسن التّنوخي في أخباره غالبًا ما يستخرج تلكم الأخبار ممّا سمعه أو شاهده أو نُقل إليه، أو أخذه من مؤلّفات سابقيه، فصوتُه هو الذي لا يفتأ يعلو، فهو المهيمن على السّرد، فضلاً عن كونه لا يقصّ الخبر مباشرة، بل يلجأ إلى أداة فنيّة غالبًا ما تؤدّي دوره في السّرد، وهذه الأداة إن هي إلاّ راوٍ خارجيٌّ مضمر، حريصٌ عادة على إسناد الحديث إليه، فتبدأ أخباره في الغالب الأعمّ بالإسناد (حدثني، أخبرني، سمعت من...)، ثم يباشر ذاك الرّاوي وظيفته الفنيّة في سرده الخبرَ، فيختفي التّنوخي المؤلِّفُ المجرّد خلف راوٍ من داخل النصّ المرويّ وهو لا يعدو أن يكون لسان حاله، فيحوّله الخطاب

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

السرديّ عادةً إلى راوٍ من داخل الحكاية[١]، سواءٌ كان مشاركًا في أحداثها أو غير مشارك، فيحتلّ هؤلاء الرّواة مستوياتٍ أخرى، وهو النّموذج الأكثر شيوعًا في أخبار (المستجاد).

فتعدّد الرّواة يظلّ استراتيجية على جانب من الذّكاء وافر، لاذ بها القدامى بغية إدراك موضوعيّة المرويّ وصدقيّته من جهة، ورغبة في التملّص من عواقبه، بإلقاء العهدة على من رواه، وهذا يقود ضرورة إلى تدبّر علاقة الرّاوي بما يسرد، حتّى إنّ دراسة مسألة الضّمير إنّما تنهض أساسًا على تجويد النّظر في هذه العلاقة؛ لذلك، ميّز (جيرار جونات) بين راوٍ غائب عن أحداث الحكاية المرويّة، وبين راوٍ مشارك في أحداث الحكاية الّتي يقصّ[٢]، وفيما يلي توضيح ذلك استنادًا إلى نماذج من المدوّنة:

١) الرّاوي المشارك في الحكاية:

وهو يحتلّ مستوًى سرديًّا داخل الحكاية بوصفه شخصيّة مشاركة، تكون وظيفته مشاركة الشخصيَّات في النّهوض ببعض الأحداث، بل يكون حاضرًا فيها، ولعّل هذا الخبر يتضمّن هذا النّوع من الرواة: «فقلتُ: يا هذا قد وجب عليّ حقُّك، ومن حقّك عليّ أن أدلّك على خصمك، وأقرب عليك الخطوة، قال: وما ذاك؟ قلت: أنا إبراهيم بن سليمان قاتل أبيك، فخذ بثأرك، فقال: إني أحسبك رجلاً قد أمضك الاختفاء، فأحببت الموت، قلتُ: بل الحقّ ما قلت لك، أنا قتلته يوم كذا وكذا، بسبب كذا وكذا، فلمّا عرف صدقي اربدَّ وجهه واحمرّت عيناه وأطرق مليًّا»[٣].

فالرَّاوي الدَّاخليّ المشارك هو (إبراهيم بن سليمان)، ويُستدلّ على حضوره بضمير المتكلّم بعبارات من قبيل: (قلتُ، أنا إبراهيم، قتلتُه)، كذلك يُستشفّ من قوله: (أنا قتلته يوم كذا وكذا، بسبب كذا وكذا)؛ إذ إنّ وصفَه يومَ القتل وسببه يُعربان بشكل قاطع عن مشاركته في الوقائع[٤].

---

(١) عبد الله محمد عيسى الغزالي، المكونات السرديّة للخبر الفكاهي، دراسة في أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي، ص٩١ (مجلة الأدب العربي، العدد (٩٠)، السنة الثالثة والعشرون، حزيران، ٢٠٠٣م).

(٢) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٨٠.

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٣٢.

(٤) ويرى (جونات) أنّ حضور الرّاوي المشارك قد يراوح بين النّهوض بدور البطولة في الحكاية والاقتصار على دور الشاهد عليها. انظر: محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٢٨٠.

ومن الأخبار الّتي يمكن إدراجُها في هذا النّمط أيضًا خبرُ: «فسألتُه عن قصّته فعرفتُ أنّه من بني تميم، هوي ابنة عمّ له وهويتْه، فسعى بينهما حتى نُزعتْ منه فوسوسَا جميعًا، وها هي في الدّير الآخر، فمضيتُ حتّى دخلتُ عليها فلمّا رأتني تنفّستْ الصّعداء [...] فسألتني من أين أقبلت؟ فقلتُ: من الدير، وعرفتها حال الفتى فبكت...»[1].

فالرّاوي الدّاخليّ هو (المأمون)، فضمير المتكلم الوارد في قوله: (سألتُه، عرفتُ، مضيتُ، سألتني) قد يفيد مشاركته في الأحداث.

وعلاوة على حضور الرّاوي المشارك في الحكاية يتوفّر في أخبار (المستجاد) راوٍ آخرُ.

٢) الرّاوي غير المشارك في الحكاية:

إنّ هذا الضّرب من الرّواة لا يكون سوى شاهد عيان على ما يحدث في الحكاية، فهو مضمَّن فيها، غير أنّه لا يُسهم في دفع عجلة السّرد ولا في تطوير الحبكة، ولعلّ مثالَه هذا الخبرُ: «كان إسحاق الموصلي يُكثر من مديح البرامكة، ويطنب في الثّناء عليهم، فحضر ذات يوم مجلس الفضل بن الرّبيع فأجرى ذكر البرامكة، وكان يغيظ الفضل ويبلغ منه كلّ مبلغ، فقال بعض من حضر لإسحاق: أما تنفك من ذكر هؤلاء القوم وتقلع عن ذلك، ولك في الثناء على الوزير ما تبلغ به عنده أعلى الرّتب، وتحلّ من نفسه عليه أرفع محلّ، فأمسك الفضل عن الكلام إعجابًا بما خوطب به إسحاق»[2]؛ إذ يحتلّ الرّاوي في الخبر السّابق المستوى الأوّل من القصّ، لأنّه روى أحداثًا لم يشارك فيها.

ولـــمّا كان السّرد بضمير الغائب النَّمطَ الشَّائعَ في القصّ العربيّ القديم، فإنّ التّنوخي نسج على منواله، غير أنّ قصّه لم يسلم من انزياح طفيف عن السنّة المتّبعة، فوردت بعض أخباره بضمير المتكلم، وهذا ما يجلّيه الجدول الإحصائي التالي:

نوع الضمير	جاءت بضمير الغائب	جاءت بضمير المتكلم
عدد الأخبار	١٢١	٣١

يُستخلص مِمّا أنِف بيانُه أنّ المستويات السرديّة في أخبار (المستجاد) صنفان، فإذا كان المستوى الأوّل من القصّ متضمّنًا راويًا من خارج الحكاية غالبًا ما يسرد حكاية لا يُشارك

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٣٠.

(٢) نفسه، ص٨٩.

فيها، فإنّ المستوى الثّاني إنّما يضمّ راويًا مشاركًا في الأحداث، مُسهمًا في الآن نفسه في الرّواية.

ولكنْ ما الوظائف الّتي اضطلع بها راوي التّنوخي في المدوّنة؟

وظائف الرّاوي:

للرّاوي وظائف في أخبار (المستجاد) ينهض بها، ومن أهمّها:

١) الوظيفة السّردية:

والوظيفة السّردية هي وظيفة إجباريّة، ذلك أنّه بدون راوٍ إنّما يضمحلّ السّرد تماما، وسواءٌ كان من داخل الحكاية أم من خارجها، فهو يظلّ حائك العمل السرديّ، بل علّة وجوده.

٢) وظيفة الإدارة:

فالرّاوي الأوليّ في (المستجاد) ينتقي بدءًا ومن الذاكرة السّرديّة تحديدا ما هو مكتوب، وما هو شفويّ، ذاك الذي يعدّه مسايرا غَرضَ مصنّفه، وناهضًا بمقاصده وأهدافه[1]. فالاختيار إنّما يُعتبر أبرز مهمّات الرّاوي، علاوة على التنسيق وتنظيم المرويّ عمومًا، فهو من يوزّع الأدوار على كافّة الرّواة الفرعيين، وهو من يدير الحوار بين الشخصيّات.

٣) وظيفة الإيهام بالواقع:

فالرّاوي عند قصّ الحكاية يذكر كلّ ما يتعلّق بالموضوع سواءٌ كان أمكنةً أو أزمنةً أو وصفًا، وهذا كلّه إنّما يُضفي على الخبر إهاب الواقعيّة، ويصيّره كأنّه يحدث الآن وهنا.

٤) الوظيفة التبئيريّة:

فالرّاوي بما يمتلكه من معارفَ تفوق طاقة إدراك الشّخصيّات القصصيّة يظلّ المصدر الذي تُستقى منه المعلومات والأحداث في الحكاية.

وما قد يُلاحظ أيضًا أنّ وظائف الرّاوي قد تعدّدت في أخبار (المستجاد) وتنوّعت، فإذا كان الرّاوي هو اللّسان الذي يعلو صوته فإنّ المرويّ له لا يعدو أن يكون الأذن الملتقطة ذلك الصّوتَ، فما علاماته؟ وما أصنافه؟ وما وظائفه؟

---

(١) البشير الوسلاتي، القصّ في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، حوليات الجامعة التونسية، ع٤١، ص٩٦ (الناشر جامعة منوبة، تونس، ١٩٩٧م).

المرويّ له:

يُحدّ المرويّ له[١] بـــ«العون السّرديّ الذي يُوجّه إليه الرَّاوي مرويّه، إنْ بصفة مُعلنة أو مضمرة»[٢]، وله ما للرَّاوي من الأهمية في النّص القصصيّ.

وفي أخبار (المستجاد) يُلاحظ أنّ الرّاوي هو على الدّوام مرويّ له، قدْ تلقّى الحكاية من رواة سابقين له في الإسناد، فقبل أنْ يكون الرّاوي راويًا أوّليًّا هو مرويّ له من خارج الحكاية يناظر الرّاوي في المستوى السرديّ الذي يحتلّه، فما علامات المرويّ له في المدوّنة؟

علامات المرويّ له:

للمرويّ له علاماتٌ تجلّيه، على أنّ التطرّق إلى دراسة علاماته تلك في أخبار (المستجاد) إنّما سيجري وفق صنفين من العلامات: النّاطقة منها والصّامتة[٣].

العلامات النّاطقة:

تشمل العلامات الناطقة علاماتٍ مباشِرةً من قبيل صيغ المخاطب والصّيغ الدالّة على مرويّ له خصوصي وغيرها، وأمّا النّوع الآخر فهو علاماتٌ غير مباشرة، مثل ضميري المتكلم والغائب، والمشيرات، وصيغ النّداء، والاستفهام والتعجّب، والنّفي والإثبات[٤].

ومن العلامات المباشرة إيراد الخبر دون ذكر السّند، وآية ذلك في (المستجاد) الخبرُ التّالي: «أذِن معاوية بن أبي سفيان للنّاس يومًا، فوقف له فتى من الأعراب فحَدَرَ اللّثام وأنشأ يقول...»[٥]، ومنها أيضًا صيغة الأمر المضمنّة في قول القاضي أحمد بن أبي دؤاد: «يا أمير المؤمنين تقدّم إلى الحاجب أيتاخ أن يمضي بالتوقيع إليه، ولا يدعه يعمل شيئًا أو يطلقهم، وأن يحول بينه وبين الوصول إليك، أو يكتب رقعة أو يشتغل بشيء ألبتّة إلاّ بعد إطلاقهم، وإنْ لقيه راكبًا في الطّريق فيتزله عن دابّته ويجلسه، حتّى ينتهي إلى أمرك»[٦]، ومثله ما جاء في خبر (بشر الأشتر) على لسان (جيداء): «اذهب إلى بيتي فادخل في ستري، فإنّ زوجي

(١) ابتدع (جونات) هذا المصطلح سنة (١٩٧٢م)؛ للدّلالة على صورة القارئ المرتسمة في الـنَّص. انظـر: محمـد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(٢) نفسه، ص٣٨٦.

(٣) علي عبيد، المرويّ له في الراوية العربية، ط١، ص٥٩ (دار محمد علي الحامي، تونس، ٢٠٠٣).

(٤) نفسه، ص٦٦.

(٥) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٤٠.

(٦) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤١.

سيأتيك فيطلب منك القدح ليحلب فيه، ثم يأتيك بعد فراغه من الحلب والقدح ملآن فيقول: هاك غبوقك، فلا تأخذه منه حتّى تطيل ذلك عليه، ثم خذه أو دعه حتّى يضعه ويذهب...»[١]، وتتبين علامة مباشرة للمرويّ له في استعمال صيغة النّهي في خبر (سليمان بن وهب)، فقد ورد على لسان (الزيّات) قولُه: «لا تنكر هذا، ولا تنكر ذاك»[٢].

وأمّا العلامات النّاطقة غير المباشرة والّتي تشفّ عن مرويّ له، فبالإمكان الاستدلال ببعضها من قبيل الاستفهام في قول (يزيد بن مزيد): «أتدري ما الذي حداني على أن وجهتُ إليك؟... »[٣]، وهو استفهام موجّه إلى مرويّ له مشارك في الحكاية يخصّ الشاعر (مسلم بن الوليد)، وقد تظهر عدّة علامات للمرويّ له المشارك في الحكاية، كصيغة النّداء في قول (إسحاق): «يا أمير المؤمنين»[٤]؛ ذلك أنّ هذا النّداء مُرصد لمرويّ له مُشارك في الحكاية، وهو (الخليفة الواثق).

ومن العلامات غير المباشرة أيضًا تقديم الشخصيّات والتّعريف بها عند سرد أحداث عنها، وهذا ما قد يستشفّ في الخبر التّالي: «كان من فتيان بني هلال فتى يقال له: بشر بن عبد الله، ويُعرف بالأشتر، وكان من سادات بني هلال، أحسنهم وجهًا، وأسخاهم كفًّا، وكان مُعجبًا بجارية من قومه تدعى جيداء وكانت بارعة الجمال والكمال، ثم اشتهر أمره وأمرها وظهر خبرهما، ووقع الشرّ بين أهلهما، إلى أن كانت بين الفريقين دماء، ثم افترقوا وابتعدت منازلهم...»[٥]، فالرّاوي في هذا المقتضى لا يخصّ بمرويّه هذا ذاته وإنّما يتوجّه به إلى مرويّ له، فلعلّ ذلك قد أسهم في تجلية أمر ما سيجنح إليه (الأشتر) من أفعال، ومن العلامات غير المباشرة أيضًا صيغة النفي في قول (جيداء) في الخبر نفسه: «لا والله ما لي إلى ذلك سبيل...»[٦].

يُستصفى ممّا سبق إيضاحُه أنّ علامات المرويّ له النّاطقة قدْ تنوّعت في أخبار

---

(١) نفسه، ص٤٩.

(٢) نفسه، ص٨٥.

(٣) نفسه، ص١٠٦.

(٤) نفسه، ص٨٩.

(٥) نفسه، ص٤٩.

(٦) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، الصفحة نفسها.

(المستجاد)، فراوحت بين علامات مباشرة وأخرى غير مباشرة، ولكن كيف أحالت العلامات الصّامتة على المرويّ له في أخبار المدوّنة؟

العلامات الصّامتة:

تنكشف العلامات الصّامتة من خلال الثّغرة الزّمنيّة المسجّلة في السّرد، وفي البيانات المطبعيّة المرسومة على الورق، والفراغات الّتي تلي نقط التّتابع تحديدا، وكذلك في الصّمت الذي ينتاب إحدى الشخصيّات لأيّ سبب كان(١).

ومن أمثلتها في (المستجاد): «جرى بين الحسين بن علي وأخيه محمد بن الحنفية كلام فانصرفا متغاضبين...»(٢)، فبداية الخبر إنّما تُحيل على كلام متبادل بين (الحسين) وأخيه كان سببًا في حصول قطيعة بينهما، بيد أنّ الرّاوي لم يبرز محتوى الكلام، ولا متى دار ولا أين دار، وهل كان ثمّ من شاهدٍ على هذا الذي حدث، فقد عمد الرّاوي إلى إضمارات وبؤر صمت زرعها في قصّه خصيصًا قصد إشراك المرويّ له في عمليّة ملئها.

ولعلّ إيراد هذا الخبر من شأنه أن يوضّح الأمر أكثر: «فلمّا ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألـــمّي بنا فإنّا صانعون إليك خيرًا ثم ارتحلوا، وأقبل زوجها وأخبرته بخبر القوم والشاة، فغضب وقال: ويحك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم ثمّ تقولين: نفر من قريش، ثمّ بعد مدّة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة فدخلاها»(٣)، فالرّاوي قد أسقط عمدا من سرده فترة زمنيّة هي ما بين ارتحال القوم عن المرأة ودخولها صحبة بعلها المدينةَ، وإنّ هذا الحذف للمدة الزمنيّة تلك يجعل المتلقّي في شوق لمعرفة ما حدث فيها، مدفوعًا بحبّ الاستطلاع إلى التساؤل عن اسم المرأة، واسم قبيلتها، وعن أسباب ذهابها إلى المدينة.

تلك هي أبرز علامات المرويّ له في أخبار (المستجاد)، وقد توفّرت على علامات ناطقة بشقّيها المباشر وغير المباشر، كما تضمّنت علاماتٍ صامتةً كان لها دورٌ مهمّ في الإحالة على المرويّ له. ولكن ما أصناف هذا المرويّ له في (المستجاد)؟

---

(١) علي عبيد، المرويّ له في الرواية العربية، مرجع سابق، ص٦٦.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٨.

(٣) نفسه، ص١١.

أصناف المرويّ له:

تتعيّن أصناف المرويّ له حسب (جونات) بحسب المستوى الذي يحتلّه، فقد يكون مرويًّا له من خارج الحكاية، وقد يكون من داخلها، وأمّا بالنّسبة إلى علاقته بالحكاية فهو إمّا غيرُ مشارك أو مشاركٌ فيها بوصفه شخصيّة على غرار (شهريار) في (ألف ليلة وليلة)، أو (دبشليم) في (كليلة ودمنة)[١].

وقد ورد في أخبار (المستجاد) مرويّ له من خارج الحكاية مضمر، يُستصفى حضوره من خلال علامات بها يخاطبه الرّاوي، وحسبي مثالٌ على ذلك: «قال الواقدي: كان إبراهيم ابن المهدي قدْ ادّعى الخلافة لنفسه بالريّ، وأقام مالكها سنةً وأحدَ عشرَ شهرًا واثنيْ عشرَ يومًا...»[٢]، وما يُستفاد من هذا الشّاهد أنّ محلّ المرويّ له هو محلّ شاغر يتّسع لمتلقّي الخطاب القصصي، سواءٌ كان مستمعًا أو قارئًا مجرّدًا.

وتجدر الإشارة في هذا الصّدد إلى أنّ المرويّ له المخصوص بالحكاية إن هو إلاّ (المحسن التّنوخي) قبل أيّ شخص آخر، فهو جامع فعلات الأجواد، ومهندس أخبارها، ولولا تلقّيه هو لما كان ثَمَّة سردٌ أصلاً.

وأمّا عن المرويّ له المشارك في الحكاية فمتوفّر في كثير من أخبار (المستجاد)، ولا سيما تلك الّتي تتضمّن تبادلاً حواريًّا بين شخصيّتين شأن هذا الخبر: «فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك، فقال: يا أمير المؤمنين ما أستحقّ إلاّ دون هذا المجلس، قال: وكيف؟ قال: النّاس يزعمون أنّه ليس محلّي محلّ من يَشفع في رجل قُذفَ بما ليس فيه، ولم يَصحَّ عليه منه شيءٌ فلم يشفع، قال: فارتفع إلى موضعك، قال: مُشفعًا أو غير مُشفع؟ قال: بل مُشفعًا قد وهبتُ لكَ خالدًا ورضيتُ عنه...»[٣]، فشخصيّتا (المعتصم) و(ابن أبي دؤاد) كلتاهما تبادلتا تقمص دور الرّاوي والمرويّ له، وكانتا شخصيّتين مشاركتين في وقائع الخبر.

وقدْ ميّز بعض الدارسين[٤] وجوهًا للمرويّ له ثلاثةً تتجلّى من خلال مستويي الحكاية والخطاب، أوّلها: المرويّ له- الشخصيّة، وهو المضطلع بدور الحكاية، ويساير لدى

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.

(٣) نفسه، ص١٥٩.

(٤) منهم «فنسون جوف» (١٩٩٣م).

(جونات) المرويّ له المضمّن في الحكاية[١]، ولعّل في هذا الخبر ما يحيل عليه: «فوجدت باب دار وامرأة في دهليزه فقلتُ: يا سيّدة النّساء اِحْقِني دمي فإنّي رجل خائف، فقالت: على الرّحب»[٢]، فالمرويّ له المرأة وهي شخصيّة مضمّنة في الحكاية تلقّت مقالة الرّجل، وشاركت بقسط في أحداث الخبر.

وأمّا الضرب الثّاني فهو مرويّ له مُستدعًى، ويُحيل على قارئ غُفلٍ يتوجّه إليه الرّاوي بخطابه أثناء القصّ، مُستخدمًا إيّاه مطيّةً قصد لفت انتباه القارئ، ورسم أفق انتظار مخصوص[٣]، من ذلك ما قد يُتبيّن في هذا الخبر: «إنّ الإسكندر لـــمّا انتهى إلى الصّين ونازل ملكها، أتاه حاجبه، وقد مضى من اللّيل شطرُه، فقال له: رسول ملك الصّين بالباب يستأذن عليك، فقال: ائذن له، فلمّا دخل وقف بين يديْه وسلّم وقال: إنْ رأى الملك أن يخلّيني فليفعل، فأمر الإسكندر من بحضرته بالانصراف وبقي حاجبه...»[٤]، فالمرويّ له في هذا الخبر هو القارئ المجرّد الذي يتوجّه إليه الرّاوي أثناء القصّ.

وأمّا الضّرب الثّالث فهو المرويّ له الممحوّ، وهو لا يُوصف ولا يُسمّى إلاّ أنّه حاضر ضمنيًّا في الخطاب من خلال ما يفترضه الرّاوي من معرفة وقيم لدى متلقي نصّه، وهو يعادل لدى (جونات) المرويّ له من خارج الحكاية[٥]، من ذلك ما ورد في هذا الخبر: «سأل رجل حاتمًا الطّائي، فقال: يا حاتم هل غلبك أحد في الكرم؟ قال: نعم غلام يتيم من طيْء نزلت بفنائه وكان له عشرة أرؤس من الغنم، فعمد إلى رأس منها فذبحه...»[٦]، وفي هذا الخبر لم يتمّ وصف المرويّ له أو تسميته، ولكنّ حضوره مُقدَّرٌ يُستخلص من خلال ما افترضه الرّاوي من معارفَ سابقةٍ لديه.

من خلال ما سلف يُستخلص تنوُّعُ أصناف المرويّ له في أخبار (المستجاد)، فقد راوح بين مروي له خارج الحكاية غير مشارك فيها، وبين مرويّ له داخل الحكاية مشارك فيها،

(١) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٨٧.
(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.
(٣) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٨٧.
(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٤٦.
(٥) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٨٧.
(٦) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٠٣.

وإثر محاولة الخوض في علامات المرويّ له وأصنافه، يحسن معاينة وظائفه، فما تلكم الوظائف؟

وظائف المرويّ له:

للمرويّ له وظائفُ في أخبار (المستجاد) مخصوصةٌ، ومنها:

١) الوظيفة السرديّة:

يتناوب في الغالب الأعم على العمليّة السرديّة مرويّ له وراوٍ، فيتحوّل المرويّ له أحيانًا إلى راوٍ، ويغدو القصّ متداولاً بينهما، هذا يسرد وذاك يتلقّى؛ مما يُسهم في تطوير السّرد وإحكام الحبكة.

٢) وظيفة التوسّط بين الرّاوي والقارئ:

يمثّل المرويّ له جسر عبور بين الرّاوي والقارئ عبر وشائجَ تشدّ الرّاوي إلى القارئ المجرّد، وذلك من خلال علامات مزروعة في الحكاية[١]، بل «يكاد يُجمع علماء صناعة القصص على أنَّ النّص القصصيّ نصّ يقوم أساسًا على مبدأ الوساطة، فلا يصلنا كلام المؤلّف إلاّ عن طريق أعوان السّرد يفوّضهم عنه»[٢].

٣) الوظيفة الآيديولوجيّة:

لـــمّـــا كان المرويّ له هو المخصوص بالقصص شأنه في ذلك شأن القارئ الافتراضي، فإنّ الغرض من الإسناد في القصص القديم يشفّ عن قدسيّة حازت عليها القصص ولا يَعزب عن النّظر أن تكون أخبار (المستجاد) منها، إذ يظلّ هذا المرويّ مقدسّا عند الأجيال المتعاقبة، بل لا يُعدم توفرّ نزعة توجيهيّة ما انفكّ التَّنوخي يلوّح بها في بعض أخباره تحث على البذل والعطاء ومساعدة المحتاج.

مِمّا أنفتْ تجليته يُستفاد توفّرُ وظائفَ للمرويّ له في أخبار (المستجاد) جمّةٍ، وما من شك في أنّ تلكم الوظائف قد حقّقت قصديّةً مخصوصةً يروم (التَّنوخي) إدراكها بخطابه القصصيّ.

كانت الوقفة السابقة لإيضاح سمات الخطاب القصصي في (المستجاد) من خلال الزّمن

---

(١) علي عبيد، المروي له في الرواية العربيّة، مرجع سابق، ص٢٤١.

(٢) محمد الخبو، الخطاب القصصيّ في الرواية العربيّة، مرجع سابق، ص٣١٣.

والصّيغة والصّوت، وبذلك اتّضح أنّ السرد في أخبار المدونة قد راوح بين الإسراع والإبطاء، وقد كان ترتيب أحداث الأخبار في الخطاب القصصي خطيًّا غلب عليها الزمن الماضي، وقدْ قل وجود الارتداد والاستباق، وأمّا التواتر فقد شملت المدوّنة جميع أنواعه، فقد تشكلت الأخبار من قصّ إفرادي، وقصّ تأليفيّ، وقصّ تكراريّ.

كما يتبين أن الرؤية من الخلف هي النّمط الشّائع في أخبار المدونة، وهي رؤية الراوي العليم الذي ينقل بضمير الغائب، واتضح أيضًا أنّ الخطاب المهيمن في أخبار المدونة هو الخطاب المروي، ثم الخطاب المباشر، في حين أن الخطاب غير المباشر كان بدرجة أقلّ.

وقد اشتملت أخبار المدونة أيضا على راوٍ عليم بكلّ شيء، وراوٍ لا يعلم أيّ شيء، في حين أنّ حضوره تنّوع بين راوٍ من داخل الحكاية، وراوٍ من خارجها غير مشارك في أحداثها، والحال نفسه مع المروي له الذي راوح بين مشارك في أحداث الحكاية من داخلها وبين مرويّ له غير مشارك فيها، كما تجدر الإشارة إلى تنّوع علامات المروي له بين علامات صامتة وعلامات ناطقة، وبعد هذه الوقفة يجدر الانتقال إلى دلالات الأخبار الثاوية فيها، وقد أفردتُ لها الفصل الثالث.

الفصل الثالث
الدّلالة في أخبار (المستجاد)

ويشتمل على ما يلي:

تمهيد.

المبحث الأوّل: القيمة الأدبيّة.

المبحث الثاني: القيمة المرجعيّة:

١- المرجع النفسي الذاتي.

٢- المرجع الواقعي التاريخي:

- البعد السياسيّ.
- البعد الاجتماعيّ.
- البعد الثقافيّ.

المبحث الثالث: القيمة الآيديولوجيّة:

١- الجانب الديني.

٢- الجانب الأخلاقي.

تمهيد:

كان القصدُ في الفصل الثّاني من البحث اِستجلاءَ قوانين السّرد الدّاخليّة، واستخراج النُّظم الّتي تتحكّم في خطاب الخبر في (المستجاد)، وتحديد سماته في إطار مقاربة النصّ واستنطاقه بحثًا عن وجوه الأدبيّة فيه، بيد أنّ هذا العمل يبقى قاصرًا عن الإحاطة بالنصّ الأدبي ما لم يشفع بمبحث آخر يتّصل بالدّلالة، فليس من المنطقيّ إطلاقًا أن تكون بنية النصّ الأدبي بعناصرها الداخلية المترابطة موضوع بحث أدبي ما لم يفتح ذاك النصّ على ما هو مرجعي- دلالي.

على أنّ الدّلالة في عرف بعض الدّارسين[1] إنّما هي كيانٌ هلاميّ شبه محسوس، يُشار به إلى أمر مُلتبس بل غامض؛ لذلك كانت مسألة بالغة التّعقيد موصولةً في الآن ذاته بالإنشاء والقراءة، مُرتبطة بقابليّة النصّ للقراءة، ارتباطها بالقرّاء وبكيفيّات تعاملهم مع النّصوص، ودلالة أيّ نص أدبي ما هي إلا استدعاء لفكر العصر وثقافته الذي ينتمي إليه النصّ.

ولكنّ الأهمّ في هذا الفصل التّركيزُ على النصّ، والانطلاق منه، والعودة إليه في تحليل أبعاد الخبر الدّلاليّة، إذ يتّضح توفّر مجموعة من القيم تتجاذب أخبار (المستجاد)، ومن أهمّها الأدبيّة، والمرجعيّة، والآيديولوجيّة. فعلى أيّ صورة ثوت تلكم الدّلالات في المدوّنة؟

---

(١) تودوروف وآخرون، المرجع والدّلالة في الفكر اللّسانيّ الحديث، ترجمة: عبد القادر قنيني، ص ص٢٤-٢٥ (أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م).

المبحث الأوّل: القيمة الأدبيّة:

ينتمي هذا الكتاب إلى مؤلَّفات (القرن الرّابع)، وقدْ اشتهر مُؤلِّفه التَّنوخي بغزارة إنتاجه الأدبيّ على غرار كتابيْه (الفرج بعد الشدّة)، و(نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة)، ويُعتبر من الأدباء المكثرين في التّصنيف وخاصّة في فنّ الأخبار، وقد جاء تأليف الكتاب في عصر نضوج الأمّة الإسلاميّة فكريًّا، فقد تطوّرت الحياة الثقافيّة بشكل مهمّ نتيجة امتزاج المسلمين العرب بالأمم الأخرى، واتّساع رقعة الدّولة وانضواء ثقافات متعدّدة داخلها.

وقيمة (المستجاد) الأدبيّة تتأتّى من خلال تدبّر نصوص أخباره ومحاولة استكشاف طرافة ما تعرضه، فقد ارتضى التَّنوخي لمؤلَّفه (المستجاد) أن يتضمّن بين دفّتيْه الخبر شكلاً أدبيًّا، وقد كانت الكتابة فيه مُتداولة لدى القدامى، لكنّ التَّنوخي حاول إرساء منوال جديد في مُصنّفه؛ لذلك، وجّهت عنايتي في الفصلين السّابقين إلى دراسة هذه الأخبار قصد تبصّر كونها الحكائي، وتنظّر خطابها القصصيّ سعيًا إلى استشفاف مُقوّماتها وخصائصها باعتبارها فنًّا من فنون القول ذا سمات مميّزة، ومن خلال تجويد النّظر ألفيتُ في نصوص (المستجاد) تعايش تليد الأدب وطارفه، ومن التّليد ما يُلمح أوّلاً في اختيار الموضوع الّذي بُني عليه الكتاب، فالتزام مؤلِّفه بالنّظام الغرضيّ في إيراده الأخبارَ إنّما يُمثّل مظهرا من مظاهر الاتّباع، فالاِطّلاع على بعض المؤلَّفات الّتي جرى أصحابها فيها مجرى ترتيب الموادّ وفق الأغراض يشفّ عن أنّ هذا النّسق اشتدّ عودُه ابتداءً من القرن الثّالث للهجرة[١]، بل إنّه يُستصفى أيضًا من مقدّمة (المستجاد) في حدّ ذاتها، فقد دأب الأدباء قديمًا على تقديم أعمالهم حتّى غدت هذه الممارسة مُلازمة الإنتاجَ الثّقافيَّ عامّة والإنتاج الأدبيّ خاصّة[٢]، كما يتجلّى التّليد الرّاسخ من خلال إقرار التَّنوخي منذ البدء بأنّه مجرّد جامع للأخبار، حين يقول: «أجمعُ لك من أخبار الأجواد أجودها، ومن فعالات الكرام أسناها وأرشدها»[٣]، فمبدأ الاختيار من السُّنن المتواترة لدى الكتّاب القدامى، إنّما يُستدل به على كثرة الأخبار من

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٤٢٢.

(٢) الشاذلي البوغالمي، البنية والدلالة في أخبار القاضي التَّنوخي من خلال كتابيه، ص٢٠٢ (رسالة دكتوراه، إشراف: الحبيب العوادي، جامعة تونس، تونس، ٢٠١٣م).

(٣) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٩.

جهة وتدخّل الكاتب فيها وتصرّفه في هذه المادة الغزيرة من جهة أخرى[١]، حتّى إنّ التّنوخي لا يتوانى عن الإشارة أيضًا إلى أنّ القيمة الفنيّة هي الأساس المعتمد في اختياره النّصوصَ: «تخيّرت من ذلك ما سنح لي في الحال، ممّا أحسبه يستفزّ القارئ والسّامع»[٢].

ومن تجلّيات التّليد قيامُ أخبار (المستجاد) على سنّة الرّواية بسندها ومتنها، وهو ما تجلّى واضحًا من خلال مقاربتِي البنيةَ الإطاريّة لنصوص المدوّنة، فقد افتُتحت الأخبار غالبًا بثنائيّة السّند والمتن، ووردت الأسانيدُ صريحة تحمل أسماء الرّواة في سلاسل ممتدّة، وجاءت كذلك في بعض الأخبار مُجملة دون ذكر أسماء الرّواة، لكنّها مع ذلك، ظلّت محتفظةً بالإسناد عند توثيق الأخبار، على حين اشتمل المتن على جنس الخبر الّذي يشيع في معارفَ كثيرةٍ، مُحاكيًا بنية الأخبار القصصيّة مُمثّلة في الطّراز السّرديّ القديم، ذلك أنّ القسط الأكبر من أخبار (المستجاد) اتّسم ببنية بسيطة.

وأمّا الطّارف الـــمُحدث فتحيل عليه الأسانيد التي تحوّلت من حيث وظيفتُها من أدوات توثيق وتأريخ إلى وسيلة فنيّة تستهدف الأدبيّة والمشاكلة[٣]، ذلك أنّ التّنوخي قد يُخفّف في كثير من أخباره من غلواء سلاسل الإسناد أو قد يُجملها، مُغيّبا أسماء الرّواة، على أنّ ذلك قد يُتبيّن في اثنين وعشرين خبرًا أسقط فيها الإسناد إسقاطًا تامًّا، وما من شكّ في أنّ هذا الإجراء يكتسي مظهرَ جدّة ومُغايرةٍ لدى بعض الدّارسين[٤].

وأمّا مُتون أخبار (المستجاد) وإن كانت ذات معنى جامع وهو الكرم فإنّ التّنوخي قد نوّع في مضامينها، ولم يقتصر في الكرم على المال بل أورد وجوهًا أخرى منه، مثل كتمان السرّ، والسّعي بالحاجات، وبذل النّفس، فضلاً عن دماثة الخلق، كما تميّز متن (المستجاد) بوروده على هيئات شتّى وأبنية مخالفة السّائدَ، دالّة على التنوّع والثّراء بل الانزياح عن نمط الخبر التقليديّ، ومن أبرز مظاهر العدول نزوعُ الأخبار إلى التعقيد، وتوسّلها أحيانا في ما

(١) انظر: يسرى إسماعيل إبراهيم، البناء القصصي في كتاب المستجاد، مرجع سابق، ص٥٠.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٩.

(٣) علي عبيد، مقاربات سردية، مرجع سابق، ص٢٧٩.

(٤) من ذلك أنّ عبد الله إبراهيم، يذهب إلى أنّه: «لا يمكن تقدير الأثر الّذي تركته صيغة الأخبار والحكايات الكثيرة التي صنفها التّنوخي [...] ولكن الّذي يمكن حدسه أنّ تلك الصّيغة التي تحرّرت إلى درجة ما من قيـــد الإســـناد المركّب قد ساهمت في إشاعة مناخ قصصيّ جديد». انظر مزيد تفصيل لدى: عبد الله إبراهيم، السرديّة العربيـــة، مرجع سابق، ص٢٢٠.

بينها بعلاقة التّضمين[١] على غرار خبر: «أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة...»[٢]، أو بعلاقة النّظم[٣] كما هو الشّأن في خبر: «كان إبراهيم ابن المهدي قد ادّعى الخلافة لنفسه بالريّ...»[٤].

واستنادا إلى ذلك، فإنّ كتابة التّنوخي النثريّة في (المستجاد) قد ظلّت منضوية إلى ما هو سائد، إلاّ أنّها لا تعدم تمرّدا عليه في الآن ذاته، فقد وظّفت القصّ توظيفًا فنيًّا يؤكّد براعة التّنوخي القصصيّة، وخروجه عن المألوف، وإنْ تخفّى خلف الأسانيد في أحيان كثيرة.

وإذا كان النّاقد الرّوسي (رومان جاكبسون) قد أكّد أنّ موضوع علم الأدب ليس الأدب وإنّما الأدبيّة، وأنّ الأدبيّة في نظره إنْ هي إلاّ «بحث في ما يجعل من أثر أثرًا أدبيًّا»[٥]، فإنّ ما عداه من النقّاد المعاصرين[٦] اعتنى بدراسة أدبيّة النّصوص وبيان مظاهر جودتها، فتمخّض عن تلك العناية أنْ تنوّعت زوايا النّظر إلى تلكم الأدبيّة وتباينت مناهج دراستها قصد استجلاء مُكوّناتها.

وتُعدّ القيمة الأدبيّة في نظر الباحثين القيمةَ الأبرز في نصوص الأخبار عامّة، ذاهبين إلى

---

(١) علاقة التّضمين: «علاقة ناشئة عن تداخل الحكايات بعضها في بعض، وعن تعدد رواتها. إذ تحتلّ المستوى الأوّل الحكاية التي تتضمّن غيرها من الحكايات دون أن تحويها أيّ حكاية، وأمّا الحكايات داخل الحكاية فتقع في المستوى الثّاني من السرد وما يليه». انظر مزيد تفصيل في مادة (مستويات سردية)، محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٣٩١-٣٩٢.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

(٣) النّظم: مصطلح سنّه الشّكلانيّ الرّوسيّ «شكلوفسكي»، «ويعني به قِصصًا أو مقاطع سرديّة تامّة مُتسلسلة ومُتوازية، تضطلع بدور البطولة في جميعها شخصيّة مشتركة». انظر: معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤٦٥.

(٤) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.

(٥) ذكر قولة (جاكبسون) الناقدُ الرّوسي الشكلانيّ (إخنباوم) في كتابه: الشّعر الرّوسي الجديد، وقد استدلّ بها محمد القاضي بعد أن عرّبها. انظر تفصيله لدى: محمد القاضي، تحليل النص السردي، مرجع سابق، ص١٤.

(٦) ومنهم محمّد الهادي الطرابلسي حين يؤكّد في معرض حديثه عن بُنى النصّ الأدبي المعجميّة والتركيبيّة والإيقاعيّة والموضوعيّة والتصويريّة قائلا: «البُنى المختلفة في النصّ الأدبيّ إنّما تلتقي في الوظيفة الجماليّة الفنيّة المتحصّل عليها بما يحدث من انتقال من الإفادة بمقتضى الإيحاءات الجديدة». انظر مزيد تفصيل لدى: محمّد الهادي الطرابلسي، تحاليل أسلوبية، د. ط، ص١١٦ (دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٢م). وفضلا عن ذلك لا يرى معنى للأدبيّة بمعزل عن مفهوم الجمال فـ«العملية الأدبيّة تتمثّل في تحويل الموضوع مهما كانت قيمته في حدّ ذاته، ومهما اختلفت المواقف في قبوله أو رفضه وفي مدحه أو ذمّه إلى كلمة جميلة». انظر: محمّد الهادي الطرابلسي، تحاليل أسلوبية، مرجع سابق، ص ١٧٣.

أنّ اهتمام الإخباريين طيلة العصور التاريخيّة إنّما تركّز على صقل العبارة وإحكام الصيّاغة[١]، وتبعا لذلك، أجرى بعضهم مقارنةً بين عمل المؤرّخ وعمل الإخباريّ، مُجمعًا على أنّ قصد «المؤرّخ نفعيّ ومداره على المرجع، بينما قصد الرّاوي جماليّ ومداره على الفنّ»[٢].

بيد أنّ قيمة النصّ الفنيّة إنّما تُستنبط غالبًا من النصّ ذاته، فإمّا أن تثبت أو تنتفي؛ لأنّ مرجع رونق الكلام إنّما يتمّ داخل النصّ لا خارجه[٣]، فلا يُبحث عن أدبيّة أيّ خبر إلاّ من خلال دراسة الخبر في حدّ ذاته.

ولـــمّا كانت غاية الفنّ الإمتاع الّذي قد لا يتحقّق إلاّ بمقتضى خطاب قصصيّ وهو جوهر النّصوص الإبداعيّة، فإنّ أخبارًا جمّة تشفّ عن أنّ المؤلِّف إنْ هو إلاّ مُنشئ النصّ وليس مجرّد ناقل له[٤].

وفي ضوء أخبار المدوّنة يتّضح وعيُ التّنوخي بأدبيّة الخبر، من ذلك أنّه يُورد في مصنّفه أخبارًا لا تتناسب ومرجعيّته الآيديولوجيّة الدينيّة، ولعلّ ذلك عائدٌ إلى ما فيها من طرافة وخروج عن السّائد، إذ يسرد راويه خبر رجل خارجيّ صدمه ببلاغته على هذا النّحو: «ما

(١) الشاذلي البوغالمي، البنية والدلالة في أخبار القاضي التّنوخي من خلال كتابيه، مرجع سابق، ص١٨٤.

(٢) محمّد الهادي الطرابلسي، بحوث في النصّ الأدبي، د. ط، ص٨٣ (الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨م).

(٣) نفسه، مرجع سابق، ص ١٧٣.

(٤) وقد أشار باحثون كانوا تناولوا أخبار التّنوخي في مختلف تصانيفه بالدّرس إلى قيمة أخباره الفنيّة، فمحمد القاضي يقول: «فإذا انتقلنا إلى القرن الرّابع مع التّنوخي في نشوار المحاضرة وأخبار المـــذاكرة (...) لاحظنـــا ازديـــادًا في الاهتمام بالخطاب، وحرصًا على إخراج الخبر في صورة أدبيّة يتوفّر فيها الجمال حتّى تحقّق للقارئ متعةً فنيّـــة». انظر تفصيله لدى: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦٨٠. وقد خـــصّ القاضـــي أدبيّـــة نصوص التّنوخي بقوله: «حسبنا أنّ ننظر في الفرج بعد الشدّة للتّنوخي حتّى يتأكّد لنا أنّ الغاية من الخبر ليـــست ما يقوله، إذ إنّ كل أخبار الكتاب تصّور زوال الشدّة». انظر: محمد القاضي، نفسه، ص ص ٦٨٠-٦٨١.

وقد رأى الحبيب العوادي أنّ: «شخصيّة التّنوخي الأدبيّة قد تدخّلت في تشكيل نصّ الخبر وإدخـــال الـــصّبغة الإنشائيّة عليه حتّى يرتقي إلى درجة الأدبيّة». انظر: الحبيب العوادي، منهج التأليف عند القاضي التّنوخي مـــن خلال كتابيه، ص ص ٢٦-٢٧ (مجلة الحياة الثقافية، تصدر عن وزارة الشؤون الثقافية، العـــدد ١٧٠، تـــونس، ديسمبر، ٢٠٠٥م).

وأمّا البشير الوسلاتي فلم يغفل عمّا يختص به كتاب (الفرج بعد الشدّة) من سمات القصّ وجمالية السّرد. انظر: البشير الوسلاتي، القصّ في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، مرجع سابق، ص٩٣.

رأيتُ رجلاً عرض على الموت فلم يكترث به ولا شغله عمّا أراده حتّى بلغه وخلصه الله من القتل إلاّ تميم بن جميل السّدوسي الخارجيّ، الّذي كان قد خرج على المعتصم، وقد أفحمه بفصاحة لسانه ورجاحة عقله، وختم بيانه ببيتين يطلب فيهما العفو منه: [الطّويل]

أَرَى ٱلْمَوْتَ بَيْنَ السَّيْفِ والنَّطْعِ كَامِنًا يُلاَحِظُنِي مِنْ حَـيْثُمَا أَتَلَفَّتُ
وَأيُّ امـرِئٍ يـدْلـي بـعُذْرٍ وَحُجَّةٍ وَسَيْفِ الْمَنَايَا بَيْنَ عَيْنِهِ مُصْلَتُ»[1]

ولعلّ الدّافع في إيراد هذا الخبر فنّيّ بحت، لا صلة له بما هو دينيّ، فالفنّ في هذا المقام قد عطّل ما هو موروث وتقدّم عليه، والشّأن في ذلك شأن ما ورد في خبر: «وصحّ أنّ أبا طالب بن كثير كان شيعيًّا فقال له رجل: بحقّ عليّ بن أبي طالب إلاّ ما وهبت لي نخيلك بموضع كذا، قال: قد فعلت وحقّه لأعطينّك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلبه الرّجل»[2].

وإذْ تتضاعف القيمةُ الأدبيّة في النّصوص التخييليّة أثناء النّظر فيها من حيث الكيفيّةُ الّتي بها اُستخدمت اللّغة في تلكم النّصوص، فإنّ ذلك لا يعدم توفّر الأدبيّة في ما هو وثائق تاريخيّة، ولعلّ في ذلك ما يشير إليه النّاقد (محمد الخبو)، مُنطلقًا من قراءة النصّ وتأثيرها في تأويله، فهو يرفض أن تكون الكتابة الإبداعيّة حِكرًا على الأثر الأدبيّ، مُرجّحا إمكانيّة الحديث عن نظريّة قد يظفر لها المتلقّي بتمثّلات في نصوص شتّى[3]، ممّا يسمح له ذلك بإجراء مقاربة أدبيّة لأيّ نصّ[4].

وتبعا لذلك، يُستخلص وجود تصوّرين للأدبيّة، أمّا الأوّل فيعتبر أصحابه أنّ الأدبيّة مقصورة على النّصوص الّتي تستعمل فيها اللّغة لغايات جمالية فنيّة بحتة، وأمّا الثّاني فيتعلّق بنوعيّة القراءة الّتي تجري على أيّ نص؛ لذلك كلّه، فالأدبيّة في أخبار (المستجاد) تتجلّى عبر

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١١٧.

(٢) نفسه، ص١٧٣.

(٣) محمد الخبو، قراءات في القصص، ط١، ص ص ١٩٦-١٩٧ (مكتبة علاء الدين، صفاقس، تونس، ٢٠٠٢م).

(٤) نفسه، ص١٩٧.

وقد اضطلع الباحث في كتابه بدراسة نص من نصوص الطبري دراسة أدبيّة أفضت إلى استنتاجٍ مفـاده: «أنّ النصّ وإن أنشئ إنشاءً تاريخيًّا فهو مصوغ صياغة أدبيّة [...] ترتقي بالمكتوب التاريخيّ إلى مصاف الفنّ الرّائق». انظر مزيد تفصيل لدى: محمد الخبو، قراءات في القصص، مرجع سابق، ص٢١٣.

مستويات عديدة، حسبي في هذا المقام تركيزُ النّظر في علاقة الخبر بالأجناس الأدبيّة الأخرى[١].

إنّ ثراء نظرية الأجناس الأدبيّة[٢]، وسعة آفاق البحث فيها، فضلاً عن اختلاط المناهج فيها ووعورة المسالك المؤدّية إلى فهمها تُحتّم على الباحث الاستعاضة بالإيجاز عن الإطناب؛ تنكّبا عن الاستطراد الّذي قد يُشتّت المنظور ويُورث في المقروئيّة السآمة، وسعيًا إلى تجويد النظّر فيما هو حاضر حضورًا واضحًا في أخبار (المستجاد).

إذ يُلاحظ أنّ تضمين الأخبار أجناسًا أدبيّة شتّى طريقةٌ في التّأليف ميّزت أدب التّنوخي، بل ساعدت على إقامة ضروب من التّفاعل بين نصوص المدوّنة. ومن مظاهر هذا التّفاعل استيعابُ الخبر في (المستجاد) الشّعرَ[٣]، وآية ذلك خبر: «قيل: كان لكثير عزة غلام تاجر فأتى الشام بمتاع يبيعه فأرسلت عزّة امرأة تطلب لها ثيابًا، فوقفتْ على غلام كثير وهي لا تعرفه فابتاعت منه حاجتها و لم تدفع الثّمن، فكان يختلف إليها مُقتضبًا فأنشد ذات يوم من قول مولاه: [الطّويل]

قَضَى كُلُّ ذي دينٍ فوفّى غريمَــهُ وَعزَّةُ مَمْطُولٌ مُعنًّــى غَرِيمُهَــا

قال: فقالت المرأة الّتي ابتاعت منه الثّياب: هذه والله دار عزّة، ولها والله ابتعت منك

(١) وقد أشار محمد القاضي إلى هذا التصوّر في سياق حديثه عن علاقة الخبر بالشّعر قائلاً: «والّذي ينبغي أن نخرج به أنّ هذه الفترة التاريخيّة الّتي تنتهي عند منتصف القرن الرّابع قد شهدت حدثًا أساسيًّا تمثل في دخول الخبر حــرم الأدب حَيِيًّا في بداية الأمر، ثم ما لبث أن اشتدّ عودُه حتّى تمثّل ما حوله من أجناس وأشكال فاحتواها». انظــر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ص ٥٩١-٥٩٢.

(٢) انظر مزيد تفصيل لدى: محمد القاضي، نفسه، ص٤٤.

(٣) وهذا إحصاء سريع للأجناس الأدبية الواردة في (المستجاد) وذلك حسب كثرة ورودها صلب الأخبار:

الجنس الأدبيّ	عدد الأخبار الواردة فيه
الشّعر	٦٢
الرّسائل	١٢
النّادرة	٥
الخطبة	٣
الوصيّة	٢

الثّياب، فقال: والله وأنا غلام كثير وأشهد الله أنّ الثّياب لها، ولا آخذ من ثمنها شيئًا فبلغ ذلك كثيرًا، فقال: وأنا أشهد الله أنّه حرٌّ وما بقي معه من المال فهو له»[1].

يُستخلص ممّا سبق أنّ القيمة الأدبيّة هي القيمة الأبرز في (المستجاد) باعتبارها القيمة الوحيدة الخاصّة بالخبر، والّتي تجعل منه نصًّا أدبيًّا يجري إلى تحقيق الإمتاع، ومهما التزمت أخبار (المستجاد) بسنن التّأليف العتيقة فمظاهر العدول فيها مُتوفّرة، وقد تجلّت أدبيّة الأخبار من حيث علاقة الخبر في حدّ ذاته بالأجناس الأدبيّة الأخرى، فقد استوعب الخبر بوصفه نصًّا جامعًا أشكالاً تعبيريّة مُتنوّعة، صهرها في سياق أدبيّ واحد؛ ممّا أدّى إلى تغيّر ملامحه، فخرج من كيانه ومرجعّيته التاريخيّة إلى وجوده الفنّيّ الّذي لا يعْدمُ جمالاً في الصّياغة، وطرافة في المضامين.

ولكن ما القيّمة المرجعيّة الّتي دلّت عليها أخبار (المستجاد)؟

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٢٤.

المبحث الثّاني: القيمة المرجعيّة:

المرجع في معناه المعجميّ فعلٌ، أو وسيلة، إحالة، أو هو وجود يقاس إلى شيء آخر[١]، وقدْ صنّفه الباحثون صنفين اثنين. أحدهما نفسيّ ذاتيّ، والآخر واقعيّ تاريخيّ. وقد عبّر (طه حسين) عن ذلك بقوله: «إلامَ تقصد إذا عرضتَ لشاعر من الشّعراء وأردتَّ أن تقرأ شعره وتفهمه، ثم تنقده تقصد فيما أظنّ إلى أشياء. الأوّل أن تصل إلى شخصيّة الشّاعر فتفهمها وتحيط بدقائق نفسه ما استطعتَ، والثّاني أن تتّخذ هذه الشخصيّة وسيلة إلى فهم العصر الّذي عاش فيه الشاعر»[٢]، وبناءً على ذلك، فللنّصوص الإبداعيّة – مهما كان نوعها – علاقةٌ وطيدة بالواقع الاجتماعيّ– التّاريخيّ[٣]، وهي قبلئذٍ متّصلة بمؤلِّفها أيّما اتّصال، فهي بقدر ما تشفّ عنه تُخفيه[٤]، فمؤلّفو الكتابات المرجعيّة إنّما يحيلون[٥] في الغالب الأعمّ على حقائق واقعيّة بغية لفت انتباه القارئ إليها؛ لأنّ الغاية من هذه الكتابات هي مطابقة الواقع مطابقةً تامّة، لا مشاكلته أو محاكاته فحسب[٦]؛ لذلك، حرص الإخباريّون في السّرد العربي القديم على تقديم الأخبار بوصفها وثيقة الصّلة بالواقع، خلاَ (الجاحظ) الّذي يُعد في هذا الخصوص استثناء للقاعدة[٧]، بل قد جعلت هذه النّزعة الدّارسين يقصرون مجال الأخبار على التّاريخ والتّراجم[٨].

---

(١) عبد الملك مرتاض، نظرية النصّ الأدبي، ط٢، ٣٧٤ (دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠١٠م).

(٢) طه حسين، حديث الأربعاء، ج٣، ص٥٢ (دار المعارف، مصر، ١٩٥١م).

(٣) علي عبيد، مقاربات سردية، مرجع سابق، ص٢٧٨.

(٤) انظر مزيد تفصيل لدى: المتكلّم في السرد العربي القديم (أعمال ندوة بإشراف: محمد الخبو ومحمد نجيب العمامي)، ص٨ (دار محمد علي الحامي، تونس، ٢٠١١).

(٥) الإحالة: هي ما نرجع إليه لطلب معلومات نجهلها، أو نرغب في التأكد منها، انظر: عبد الجليل مرتاض، المرجعية والخطاب، ص١٩ (النادي الأدبي الثقافي، جدة، ٢٠١٦م).

(٦) محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مرجع سابق، ص٤٤٨.

(٧) لا يُشترط في الأخبار أن تكون لصيقة الواقع، ذلك أنّه من الصّعوبة بمكان في كتابات الجاحظ تمييز الأخبار التي تنقل الواقع من الأخبار التي تشاكل الواقع. انظر تفصيله لدى: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦٠٧.

(٨) ويظهر هذا من خلال اتفاق الجاحظ والأصفهاني على إخراج الخبر من دائرة الخرافة، إذًا استخدم الجاحظ عقله، بينما كان الأصفهاني يستند في حكمه على الأخبار إلى مدى تطابقها مع الواقع التاريخي. انظر: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦١٨.

وما يهمّ في هذا السّياق هو بيان ما ورد في المدوّنة من أخبار متّصلة بالمرجع النفسيّ-الذاتيّ.

١- المرجع النفسيّ-الذاتيّ:

ممّا يلفت الانتباه أنّ أخبار (المستجاد) لم تُحل على ذاتيّة راوي التَّنوخي، و لم تتحدّث عنها مثلما فعلت أخبار مُصنّفاته الأخرى[١]، وقد يُعزى ذلك إلى اقتصار محتوى الكتاب على تجميع فعلات الأجواد المشهورين؛ لأنّ التَّنوخي يذهب إلى أنّ الحديث عنهم قد يحفز النّاس على الاقتداء بهم، وهو لا يتحدّث عن نفسه كواحد منهم، بل قد يكون لاتّساع رقعة أخبار (المستجاد) التاريخيّة الممتدّة من العصر الجاهلي حتّى العصر العبّاسي أثره الفعّال في تقليص تلكم الذاتيّة، ممّا اضطرّ التَّنوخي إلى أن يُردف مقدّمة كتابه بقوله: «أجمع لك من أخبار الأجواد أجودها، ومن فعالات الكرام أسناها وأرشدها»[٢]، وهذا ما يحيل على كثرة الأخبار الّتي جمعها، مُعتمدًا مقياسًا هو اختيار الأجود والأكمل منها، ومن خلال التّدقيق التاريخيّ في الأخبار يُتبيّن أن أقصى زمن اشتمل الكتاب على أخباره يصل إلى عصر الخليفة الواثق (ت: ٢٣٢هـ)، وهي أزمنة سابقة للقرن الرابع الهجري الّذي فيه عاش التَّنوخي.

يُستفاد من ذلك أنّ جلّ أخبار التَّنوخي في المدوّنة قد وصلته عن طريق القراءة أو السّماع، أو الوجادة أو غير ذلك[٣]، بل لم يعايش أحداثها شخصيًّا، مثلما حصل في بعض

---

(١) يرى (محمّد حسن عبد الله) في سياق دراسته لكتاب (الفرج بعد الشدة) أن بإمكان هذا المصنف: «أن يمنحنا جوانب مهمة من حياة مؤلفه العلمية، وملامحه النفسية ترتيبًا على أن الكاتب -أيّ كاتب- يفيض جانبًا من نفسه فيما يكتب»، انظر: محمّد حسن عبد الله، كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التَّنوخي: دراسة فنية تحليليَّة، ص٧٢ (مجلة عالم الفكر، المجلد١٤، العدد٢، ١٩٨٣م).

كما اعتبر (النشوار) مصدرًا أساسيًّا من مصادر المعرفة بحياة التَّنوخي، انظر: المرجع السابق، ص٧٩.

ويذهب باحث آخر إلى إدراج بعض أخبار التَّنوخي ضمن أدب الاعتراف، انظر: البشير الوسلاتي، القصّ في أخبار الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي، مرجع سابق، ص٩٧.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٩.

(٣) اهتم المحدّثون في مراتب تحمل الحديث أي كيفيّة سماع الحديث أو تلقيه. وقد أورد ابن الصلاح في كتابه (علوم الحديث) المعروف بمقدّمة ابن الصلاّح ثمانية ضروب منها ابتداءً بالسماع والقراءة والإجازة، مرورا بالمناولة والمكاتبة...، وانتهاء بالوجادة. انظر مزيد تفصيل لدى: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ٢٣١- ٢٤٠.

أخبار تآليفه الأخرى. إلاّ أنّ ملمحًا ذاتيًّا مُهمًّا يتّضح من خلال جمعه أخبارَه هو أنّه أعرب عن ذلك عند إجلاله القضاةَ وتعظيمه مهنتَهم، وآية ذلك أنّه طفق يُنوّه بالقاضي (أحمد بن أبي دؤاد)، مُفردًا له أخبارًا ثلاثة على طولها نسبيّا[١] اضطلع فيها (ابن أبي دؤاد) بدور الشخصيّة المحوريّة، ولا غرابة في ذلك ما دام المحسن بن علي التَّنوخي قد تقلّد هو نفسه القضاء في أكثر من إقليم، كما أن الضائقة المالية التي مر بها التَّنوخي في حياته كان لها أصلاً أثر في تأليف كتاب عن الأجواد وفعلاتهم والإشادة بدورهم في مساعدة المحتاجين والتفريج عن المكروبين.

وإذا كان بعض الدّارسين مال إلى دراسة أبعاد الأخبار الذاتيّة لما تضمّه من وثائق شخصيّة متّصلة بحياة المؤلّف، فإنّ البعض الآخر قد كَلِفَ بما له صلةٌ بالتّاريخ.

فما مرجعيّة أخبار (المستجاد) التّاريخيّة؟

٢- المرجع الواقعيّ-التاريخيّ:

لم يخلُ (مُستجاد) التَّنوخي من القيمة التّاريخيّة، والدّليل أنّ جلّ شخصيّات الأخبار شخصيّات شهيرة، منها الخلفاء والوزراء والقضاة، وشيوخ قبائل والرّجال المعروفون الّذين تحيل أسماؤهم على أزمنة تاريخيّة دقيقة، حتّى إنّ متلقّي المدوّنة ليخال نفسه أحيانًا إزاء كتابة موصولة بعصرها، شاهدة على ما كان يجري في محيطاتها السّياسي والاجتماعيّ والثّقافي مهما اختلفت أزمنة الأخبار، وهو ما يثبت صلة الخبر بالتّاريخ، فلا مِراءَ «أنّ الخبر الأدبيّ في شكله المفرد البسيط إنّما ينحدر من ميدانِ الحديث الدّيني، والخبر التاريخي إلى مجال الأدب»[٢]؛ إذ الأخبار مهما اتّسمت بالأدبيّة فإنّها لا تختلف من حيث جوهر علاقتها بالواقع عن الحوادث بلْهَ الأخبار التّاريخيّة[٣].

---

(١) المحسن التَّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤، ص٣٣، ص٣٥.

(٢) فرج بن رمضان، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، ط١، ص٦٥ (دار محمد علي الحامي للنشر، تونس، ٢٠٠١م).

(٣) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٥٩٧.

ويعدّ شكري عياد من أهمّ من حاول التّقريب بين الخبر الأدبيّ والخبر التاريخيّ، إذ يقول: «إنّ الخبر في أصله تاريخ، فهو نوع من التّفصيل لحادث ذي قيمة في حياة الجماعة، وبناء على ذلك، فإنّ راويه يتحرّى صدق الرّواية، ويسوق خبره للعلم لا للتّأثير، وسواء أكان الخبر في نفسه صادقًا أم كاذبًا فإنّ الرّاوي لا يعمد إلى التنميق الفنّيّ في روايته، أو ليس من شأنه أن يعمد إلى شيء من ذلك». انظر مزيد تفصيل لدى: شكري محمّد عياد،

فكيف لاحت الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة في أخبار (المستجاد)؟

- البُعد السياسيّ:

يُمثّل الخلفاء والأمراء والوزراء والقضاة في العصور الإسلاميّة الأولى: الرّاشدي والأمويّ والعباسيّ الأشخاص الأكثر حضورًا في أخبار المدوّنة، فقد كان للمال الّذي أُغدق عليهم والامتيازات الّتي مُنحت لهم دورٌ مهمّ في استقطاب العامّة، حيث تهافتت عليهم طلبًا للعون والمساعدة؛ ممّا جعل ما يدور في مجالسهم من أحداث وأحاديث على كلّ شفة ولسان.

والنّاظر في أخبار (المستجاد) يسترعي انتباهه أنّ الخلفاء من الصّحابة في العصر الرّاشدي كانوا قريبين من الرعيّة، غير محتجبين عنهم، بل إنّ الخليفة ليبدو شخصيّة عاديّة تسير بين النّاس، وتشاركهم أفراحهم وأتراحهم، حسبي ما ورد في هذا الخبر: «يُروى عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنّه عبر طائفًا بالمدينة أيّام خلافته فإذا جارية تبكي...»[(١)]، كما أن اهتمامهم بشؤون رعاياهم يأخذ الحيز الأكبر من سياساتهم وإن اضطرّ ذلك إلى خروج الخليفة بنفسه لتفقّد أحوالهم ليلاً، ومثاله ما جاء في خبر: «خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة بالمدينة، وكان يفعل ذلك كثيرًا، فمرّ بامرأة من نساء العرب مغلقة عليها بابها وهي تقول...»[(٢)].

وما إنْ يبدأ العصر الأمويّ في الظّهور حتّى يبدأ معه جَورُ الأمراء وغطرستهم وشكوى الرعيّة منهم، والشّاهد على ذلك خبر عبد الملك بن مروان وابن طلحة: «قال: قل يا ابن طلحة، فقال: تالله يا أمير المؤمنين إنّك عهدتّ إلى الحجّاج في ظلمه وغطرسته وتعدّيه، وبعده عن الحقّ وإصغائه إلى الباطل، فولّيته الحرمين، وفيهما من فيهما من أبناء المهاجرين والأنصار وأصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، يسومهم الخسف ويطؤهم بالعسف بطغام أهل الشّام ورعاع لا رويّة لهم في إقامة حقّ، ولا إزاحة باطل فاعزله»[(٣)].

القصّة القصيرة في مصر: دراسة في تأصيل فنّ أدبيّ، ط١، ص ص ١٣-١٤ (المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٩م).

(١) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢٥.

(٢) نفسه، ص٢٢٩.

(٣) نفسه، ص٤٤.

غير أنّ أخبارا أخرى تثبت صلاح حاشية الخلفاء الأمويّين وإخلاصها لصاحب السّلطة من ذلك خبر: «قيل لما تفرق الأمر عن مروان الجعدي وأيقن بزوال ملكه وغلبه بنو هاشم عليه: قال لعبد الحميد بن يحيى كاتبه: إنّي قد احتجت أن تكون مع عدوّي، وتظهر لهم الغدر فيّ، فإنّ إعجابهم بأدبك وحاجتهم إليك يدعوهم إلى حسن الظنّ بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وألاّ تعجز عن حفظ حرمتي بعد وفاتي، فقال عبد الحميد: إن الّذي أمرتني به أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي، وما عندي إلاّ الوفاء حتّى يفتح الله لك أو أقتل معك»[١].

كما تُحيل بعض الأخبار على صراعات سياسيّة وشخصيّة بين الأمويين والهاشميّين في خبر يقول: «حج هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه، ومعه أهل الشّام فجهد أن يستلم الحجر فلم يقدر من ازدحام النّاس، فنُصب له منبرٌ فجلس عليه ينظر إلى النّاس، فأقبل زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما، وهو أحسن النّاس وجهًا، وأنظفهم ثوبًا، وأطيبهم رائحة، فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر تنحّى النّاس كلّهم له وأخلوا الحجر ليستلمه، هيبة له وإجلالاً، فغاظ ذلك هشام وبلغ منه، فقال رجل لهشام: من هذا أصلح الله الأمير؟ قال: لا أعرفه، وكان به عارفًا، ولكنّه خاف أن يرغّب فيه أهل الشّام ويسمعوا منه، فقال الفرزدق وكان لذلك كلّه حاضرًا: أنا أعرفه فسلني يا شاميّ من هو، قال: ومن هو؟ قال:

[البسيط]

هَذَا الّذي تَعرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطْأَتَه والْبَيْتُ يَعْرِفُه وَالحِلُّ والحَرَمُ»[٢]

، ومنه يُستشف أيضًا تقديس النّاس آلَ البيت وتعظيم رجالاته، وإن لم يمسكوا بزمام الحكم وقتئذ سواءٌ أكانوا أُناسًا عاديّين يوسّعون لهم في الحرم، أم كانوا شعراء مقرّبين من خلفاء بني أميّة مثل الفرزدق يمتدحونهم شعرا.

على أنّ العصر العباسي كان مُحمّلاً أيضًا بالصّراعات القبليّة والفتن المسلّحة الّتي شملت بقاعًا كثيرة ورد ذكرُها في أخبارٍ من قبيل: «وقعت حرب بالبادية واتصلت بالبصرة، وتفاقم الأمر حتّى مشى النّاس في الصّلح بين الحيّين...»[٣]، وهو تأزّم سياسيّ ما انفكّ ينيخ

(١) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٩٤.

(٢) نفسه، ص٨٦.

(٣) نفسه، ص٢٠٨.

ينيخ بكلكله على حياة النّاس، ويُؤثّر فيها أيّما تأثير.

ورغم هذه السّياسات المتوتّرة الّتي شهدها العصر العباسيّ الأوّل فقد أبانت الأخبار عمّن يُقصّر من الخلفاء في أداء الواجب، فيُرخي العنان لأمرائه وعمّاله، فيعبثون بمصالح الرعيّة، مُستغلّينهم استغلالاً فاحشًا، ومُستبدّين بهم أيّما استبداد، ومثاله ما جاء في خبر: «لَمَّا حجّ الرّشيد ورجع قافلاً نزل الأنبار، فدعا صالحًا صاحب المصلّى حين تنكّر على البرامكة فقال له: اُخرج إلى منصور بن زياد فقل له: قد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم فاحملها إليّ من يومك هذا، فإنْ هو دفعها إليك كاملة قبل مغيب الشّمس من يومك هذا وإلاّ فاحمل إليّ رأسه وإيّاك ومراجعتي في شيء من أمره...»[١]، وأيضًا تُلمح هذه الإدارة السياسيّة الشّديدة في خبر آخر: «كان علي بن عيسى ضامنًا أعمال الخراج والضّياع ببلده، فبقيت عليه بقيّة مبلغها أربعون ألف دينار، فألحّ المأمون في اقتضائه إيّاها، ومطالبته بها إلى أن قال لعليّ بن صالح حاجبه: طالب علي بن عيسى بما بقي عليه، وأنظره ثلاثة أيّام، فإن أحضر المال قبل انقضائها وإلاّ فاضربه بالسّياط حتّى يؤدّيَها أو يُتلف...»[٢].

ويُستشفّ أيضًا من بعض الأخبار صراع ديني مُندلع بين النّاس، ومثاله ما جاء في خبر: « لـــمّا احترق المسجد بمصر، ظنّ المسلمون أنّ النصارى أحرقوه، فحرقوا خانًا لهم، فقبض السّلطان على جماعة من الّذين أحرقوا الخان، فكتب رقاعًا فيها القتل، وفيها القطع، وفيها الجلد...»[٣]. وواضح أنّ أمراء الأمصار لا يعدمون غفلة عن هذه الصّراعات الدينيّة بل إنّهم كانوا لا يتورّعون عن المعاقبة عليها بأشدّ العقاب؛ منعًا لتَكرارها أو درءًا لتفاقم أخطارها.

ولعلّ بعض أخبار العصر العباسيّ الأوّل يُومئ إلى الشّورى في الحكم وطلب المشاركة رغم ما يتميّز به خلفاء ذلك العصر من القوّة والحكمة، ومثاله ما جاء في خبر إبراهيم بن المهدي: «فرقّ لي المأمون واستروحت روائح الرّحمة في شمائله، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق المعتصم وابنه العبّاس وجميع من حضر من خاصّته فقال: ما ترون في أمره؟، فكلّ أشار بقتلي إلاّ أنّهم اختلفوا في القتلة كيف تكون، فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟

---

(١) المحسن التَّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٣٨.

(٢) نفسه، ص١٥٦.

(٣) نفسه، ص٤٣.

فقال: يا أمير المؤمنين إنْ قتلتَه وُجد مثلُك قتَل مثلَه، وإن عفوتَ عنه لم تجد مثلك عفا عن مثله...»[١].

وتكتسي الإمامة في بعدها السياسيّ أهميّة كبرى، فقد كشفت بعض أخبار (المستجاد) عمّا كان يجري من تنافس على تولّيها، ومثاله خبر يُورد شكلاً من الصراع المحتدم بين الأمويّين والعلويّين: «كان محمّد بن زيد العلوي الدّاعي بطبرستان إذا افتتح الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السّنة الّتي قبلها، وفرّقه في قبائل قريش على دعوتهم، وفي الأنصار وفي الفقهاء وأهل القرآن وسائر طبقات الناس، إلى أن يفرّق جميع ما بقي فجلس سنةً من السّنين يفرّق مثل ذلك على عادته، فلمّا بدأ ببني عبد مناف، وقد فرغ من بني هاشم، دعا سائر بني عبد مناف، فقام إليه رجل فقال: من أيّ بني عبد مناف أنت؟ قال: من بني أميّة، قال: من أيّهم أنت؟ فسكت، قال: لعلّك من ولد معاوية؟ قال: نعم. قال: أمن أيّهم أنت؟ فسكت، قال: لعلّك من ولد يزيد؟ قال: نعم. قال: بئس الاختيار اخترت لنفسك، من قصدك بلدًا ولايته لآل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيّدهم، وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشّام والعراق عند من يتولّى جدّك ويحبّ برّك [...]، فنظر إليه العلويّون نظرًا شديدًا فصاح بهم محمّد وقال: كفّوا عافاكم الله كأنّكم تظنّون أنّ في قتل هذا دركًا أو ثأرًا للحسين ابن علي، وأيّ جرم لهذا إن الله تعالى قد حرّم أن تُطالب نفسٌ بغير ما اكتسبت، والله لا يعرض له أحد إلاّ أقدته به...»[٢].

وتتّضح العصبيّة القبليّة كذلك في أخبار من قبيل: «اجتمعت وفود العرب عند النّعمان ابن المنذر، فأُخرج إليهم بُرديٌّ محرقٌ، وقال: ليقم أعزّ العرب قبيلة فليلبسها فقام عامر ابن أحيم السعديّ فاتّزر بأحدهما وارتدى الآخر. فقال له النّعمان: لَمَ أنت أعزّ العرب؟ فقال: العزّ والعدّ من العرب في معدّ، ثم في نزار، ثم في تميم، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فلينافرني...»[٣].

وأمّا صراع الأجناس فيكثر في أخبار العصر العباسي ومثاله: «كان الأفشين مبغضًا لأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وحاسدًا له، فحمل نفسه يومًا على قتله واستدعاه

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٧٤.

(٢) نفسه، ص١٤٩.

(٣) نفسه، ص٢٣٧.

باستحثاث وإزعاج، وكان أبو دلف صديقًا لقاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد، فبعث إليه: أدركني فمن أمري كذا وكذا...»[١]، فالأفشين قائد المعتصم الفارسي كان معروفًا بكرهه العربَ ونقمته عليهم، وأمّا العجلي فهو رجل عربيّ، وقد مَثّل صراعه مع الأفشين ضربًا من التطاحن الأجناسي.

وهكذا وظّفت الأخبار في (المستجاد) للدّفاع عن الدّين والمذاهب، وأفصحت عن المضمون المجتمعي الأخلاقيّ، وتجلّت فيها الأبعاد السياسية، ولقد كان من نتائج خضوع الخبر للسّياسة أن تراجعت الوظيفة الفنيّة الإنشائيّة لحساب الوظيفة المعرفية[٢]، ولكن هذا لم يشمل إلاّ القليل من الأخبار، وبشكل تنوب فيه الاستعارةُ العبارةَ غالبًا. ففي أخبار كثيرة تبّوأ الفنّ المقام الأوّل.

ومهما تباينت الحياة السياسيّة وتقلّبت في مختلف الأزمنة فإنّ هذا الوضع السياسيّ لم يكن مقطوعًا عن الحياة الاجتماعيّة. فما خصائص الحياة الاجتماعيّة في أخبار (المستجاد)؟

- البُعد الاجتماعيّ:

يُمثّل الكرم قيمة اجتماعيّة من أهمّ القيم العربيّة السّمحة، ولـــمّا كان موضوعَ المدوّنة الأساسيَّ فإنّ مضامين اجتماعيّة قد هيمنت، علاوة على مقاصد أخلاقيّة ما انفكت تتبلور في أخبار (المستجاد).

وإنّ ما يشدّ الانتباه أنّ التّطاحن الطبقيّ حاضر في المجتمع العربيّ القديم كأشدّ ما يكون، نتيجة انقسام ذاك المجتمع إلى طبقتين اثنتين، طبقة راسخة ميسورة الحال تجمع ما بين المشيخة في العصر الجاهليّ والخلافة والإمارة والوزارة في العصور اللاّحقة، وطبقة أخرى تعاني الحيف والحرمان والخصاصة، وتسعى إلى طلب الغوث من أولئك الميسورين، بل إنّ هذا التوتّر ليُعدّ خصيصة تسم الوضع الاجتماعيّ الّذي اشتملت عليه أخبار (المستجاد)، ذلك أنّ الطبقة الأولى تتمتّع بالثّراء الفاحش وتنعم بمباهج الحياة، ولا سيّما أنّها ازدادت نفوذًا وسيطرة في العصر العباسي، ومصداق ذلك هذا الشّاهد الذي يسوقه راوي التّنوخي، وقد غدا الفرس من برامكة وآل سهل وآل طاهر قوّة ضاربة بيدها النّفوذ والجاه؛ جرّاء استعانة العباسيين بهم

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٤٨.

(٢) الشاذلي البوغالمي، البنية والدلالة في أخبار القاضي التّنوخي من خلال كتابيه، مرجع سابق، ص١٨٢.

في توطيد حكمهم، وكسر شوكة الأمويّين، إذ يقول: «ركب الفضل بن يحيى يومًا من منزله بالخلد يريد منزله بالشماسية...»[١]، وشأن الخبر الآنف هذا الّذي يحتضن وصف مجلس لهو وعبث لوزير هارون الرّشيد جعفر البرمكيّ: «خلا جعفر بن يحيى يومًا في منزله وحضر ندماؤه وكنت فيهم، فتضمّخ بالخلوق ولبس الحرير، وفعل بنا مثل ذلك...»[٢].

وأمّا الطّبقة المحرومة فقد عانت الأمرّين من الفقر في العصر الجاهلي حتّى آثرت الرّحيل عن ديارها كما في خبر: «أصابت بني شيبان سنة أذهبت الأموال، فخرج رجل منهم بعياله حتّى أنزلهم الحيرة، فقال لهم: كونوا قريبًا من الملك يصبكم من خيره، حتّى أرجع إليكم وآلى على نفسه ألاّ يرجع حتّى يكسبهم خيرًا أو يموت...»[٣].

ويُجسّد خبر حاتم الطّائيّ المعيشة الضّنكة الّتي كان عليها المجتمع في العصر الجاهلي، إذْ حدّثت زوجته، فقالت: «أصابت النّاسَ سنةٌ فأذهبت الخف والظلف، فإنيّ وإيّاه ذات ليلة قد أسهرنا الجوع، فأخذ هو عديًّا وأخذت سفانة وجعلنا نعلّلهما حتّى نامَا، ثم أقبل عليّ يعلّلني بالحديث لكي أنام، فرفقت لما به من الجهد فأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت؟ مرارًا فلم أجبه، فسكت ونظر وشقّ الخباء فإذا بشيء قد أقبل فرفع رأسه فإذا امرأة، فقال: من هذا؟ فقالت: أنا يا أبا سفانة أتيتك من عند صِبْيةٍ يتعاوون كالذّئاب جوعًا، فقال: أحضريني صبيانك فوالله لأشبعنّهم، فقالت: فقمت سريعة، فقلت: بماذا يا حاتم؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلاّ بالتعلّل، فقال: والله لأشبعنّ صبيانك مع صبيانها، فلمّا جاءت قام إلى فرسه فذبحها، ثم قدح نارًا فأجّجها ثم دفع إليها شفرة وقال: اِشوي وكُلِي...»[٤].

وإنّ هذا التّباين الطّبقيّ الاجتماعي لكثيرُ الحضور في أخبار (المستجاد)؛ لكونه المهاد الّذي أنهض عليه راوي التّنوخي أخباره ممثّلا في ثنائية رحميّة هي المعوز/ الجواد.

على أنّ اضطراب الأحوال الاِجتماعيّة ولا سيّما في العصر العبّاسي قد أثّر تأثيرا بالغا في تدنّي المستوى الأخلاقيّ بين الأفراد والجماعات، فانتشر الفساد والمجون، ومثاله ما ورد في

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٣٥.

(٢) نفسه، ص١٥٢.

(٣) نفسه، ص٦٦.

(٤) نفسه، ص٧١.

خبر: «فذكر أنّه كان هو وعدّة معه يرتكبون كلّ عظيمة، ويستحلّون كلّ محرّم، وكان اجتماعهم بمدينة أبي جعفر يعتكفون على كلّ بليّة، فلمّا كان في بعض الأيّام جاءتهم عجوز كانت تختلف إليهم للفساد، ومعها جاريةٌ بارعة الجمال...»[١]، فقد انتشر العبث والاستهتار بقيم المجتمع وأهمّها العفّة، وآية ذلك هذا الخبر: «خرجتُ في بعض اللّيالي السّود فإذا بجارية كأنّها صنم، فراودتها عن نفسها، فقالت: يا هذا ما لك زاجرٌ من عقل إذا لم يكن لك زاجرٌ من دين؟...» [٢].

ولا تخلو أخبار (المستجاد) من ذاك التّشاحن العرقيّ من قبيل: «لـــمّا احترق المسجد بمصر، ظنّ المسلمون أنّ النّصارى أحرقوه، فحرقوا خانًا لهم، فقبض السّلطان جماعة من الّذين أحرقوا الخان، فكتب رقاعًا فيها القتل، وفيها القطع، وفيها الجلد...»[٣].

وأمّا حضور المرأة بوصفها عنصرا أساسيًّا في المجتمعيْن الجاهليّ والإسلاميّ فإنّه يظلّ حضورا مُهمًّا في (المستجاد)، حسبي خبرُ زوجة حاتم الطائي في الجاهلية وهي تتحدّث عن عجائب بعلها وغرائبه: «قلت لماوية: يا عمّتاه حدّثيني ببعض عجائب حاتم، فقالت: كلّ أمره عجب فعن أيها تسأل؟...»[٤]، وشأن ماوية زوجة حاتم شأن أمّ المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها في خبر: ((بلغنا أن عبد الرّحمن بن عوف قدمت عليه عِيرٌ من اليمن. فضجّت المدينة ضجّة واحدة، فقالت عائشة: ما هذا؟ فقيل لها: عِيرٌ قدمت لعبد الرّحمن، قالت: صدق الله ورسوله، فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها فقالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنّي رأيت الجنّة، فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلونها سعيًا ولم أر أحدًا من الأغنياء يدخلها معهم إلاّ حبْوًا، فقال عبد الرحمن: إنّ العير وما عليها في سبيل الله وإن أرقّها أحرارٌ لعلّي أن أدخلها معهم سعيًا))[٥].

وقد مثّلت شهامة (الخيزران) زوجة المهديّ وكرمها مع (مزنة الأموية) مدار الحديث في

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠٥.

(٢) نفسه، ص١٨٧.

(٣) نفسه، ص٤٣.

(٤) نفسه، ص٧١.

(٥) نفسه، ص١٥.

خبر: «كنت آلف زينب بنت سليمان...»[١]، وفي سياق الخبر ذاته يتجلّى كرم (زينب بنت سليمان) في منحها جاريتها[٢]، بل إنّ أخبارا جمّةً لا تخلو من وعظ وإرشاد، ومنها خاصّة ما دار بين (معاوية) وابنه (يزيد) حول مسألة الحُكم[٣].

وإذْ أشار التَّنوخي في بعض أخباره إلى ظواهر اجتماعيّة وأخلاقيّة سادت عصورا مختلفة فإنّه تطرّق أيضًا إلى بعض الملامح الثقافيّة الّتي شهدها العصر العباسيّ الأوّل نتيجة كونه أكثر العصور حضورًا في أخبار المدّونة، فما أهمّ خصائص الحياة الثقافيّة في أخبار (المستجاد)؟

- البُعد الثقافيّ:

يختلف مستوى الشخصيّات الثقافيّ في (المستجاد) باختلاف عصورها التاريخيّة، فينجم عن ذلك تباينٌ واضح في سلوكها ومواقفها، إلاّ أنّ الأخبار قد أحالت على مظاهرَ ثقافيّةٍ ساهمت في انتشارها زمنئذ، مجالسُ الملوك في الجاهليّة من قبيل (النّعمان بن المنذر)، أو الخلفاء في العصور اللاّحقة مثل (معاوية بن أبي سفيان) وخلفاء بني العباس، وقد ساعد ذلك كلّه في تطوير مختلف مجالات الحياة الفكريّة والأدبيّة، بل لعل السّبب في ذلك عائدٌ أيضًا إلى أنّ الملوك والأمراء قد جعلوا من بلاطاتهم قبلة الفلاسفة والشّعراء والأدباء واللّغويّين، وكأنّهم يتقصّدون بذلك ضربًا من الشرعيّة توفّره الثّقافة؛ ليكون بديلاً عن الشرعيّتين الدّينيّة والسياسيّة اللّتين كانتا مفقودتين»[٤]، وإذْ تضمّنت أخبار شتّى في المدوّنة وُجوهًا مختلفة مِمّا كان يجري في تلك المجالس فإنّه حسبي منها ما ورد في فاتحة خبر: «تذاكر جلساء معاوية في حضرته يومًا أشراف النّاس، وذوي الوجاهة والبيوت الجليلة...»[٥].

وعلاوة على الأحاديث العامّة الّتي يعجّ بها ملفوظ (المستجاد) يُتبيّن احتفاءُ المجالس الأدبيّة بالشّعر الّذي لا ينفكّ يشدو به خلفاء مثقّفون على غرار الرّشيد في هذا الخبر:

---

(١) نفسه، ص٢١.

(٢) انظر مزيد تفصيل لدى: أحمد عبد الكريم الملقي، المرأة في أدب القاضي التَّنوخي: دراسة في الرؤيـــة والتـــشكيل، ص١٠٦ (رسالة ماجستير، إشراف ياسين خليل عايش، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٥م).

(٣) نفسه، ص٢٦.

(٤) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط٣، ج١، ص ص ٩٤-٩٥ (دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت).

(٥) المحسن التَّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٩٣.

«دخل يزيد بن مزيد على الرّشيد فقال له: يا ابن مزيد من الّذي يقول فيك: [البسيط]

لا يَعبَقُ الطيبُ خَدَّيــه وَمَفرِقَــهُ وَلا يُمَسّحُ عَينَيه مِــنَ الكُحُــلِ

قَد عَوَّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وَثِقنَ بِهــا فَهُنَّ يَتبعنَــهُ في كُــلِّ مُرتَحَــلِ

فقال: لا أعرف قائلَه يا أمير المؤمنين، فقال له هارون: أيقال فيك مثل هذا الشّعر ولا تعرف قائله؟ فخرج من عنده خجِلاً...»[١]، وهو ما يؤكّد أن التَّنوخي لم يشذّ عن تصوّر الأدباء القدامى في اعتبار حضور الشّعر في النصّ النثريّ من مظاهر الأدبيّة، فقد حفلت به أخبارُ (مُستجادِه).

وقد تمثّل الخلفاء بالشّعر في كثير من مجالسهم مثل خبر: «دخل سعيد بن خالد على سليمان بن عبد الملك، وكان رجلاً جوادًا، فإذا لم يجد شيئًا كتب لمن يسأله الصكاك على نفسه حتّى يخرج عطاؤه، فلمّا نظر إليه سليمان تمثّل بهذا البيت: [الكامل]

إِنِّي سَمَعَتُ مَعَ الــصَّبَاحِ مُنَادِيًــا يَا مَنْ يُعِينُ عَلَى الْفَتَى الْمِعْــوَانِ

ثم قال: حاجتك؟ قال: ديْني، قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: لك ديْنك ومثله»[٢].

وحين يُنعِم المرءُ النّظرَ في أخبار (المستجاد) يُتبيّن توفّر بعضها على ظواهر ثقافيّة متعلّقة بالطبّ مثلاً، إذ يسوق راوي التَّنوخي خبرًا للخليفة (المأمون) ليس بالقصير يدلّ على انتشار أديرة خاصّة بالمجانين في الدّولة الإسلاميّة، وكان أحد هذه الأديرة مسرحًا لخبر: «حُكِيَ عن المأمون أنّه قال: حججت فلمّا صرت بصُورَ أحببت أن أدخل دير المجانين فأرى من فيه منهم...»[٣].

وإذا كانت تلك بعض خصائص الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة كما تبلورت في أخبار (المستجاد) فهل يمكن الجزم بوثائقيّة العيّنة الّتي عرضها التَّنوخي في مدوّنته؟

ما من شكّ في أنّ صورة المجتمع في (المستجاد) لا تعكس الواقع كما هو، ولا هي أسيرة له، بل لعلّها انعتقت منه في بعض الأخبار؛ لأنّ الخبر شكلاً أدبيًّا إنْ هو إلاّ «خطابٌ

(١) المحسن التَّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠٠.

(٢) نفسه، ص١٧٥.

(٣) نفسه، ص٢٣٠.

يستعين باللّغة، واللّغة على دقّتها قاصرة عن إخراج الموجودات على نحو موضوعيّ»[١]، فهي لذلك لا تعدو أن تكون إخبارا مّا عن الواقع مظروفًا بحضوره في وعي الكاتب[٢]، فلكلّ مؤلِّف رؤيته الذّاتيّة عن الواقع، حتّى إنّها لتبدو في الغالب الأعمّ رؤية مضمّخةً آيديولوجيًّا.

ولعلّ السّؤال الّذي لا يفتأ يخامر الذّهن هو: كيف كانت علاقة الخبر الأدبيّ بالآيديولوجيا في كتاب (المستجاد)؟

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٥٩٣.

(٢) الشاذلي البوغالمي، البنية والدلالة في أخبار القاضي التَّنوخي من خلال كتابيه، مرجع سابق، ص١٦٦.

المبحث الثالث: القيمة الآيديولوجيّة:

تنطوي مسألة علاقة الأدب بالآيديولوجيا على قدر كبير من التّعقيد، لما تقتضيه من تذليل صعوباتٍ جمّة، منها ما له صلةٌ بتحديد مفهوم الآيديولوجيا، ومنها ما يرتبط بأشكال حضورها صلبَ النصّ، ومنها ما يتعلّق بجنس الخبر في حدّ ذاته ضمن مسيرة الأدب العربيّ[١].

وأمّا عن إرساء تعريف مضبوط للآيديولوجيا فإنّ ذلك لأمرٌ مُستعصٍ حقّا، بحكم أنّ الآيديولوجيا مفهومٌ اجتماعيّ- تاريخيّ يحمل في طيّاته تراكم معانٍ حافّة عديدة شأنه شأن مفهوم الحريّة والمادّة والإنسان[٢]، غير أنّه يُقصد بالآيديولوجيا في هذا المبحث هو المعنى الذي أرصده لها (كارل ماركس) حين عدّها نظامَ أفكار وتمثيلات يُهيمن على أذهان أفراد أو مجموعة اجتماعيّة[٣]، وبالتّالي، فإنّ ذلك يستدعي بالضّرورة تحسّس علاقة أخبار (المستجاد) ببعض مظاهر المنظومة الفكريّة السّائدة في القرن الرّابع للهجرة، وإماطة اللّثام عن مقاصد التّنوخي من أخباره تلك.

وأمّا عن أشكال حضور الآيديولوجيا في النّصوص فهي عقبةٌ أخرى كَأْدَاءُ، فإذا كان من اليسير تجلية الآيديولوجيا في بعض الأخبار فإنّه قد يتعذّر رصدُها في أخبار أخرى؛ لكونها وردت مُلاَوِصةً (مقنّعة)[٤].

في حين أنّ النّظر في ما يتعلّق بجنس الخبر في حدّ ذاته ضمن مسيرة الأدب العربيّ فإنّه عبارة عن «وحدات سرديّة مُستقلّة تتميّز بحركيّتها وقدرتها على الانتماء إلى مجموعات متنوّعة»[٥]؛ لذلك، يمكن للخبر الواحد أن «يُقتطع من سياقه، فيدرج في سياق آخر جديد

---

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص ص ٦٤٢-٦٤٤.

(٢) عبد الله العروي، مفهوم الآيديولوجيا، ص١٢٧ (دار التنوير والمركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٨٤م).

(٣) ألتوسير، الآيديولوجيا والأجهزة الآيديولوجية للدّولة نقلاً عن كتاب (الخبر في الأدب العربي) لمحمد القاضي، مرجع سابق، ص٦٤٣.

(٤) تحدّث محمد القاضي عن ظهور آيديولوجيا سافرة في بدايات التّأليف في فنون الأخبار، ثمّ سرعان ما تحوّلت مع تطوّر هذا الفنّ إلى آيديولوجيا مُقنّعة، حيث يعمد المؤلّف إلى دسّ مفاهيمه الآيديولوجيّة بطريقة مُلاوِصَةٍ. انظر مزيد تفصيل لدى: محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦٤٥.

(٥) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦٤٤.

[...]، ومن شأن ذلك أن يجعله متذبذبًا متقلقلاً، فيكفي وقتئذ الاقتصار على وضع اسم محلَّ اسم، أو نهاية محلّ أخرى حتّى يتغيّر المدلول الآيديولوجيّ للخبر»[١]، وهذه عقبة ثالثة تعترض سبيل الباحث في قيمة الأخبار الآيديولوجيّة.

بيد أنّ تلك العقبات لا يمكن أن تحول دون إمكانيّة استكشاف بعض ملامح الآيديولوجيا العربيّة الإسلامية بوصفها مُكوِّنا مُهمًّا من مُكوّنات الأخبار الأدبيّة، وقد تتجلّى ناصعةً في جوانبَ مختلفة منها الدّيني والأخلاقي والاستراتيجي – الفكري، فكيف تبدّت هذه الأبعادُ في أخبار (المستجاد)؟

١- الجانب الدّيني:

يُمثّل الدّين أهمّ أشكال الآيديولوجيا الثّاوية في الأخبار، فالخبر ذاته قد انحدر من رحم الأحاديث الدينيّة إلى مجال الأدب، وأمّا العلاقة في حدّ ذاتها بين الدّيني والسّرديّ في تاريخ الثّقافة العربيّة الإسلاميّة فماثلة في الموروث؛ لاشتمال القصص على المقولات الدينيّة.

وقد كان القصّ في المنظور الدّيني ممارسةً وعظيّة تذكيريّة، لذلك تمّ توظيفه لخدمة الدّين، فتقلّد القاصّ دور المدافع عن العقيدة، وأمّا عن رسوخ المقولات الدينيّة في الموروث القصصيّ العامّ فحدّثْ ولا حرج، إذ الشّواهد تكاد تنأى عن الحصر، حسبي منها الإشارةُ إلى دور القُصّاص والوُعّاظ والمُذكّرين الّذين مثّلت حركتهم «رافدًا رئيسًا ساهم في إنتاج جزء كبير من مدوّنة القصص القديم، وهو القصص الدّيني الّذي يحوم أساسًا حول حياة الرّسل والأنبياء، وخلق العالم ونهايته»[٢].

ولعلّ ما تضمّنه (المستجاد) يشهد عمّا سبق ذكرُه، فقد كان للقرآن حضورٌ في نصوص أخباره بيّنٌ، حتّى إنّ راوي التّنوخي قد كان حريصًا على التّذكير بخبر: «نوم علي بن أبي طالب على فراش النبيّ ﷺ لما اجتمعت قريش على قتله يفديه بنفسه ويُؤثره بالحياة». وقد فصّل القول في ما أوحى به الله تعالى إلى جبريل وميكائيل [٣]، وما من شكّ في أنّ محاولته

(١) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦٤٤.

(٢) فرج بن رمضان، محاولة في تحديد وضع القصص في الأدب العربي القديم، العدد ٣٢، ص٢٥٣ (حوليات الجامعة التونسية، ١٩٩١م).

(٣) انظر تفصيله لدى: المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص١٠.

الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾[١]، إنّما يقيم الحجّة على أنّ التّنوخي نفسه كان مُتأثّرا في هذا التّخريج بخطاب إخباري يتّسم بمسحة شيعيّة لا تخلو من ثناء على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ومديح مفرد له ولما يمثّله.

زد على ذلك توفّر أخبار (المستجاد) على ملمح آخر من ملامح الآيديولوجيا في بُعدها الدّينيّ وهو هيمنة الأدعية، ومثاله ما جاء في خبر: «قال: إنّني لما صلّيت، فكّرت واستحييت من ربّي أن يراني طالب رزق من عند غيره، ثم قال: اللهمّ رازق ابن عامر ارزقني من فضلك...»[٢]، ويتّضح ذلك في خبر آخر يقول: «فقال له: يا ابن عمّ رسول الله إنّه ولد لي هذه اللّيلة مولود، وإني سمّيته باسمك تبرّكًا به، وإنّ أمه قد ماتت، فقال عبد الله: بارك الله لك في الصّبية وأجزل لك في الصّبر على المصيبة...»[٣].

وإذا تجاوزتَ الأدعية ألْفيتَ أنّ بعض الأخبار تشتمل على الفتاوى الفقهيّة، ومنها على سبيل الذّكر لا الحصر: «فقال له المنصور: قد رُفع إلينا خبر الودائع والأموال الّتي عندك لبني أمية فأخرج إلينا منها، فقال: يا أمير المؤمنين أوارثٌ أنت لبني أمية؟ قال: لا، قال: فوصيّ لهم في أموالهم ورباعهم؟ قال: لا، قال: فما مسألتك عمّا في يديَّ من ذلك؟ فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه إليه وقال: إنّ بني أميّة ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقّهم، وأريد أن آخذ ما ظلموا فيه المسلمين فأجعله في بيت مالهم، قال: يا أمير المؤمنين تحتاج إلى إقامة البيّنة العادلة على أنّ ما في يدي لبني أميّة ممّا خانوا وظلموا فيه دون غيره، فقد كان لبني أميّة أموال غير أموال المسلمين...»[٤].

ومن ملامح الآيديولوجيا في مظهرها الدّينيّ أيضًا حضور المذاهب ولا سيّما في الأخبار الخاصّة بالعصر العباسيّ، فقد كان «ظهور الفرق الدينيّة والسياسيّة منذ أواسط القرن الأوّل للهجرة حافزًا على انتشار الأخبار الّتي اتّخذتها كلّ فرقة سلاحًا تبرز به صحّة مبادئها، وتطعن على خصومها، وتبيّن جهلهم وضلالهم عن سواء السّبيل»[٥].

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٤٤.

(٣) نفسه، ص١٨٧.

(٤) نفسه، ص١٨٤.

(٥) محمد القاضي، الخبر في الأدب العربي، مرجع سابق، ص٦٥٣.

وترد الآيديولوجيا المذهبيّة على مستويات عديدة، حيث تفضح بعض الأخبار انتماء التّنوخي الآيديولوجي، مشيرةً إلى إعجابه بالإمام أبي حنيفة، والأدلّة على تحنّفِ التّنوخي تنأى عن الحصر، حسبي منها إيرادُه خبرًا يُوضح فيه سماحة الشّيخ ورحابة صدره: «ذكر الأصمعي قال: كان لأبي حنيفة القاضي جار بالكوفة يغني، فكان إذا انصرف وقد سكر يغنّي وهو في غرفته فيسمعه أبو حنيفة فيعجبه، وكان يكثر أن يغنّي هذا البيت من الشّعر: [الوافر]

أضـــاعُوني وَأيَّ فَتًـــى أضـــاعُوا لِيَـــومِ كَرِيهَـــةٍ وَسِـــدادِ ثَغـــرِ

فلقيه العسس ليلة فأخذوه وحبسوه، ففقد أبو حنيفة صوته تلك اللّيلة فسأل عنه من غد فأُخبر أنّه حُبس، فدعا بسواده وطوليّته فلبسها وبكر إلى عيسى بن موسى، وقال: إنّ لي جارًا أخذه عسسُك البارحة وحُبس، وما علمتُ فيه إلا خيرًا، فقال عيسى بن موسى سلّموا إلى أبي حنيفة كل من أخذه العسس اللّيلة، فأُطلقوا جميعًا، فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة ثمّ قال له سرًّا: ألست كنت تغنّي يا فتى كلّ ليلة: أضاعوني وأيّ فتى أضاعوا، فهل أضعناك؟ فقال: لا والله أيّها القاضي، ولكن أحسنتَ وتكرّمت أحسن الله جزاءك، قال: فعد إلى ما كنت تغنّيه فإنّي آنس به و لم أرى (كذا!) به بأسًا، قال له: افعل»[(١)].

على أنّ التّنوخي لا يخفي انحيازا إلى العلوّيين، ففي أخبار أوردها عنهم، يُلمَح تعلّقه بهم بل تشيّعه لهم، من ذلك خبر: «حجّ هشام بن عبد الملك في خلافة الوليد أخيه ومعه أهل الشّام»[(٢)]، وقد تمّ به الاستدلال في ما سبق.

وتتّضح الآيديولوجيا المذهبيّة بشكل لافت للانتباه في تصوير التّنوخي الاِضطهادَ السياسيّ الّذي عانت منه مختلف الفرق، فقد أورد راويه في أكثر من خبر مظاهر تنكيل الخلفاء بمن يخالفونهم، ومنها خبر: «أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة كانوا قد رموا بالزندقة عنده فحملوا (...) فأمر بضرب أعناقهم، فاستدعوا بأسمائهم رجلاً رجلاً، فكل من دعا سأله وأمر بضرب عنقه...»[(٣)]، وكذلك خبر: «نذر المهديّ دم رجل من أهل

(١) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٢١٨.

(٢) نفسه، ص٨٦.

(٣) نفسه، ص٥٣.

الكوفة كان يسعى في فساد دولته، وجعل لمن دل عليه أو جاء به مائة ألف درهم...»[١]، ويظهر الاضطهاد جليًّا كذلك في خبر: «لما سعى غلام خليل بالصّوفية إلى الخليفة بالزندقة أمر بضرب أعناقهم، فأمّا الجنيد فإنّه تستّر بالفقه، وكان يفتي على مذهب أبي ثور، وأمّا الشحّام والرقّام والثّوريّ وجماعة فقبض عليهم وبُسط النّطعُ لضرب أعناقهم...»[٢].

٢- الجانب الأخلاقي:

إنّ حضور (الكرم) بوصفه قيمةً أخلاقيّة إنّما يُمثل السبب الجوهريّ الّذي من أجله أُلّف (المستجادُ)، وإنّ مدار هذه القيمة المثلى- بلا أدنى شكّ - على البذل والعطاء اللّذين يُمتدح بهما الإنسان الحقيقيّ، فقد حثّ عليهما الدّين الحنيف لاحقًا، كما انطوت الأخبار على استحضار الرصيد الأخلاقي الّذي على أساسه تنتظم حياة الأفراد داخل الجماعة، ومنها قيمة حفظ السرّ وكتمانه، باعتباره سبيلاً به يتحقّق الجود المعنويّ، من ذلك ما أورده راوي التّنوخي على هذا النّحو: «أراد الوليد ين يزيد الحج، فاستعدّ قوم من وجوه الشام أن يثبوا به، فأتوا خالد بن عبد الله القسري ليكون معهم فأبى عليهم، قالوا: فتكتم علينا، قال: أمّا هذا فنعم، فمشى خالد القسريّ إلى خالد بن الوليد بن يزيد فقال له: قلْ لأمير المؤمنين يدع الحجّ عامه هذا، فقال: ولم؟ قال: أخاف عليه، فأعلم خالد أباه فأحضره، وقال: أحقًّا ما يقول خالد عنك يا خالد؟ قال: نعم. قال: أعدْ عليّ، فأعاد قوله، فقال: ومنْ هؤلاء الّذين تخافهم عليّ فسمِّهم؟ قال: لا أفعلُ، قال: لتقولنَّ، قال: لا أقول، قال: إذًا أبعث بك إلى يوسف بن عمر، قال: وإنْ فعلت، فبعث به إلى يوسف فعذّبه إلى أن مات، ولم يسمّ القوم ولا أحدًا منهم»[٣].

وتحضر كذلك قيمةُ الصّدق وكرم الأخلاق في خبر خزيم بن أبي يحيى المزني: «أنّ الرّشيد دعاه يومًا ليأكل معه، فلمّا توسّط الأكل رفع رأسه إلى رجل يكلّمه بالفارسيّة، قال فقلتُ: يا أمير المؤمنين إنْ كنت تريد أن تسر إليه فإنّي أفهم الفارسيّة، فأمرني أن أتنحّى، ليتقدّم إليه بما يريد، فأعجب الرّشيدَ كرمُ أخلاقه وصدقُه وخاطب ذلك الرّجل سرًّا بما أراد،

(١) نفسه، ص٢٠٠.

(٢) المحسن التّنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٤٣.

(٣) نفسه، ص١٨١.

وأمر لخزيم بصلة سَنِيّة»[١].

ومثلما سلّط التّنوخي الضّوء على أخلاقيّات الفرد الحسنة فإنّه اعتنى أيضًا ببعض الأخلاقيّات القبيحة التي تعكس آفاتٍ سلوكيّةً من قبيل التطفّل في خبر: «أمر المأمون أن يُحمل إليه من أهل البصرة عشرة كانوا قد رموا بالزّندقة عنده فحملوا، فبينما أحد الطفيليّين يرتاد إذ رآهم مجتمعين يُمضَى بهم إلى السّاحل للمسير إلى بغداد، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلاّ لوليمة، فانسلّ معهم ودخل في جملتهم، ومضى بهم الموكلون إلى البحر...»[٢].

خاتمة الفصل:

يمكن القول في نهاية هذا الفصل: إنّ القيم التي تجاذبت الأخبار في (المستجاد) تنوّعت، فراوحت بين قيمة أدبيّة تعتبر الأهمّ؛ لكونها مُرصدةً تارة للخبر، وطورًا لسنن التأليف، وأحيانا أخرى للعدول عن تلكم السّنن، وقيمة مرجعيّة لا تقلّ أهميّة عن سابقتها تستشفّ من خلال أبعاد سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة انطوت عليها تلكم الأخبار، ومثّلت خلفيّة تاريخيّة بالنّسبة إلى العصور التي كانت الأخبار شاهدة عليها، وقيمة آيديولوجيّة ثالثة وُظّفت من حيث الجانبان الدّيني والأخلاقي.

(١) نفسه، ص١٨٠.

(٢) المحسن التنوخي، المستجاد من فعلات الأجواد، مصدر سابق، ص٥٣.

الخاتمة

يجدر إثر إدراكي من بحثي هذه الدّرجة أن ألتفت إلى ما أنف بيانُه، فأقوّم ما توصّلت إليه من نتائجَ، ولـــمّا كان القصدُ من عملي مُقاربة موروث قصصيّ عربيّ تليدٍ قصد الوقوف على ما به يتميّزُ فإنّني جنحت إلى التوسّل بمنجز نظريّ غربيّ؛ بغية اعتماده مدخلاً يعين منهجيًّا على تحليل نصّ تحليلاً سرديًّا؛ لذلك، وجّهت نظري شطر استجلاء خصائص أخبار (المستجاد من فعلات الأجواد) من حيث مستوياتٌ ثلاثةٌ، هي الكون الحكائيّ والخطاب القصصيّ والدّلالة، مُستعينة في ذلك بما بلوره (تزفتان تودوروف)، و(رولان بورنوف)، و(رِيَالْوُولّي)، وفي مستوى الخطاب القصصيّ بما أرساه (جيرار جونات).

وقد أقمت البحث على مُقدّمة، وتمهيد، وفصول ثلاثة، ركّزت في التّمهيد على معنى البنية لغةً واصطلاحًا، ثم جوّدتُ النّظر في الدّلالة بشقّيها اللّغويّ والاصطلاحيّ، ثم عرّفتُ بالخبر الأدبيّ الّذي هو مدار البحث، وتفحّصت ما أسهم به النقّاد العرب من دراسات فيه.

وكان لا بدّ من تدبّر سيرة التّنوخي الذاتيّة بوصفه صاحب المدوّنة، وتتبّع مختلف التأثيرات الّتي كانت وراء تأليفه كتابَه، ثم تناولتُ وصف مُصنّف (المستجاد)، وأجليت ما به يختصّ.

وأمّا في الفصل الأوّل فاعتنيتُ بالكون الحكائيّ من خلال مبحثين اثنين، خصّصتُ الأوّل للوقوف على البنية الإطاريّة، فدرست فيها الإسناد والمتن، ثمّ اهتممتُ في المبحث الثّاني بالبنية القصصيّة، ففرّعته إلى مطالبَ أربعةٍ، هي الوقائع وما تشتمل عليها من عناصر وسمات مشتركة بين سائر الأخبار، والشخصيّات فدرست سماتها ووظائفها، وختمتُ الفصل بدراسة أصناف الأزمنة والأمكنة.

وأمّا الفصل الثّاني فكان مدارُه على مكوّنات الخطاب القصصيّ، وقد ضمّ مباحث ثلاثة، أرصدتّ الأوّل منها للزّمن القصصيّ، وركّزتُ فيه على دراسة الترَّتيب المستخدم في نصوص أخبار المدوّنة، والسُّرعة وفق حركاتها السَّرديّة البارزة وهي (الإضمار، والمجمل، والمشهد)، ثمّ تعرّضت للتّواتر بأنواعه. وفي المبحث الثّاني درست الصّيغة فخصصت أساليب القصّ وهي السّرد، والحوار، والوصف بعناية، واهتممت بضروب الخطاب الّتي يستخدمها الرّاوي في نقله كلام الشخصيّات، وهي (الخطاب المباشر- والخطاب غير المباشر- والخطاب

المرويّ)، وركّزتُ على وجهة النَّظر، ففصّلت القول في ذاتي التبئير وهما (الشَّخصيّة، والرّاوي)، وسعيتُ إلى إظهار طبيعة العلاقة التي تربط بينهما، دون أن أنسى الاهتمام بوظائف كليهما. وأمّا ثالث المباحث فكان مدارُه على الصّوت السرديّ، فتناولت فيه زمن السّرد، وعرّجتُ على عوني السّرد وهما (الرّاوي، والمرويّ له)، ففي الرّاوي درستُ مستوياته وعلاقاته ووظائفه، وأمّا في المروي له فتطرّقتُ إلى علاماته النّاطقة والصّامتة علاوة على أصنافه ووظائفه.

ثمّ ولّيتُ وجهي شطرَ الفصلِ الثّالث المتعلّق بالدّلالة، فحاولت فحص القيم الّتي مَنحت نصوص (المستجاد) مضمونها ووظيفتها الأدبيّة والتاريخيّة، فانشغلتُ في المبحث الأوّل بقيمة الأخبار الأدبيّة، وفي الثّاني بالقيمة المرجعيّة، ثمّ ختمتُ الفصل بالقيمة الآيديولوجيّة.

وعند استصفاء أبرز النّتائج التي انتهى إليها البحثُ يُتبيّن:

- أنّ الخبر الأدبيّ شكلٌ من أشكال السّرد القديم ينهض مؤلّفه بهمّ الإمتاع والتأثير في المتلقّي؛ حرصًا على إيصال المعلومة إليه.
- أنّ كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد) رغم كونه أصغر كتب التَّنوخي حجمًا فإنّ حكاياته لتبدو أطول الحكايات؛ لذلك، اعتبرتْ بحقٍّ مجالاً خصبًا لتناول جوانب أدبيّته، ومقاربة إبداعه الفنّي القصصيّ.
- أنّ قوام بنية الخبر الأدبيّ مكوّنان أساسيّان، وهما: السّند، والمتن. وأمّا الإسناد فإنّ التَّنوخي مؤلِّفا راوح فيه بين ما عرف به المحدِّثون من التزام به وبين التخفّف منه، فأخرجه مخرجًا جديدًا يساير ظاهرة الأدب الإبداعيّة التخييليّة. على أنّ الوظائف التي اضطلعت بها تلكم الأسانيد إنّما تُحوم حول قطبين أساسيين: الأوّل منهما واقعيّ تاريخيّ، والثّاني أدبيّ فنيّ. بينما تفاوتت متون الأخبار طولاً وقصرًا، إلاّ أنّ الإيجاز كان هو الغالب عليها، كما أنّ وظائف المتون تنوّعت نتيجة تنوّع أحجامها وهيئاتها، ولعلّ الوظيفة الأبرز هي الجماليّة الإمتاعيّة.
- أنّ بُنى الأخبار في المدوّنة متنوّعة، وقد اتّسمت في بنيتها بالبساطة، وهي لذلك، لا تنفكّ تومئ إلى أمر التّأليف الّذي مارسه التَّنوخي في أدب الأخبار.
- على أنّ قيمة الشخصيّات في أخبار (المستجاد) مردّها إلى تنوعّها من حيث سماتُها المختلفة ووظائفها المتنوّعة، وعلاقات فواعلها المتماسكة. وإن تعمّد التَّنوخي في أكثر

الأخبار إسنادها إلى شخصيّات تاريخيّة مشهورة، فإنّه بذلك قد يكون قصد جعل أفعالها تشيع فتُنسب إليها.

- وأمّا الزّمن المهيمن على أحداث الأخبار في (المستجاد) فهو الماضي. حيث يبدو شبيهًا في إطلاقه بما يُستشف في الغالب الأعم في القصص الواقعي التخييلي، إلاّ أنّ أخباره لا تعدم توسّلا بخصائص الزّمن الميقاتي النّاهضة على مدلول الفصول ومواقيت الصلاة لدى المسلمين، على حين أن أشكال الزّمن الكرونولوجي المحتسبة في دقّتها بالثواني والدقائق والساعات تظل غائبة عن إدراك راوي التّنوخي.
- أنّ جلّ الأمكنة قد ساعدت بقسط في بناء الأحداث والكشف عن سمات الشخصيّات وعلاقاتها فيما بينها، بيد أنّها على نسبيّتها ودوران أحداثها في البيوتات والمدن والأسواق، والمساجد والسّاحات تظلّ هي الأخرى ممحّضة للإطلاق شأنها شأن الزّمن.
- كما أنّ ترتيب أحداث الأخبار في (المستجاد) ترتيبٌ تعاقبيّ، غير أنّ الراوي لم يُهمل المفارقة الزمنيّة القائمة على تقنيّتي الارتداد والاستباق في بعض الأخبار، وإن ظلّ حضورها منحسرًا.
- أنّ السّرعة، قد عوّل فيها على الإسراع مُستخدمًا غالبًا الإضمار والمجمل، بينما في الإبطاء توسّل في سرده بالمشهد.
- وأمّا التواتر، فقد نوّع فيه، ولئن استبدّ القصّ الإفراديّ بالحضور فإنّ التأليفيّ هو الآخر متوفر توفر التّكراريّ.
- وأمّا عن أساليب القصّ فقد اتّضح فيها التّناوب على أشدّه بين السّرد والحوار، على حين أنّ الوصف في المدوّنة يظلّ ذا حضور محتشم.
- كما أنّ الكيفيّة التي بها نقل الرّاوي كلام الشخصيّات، فإنّ الخطاب المرويّ هو الّذي استأثر بالنّصيب الأوفر من الحضور، وقد يُعزى ذلك إلى طبيعة الأخبار أساسًا في كونها مجرّد سرد شفويّ، ثم يليه الخطاب المباشر، ولعلّ الرّاوي تخيّره بغية تأكيد حياده في النقل وموضوعيّته، ولا سيّما أنّ أخبار (المستجاد) في الغالب ذات محتوًى تاريخيّ، لكنّ راويها مع ذلك لم يبخس الخطاب غير المباشر حضورًا، وإنْ بدرجة أقلّ.
- وأمّا وجهة النّظر، فإنّ نمط الرّؤية من الخلف هو النّمط الأكثر توظيفًا في المدوّنة.
- وأنّ عوني السّرد وهما (الرّاوي، والمروي له) قد تعدّدت علاماتهما وأصنافهما ووظائفهما

في الأخبار.

- وردت الأخبار مشحونة بالدلالاتِ، فقد حرص التَّنوخي من خلالها على تجلية قيم أدبيّة ومرجعيّة، وآيديولوجيّة مخصوصة، تاركًا مجال التّفسير والتّأويل لمتلقّيه.

وإنّي في النّهاية لراغبة في التّذكير بأمر مهمّ وهو أنّ كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد) للتَّنوخي إنّما ينطوي على أخبار جمّة ذات منحًى حكائيّ ينصهر فيه ما هو واقعيّ بما هو تخييليّ، وهو بالتّالي، يبقى مصدرا للثقافة لا يُستهان به، بل محطّة مهمّة في مسيرة أدب التَّنوخي؛ وهو لذلك، جديرٌ بأن ينال حظّه من العناية الّتي حُرم منها أو كاد، ولا سيّما في الدّراسات التي خاضت في أدب التَّنوخي السرديّ.

على أنّ هذا البحث لا يدّعي مُطلقا أنّه دراسةٌ مُستفيضةٌ للخبر الأدبيّ بقدر ما هو محاولة تدبّر هذا الموروث من حيث بنيتُه ودلالتُه، ومحاولة تجلية ما به يتميّز من اقتدار على استيعاب مختلف الاتّجاهات والمناهج الحديثة، واستخلاص بعض سماته انطلاقًا من كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد للتَّنوخي).

وبعد فإنّي لا أتمنّى –ما دام التمنّي في حقيقته طلب المستحيل– وإنّما لأرجو أن أكون وفّقتُ إلى ما قصدتُّ، والحمد لله أوّلاً وآخرًا.

الفهارس الفنية للرسالة

وتشتمل على الفهارس الآتية:

١) فهرس المصادر والمراجع.

٢) فهرس الموضوعات.

مصادر والمراجع

١- المصادر:

- القرآن الكريم.
- التَّنوخي (أبو علي المحسن بن علي)، (المستجاد من فعلات الأجواد)، تحقيق: محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ومطبعة الترقي، دمشق،١٩٤٦م.

٢- المراجع العربية:

- إبراهيم (عبد الله)، المتخيّل السّردي، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٩م.
- إبراهيم (عبد الله)، النثر العربي القديم: بحث في البنية السردية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ط١، الدوحة، ٢٠٠٢م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمّد)، مقدّمة ابن خلدون، تحقيق: سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، ٢٠١٣م.
- ابن رمضان (فرج)، الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، دار محمّد علي الحامّي للنشر، ط١، تونس، ٢٠٠١م.
- أمين (أحمد)، ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، (د. ت).
- بحراوي (حسن)، بنية الشَّكل الرّوائي (الفضاء- الزَّمن- الشَّخصية)، المركز الثَّقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.
- بغورة (الزواوي)، المنهج البنيوي: بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى للنشر والطباعة، ط١، الجزائر،٢٠٠١م.
- التَّنوخي (أبو علي المحسن بن علي)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت،١٩٧١م.

- التهانوي (محمّد علي)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، د. ت.
- حسين (طه)، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ١٩٥١م.
- الخبو (محمّد)، الخطاب القصصِيّ في الرّواية العربية المعاصرة، مكتبة علاء الدّين، ط١، صفاقس، تونس، ٢٠١٤م.
- الخبو (محمّد)، قراءات في القصص، مكتبة علاء الدّين، ط١، صفاقس، تونس،٢٠٠٢م.
- الخبو (محمّد)، والعمامي (محمّد نجيب)، (أعمال ندوة)، المتكلّم في السّرد العربيّ القديم، دار محمد علي الحامي، ط١، تونس، ٢٠١١م.
- الراجحي (شرف الدين)، مصطلح الحديث وأثره على الدّرس اللّغويّ عند العرب، دار النهضة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٣م.
- الطّالي (سليمان)، بلاغة النّادرة في الأدب العربي، كنوز المعرفة، ط١، عمّان، ٢٠١٥م.
- الطرابلسي (محمّد الهادي)، بحوث في النصّ الأدبي، الدّار العربيّة للكتاب، ١٩٨٨م.
- الطرابلسي (محمّد الهادي)، تحاليل أسلوبيّة، دار الجنوب للنّشر، تونس، ١٩٩٢م.
- عبد البر (رفعت التَّهامي)، النَّقد الأدبي العربي القديم، دار النَّشر الدُّولي للنّشر والتوزيع، ط١، الرياض، ٢٠٠٨م.
- عبد السلام (فاتح)، الحوار القصصي: تقنياته وعلاقاته السّرديّة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ١٩٩٩م.
- عبد الله (بشرى)، جماليات الزمن في الرواية، منشورات ضفاف وهدهد للنّشر، ط١، بيروت، ٢٠١٥م.

- عبيد (علي)، المرويّ له في الراوية العربية، دار محمّد علي الحامي، ط١، تونس، ٢٠٠٣م.
- عبيد (علي)، مقاربات سرديّة، دار الانتشار العربي والنّادي الأدبي في منطقة الباحة، ط١، بيروت، ٢٠١٤م.
- العدواني (أحمد)، بداية النصّ الروائي مقاربة لآليات تشكّل الدلالة، النادي الأدبي بالرياض والمركز الثّقافي العربي، ط١، ٢٠١١م.
- العروي (عبد الله)، مفهوم الآيديولوجيا، دار التنوير والمركز الثّقافي العربي، بيروت، الدّار البيضاء، ١٩٨٤م.
- عطية (مصطفى)، أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، ط١، ٢٠٠٦م.
- العمامي (محمّد نجيب)، البنية والدلالة في الرواية، مؤسّسة أروقة، ط١، القاهرة، ٢٠١٣م.
- العمامي (محمّد نجيب)، تحليل الخطاب السردي وجهة النَّظر والبعد الحجاجي، النَّاشر كلية الآداب والفنون الإنسانيات بمنوبة ومسكلياني للنَّشر والتَّوزيع، ط١، تونس، ٢٠٠٩م.
- العمامي (محمّد نجيب)، الذَّاتية في الخطاب السَّردي، دار محمّد علي الحامي، ط١، تونس، ٢٠١١م.
- العمامي (محمّد نجيب)، الرَّاوي في السَّرد العربي المعاصر (رواية الثَّمانينيات بتونس)، دار محمّد علي الحامي، ط١، صفاقس، ٢٠٠١م.
- العمامي (محمد نجيب) وآخرون، وجهة النَّظر في الرّواية: بحوث محكّمة، دار محمّد علي الحامّي ونادي القصيم الأدبي في بريدة، ٢٠١٥م.

- العمامي (محمد نجيب)، الوصف في النصّ السردي بين النَّظرية والإجراء، دار محمّد علي للنشر، ط١، تونس، ٢٠١٠م.
- عمر (أحمد مختار)، علم الدلالة، عالم الكتب، ط٥، القاهرة، ١٩٩٨م.
- عياد (شكري محمّد)، القصّة القصيرة في مصر: دراسة في تأصيل فنّ أدبيّ، المجلس الأعلى للثَّقافة، ط١، مصر، ٢٠٠٩م.
- العيد (يمنى)، تقنيّات السّرد الرّوائي في ضوء المنهج البنيوي، دار الفارابي، ط٢، بيروت، ١٩٩٩م.
- فضل (صلاح)، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- فضل (صلاح)، نظرية البنائيّة في النقد الأدبيّ، دار الشروق، ط١، القاهرة، مصر، ١٩٩٨م.
- الفيصل (سمر روحي)، الرواية العربية البناء والرؤيا، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.
- قاسم (سيزا)، بناء الرّواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ)، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ط١، القاهرة، ١٩٨٤م.
- قاسم (سيزا)، الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال، مجموعة بحوث تمهيدية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
- القاضي (محمّد)، الخبر في الأدب العربي: دراسة في السردية العربية، منشورات كلية الآداب، منوبة، تونس، ودار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.
- القاضي (محمّد)، تحليل النص السّردي بين النظرية والتطبيق، مسكيلياني للنشر، ط١، تونس، ١٩٩٧م.

- القالي (أبو علي)، الأمالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
- قسومة (الصادق)، طرائق تحليل القصة، دار الجنوب للنشر، ط١، تونس، ٢٠٠٠م.
- القصراوي (مها حسن)، الزَّمن في الرواية العربية، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ٢٠٠٤م.
- كيليطو (عبد الفتاح)، الحكاية والتأويل دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، ط١، الدار البيضاء، ١٩٨٨م.
- كيليطو (عبد الفتاح)، الغائب: دراسة في مقامة للحريري، دار توبقال للنشر، ط٣، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
- لحميداني (حميد)، بنية النَّص السَّردي (من منظور النَّقد الأدبي)، المركز الثَّقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩١م.
- لحميداني (حميد)، القراءة وتوليد الدلالة، المركز الثَّقافي العربي، ط١، بيروت، الدّار البيضاء، ٢٠٠٣م.
- مالطي دوجلاس (فدوى)، بناء النص التراثي، المكتبة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.
- مرتاض (عبد الملك)، في نظرية النقد، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، د. ط، الجزائر، ٢٠٠٢م.
- مرتاض (عبد الملك)، نظرية النصّ الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر، ط٢، الجزائر، ٢٠١٠م.
- المرزوقي (سمير)، شاكر (جميل): مدخل إلى نظرية القصَّة تحليلاً وتطبيقًا، طباعة دار الشؤون الثقافية العامّة، بغداد، ١٩٨٦م.

- الوشّاء (أبو الطيب)، الظّرف والظرفاء، دار الفكر اللبناني، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.
- يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي (الزّمن- السرد- التبئير)، المركز الثّقافي العربي، ط٣، الدّار البيضاء، ١٩٩٧م.
- يقطين (سعيد)، الكلام والخبر مقدّمة للسَّرد العربي، المركز الثّقافي العربي، ط١، الدّار البيضاء، ١٩٩٧م.

٣- المراجع المترجمة:

- بارت (رولان)، النَّقد البنيويّ للحكاية، ترجمة: أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، ط١، بيروت، باريس، ١٩٨٨م.
- باشلار (غاستون)، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسّسة الجامعة للدّراسات والنشر والتوزيع، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م.
- بروب (فلاديمير)، مورفولوجيا القصّة، ترجمة: عبد الكريم حسن وسميرة بن عمّو، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، دمشق، ١٩٩٦م.
- بشبندر (ديفيد)، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٦م.
- بياجيه (جان)، البنيويّة، ترجمة: عارف منيمنة، وبشير أبوبري، منشورات عويدات، ط٤، بيروت، باريس، ١٩٨٩م.
- تودوروف (تزفتان)، طرائق تحليل السَّرد الأدبي: مقالة (دراسة مقولات السَّرد الأدبي)، ترجمة: الحسين سحبان وفؤاد صفا، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط١، الرّباط، ١٩٩٢م).
- تودوروف (تزفتان) وآخرون، المرجع والدّلالة في الفكر اللّسانيّ الحديث، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م.

- جونات (جيرار)، خطاب الحكاية (بحث في المنهج)، ترجمة: محمّد معتصم وآخرين، المشروع القومي للتَّرجمة، المجلس الأعلى للثَّقافة، ط٢، الرّباط، ١٩٩٧م.
- جونات (جيرار)، عودة إلى خطاب الحكاية، ترجمة: محمّد معتصم، المركز الثقافي العربي، ط١، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م.
- جونات (جيرار) وآخرون، نظريّة السّرد من وجهة النّظر إلى التبئير، ت: ناجي مصطفى، منشورات الحوار الأكاديمي والجامعي، ط١، الدّار البيضاء، المغرب، ١٩٨٩م.
- مانفريد (يان)، علم السَّرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، دار نينوى، ط١، سوريا، ٢٠١١م.
- هامون (فيليب)، سميولوجية الشخصيّات الروائية، ترجمة: سعيد بنكراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٣م.

٤- المعاجم:

- الحموي (ياقوت)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٣م.
- الرويلي (ميجان)، البازعي (سعد)، دليل الناقد الأدبي، المركز الثَّقافي العربي، ط٣، الدّار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٢م.
- القاضي (محمّد)- إشراف- وآخرون، معجم السَّرديات، الرابطة الدَّولية للنَّاشرين المستقلين، دار محمّد علي للنَّشر، ط١، تونس، ٢٠١٠م.
- ابن منظور (جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور المصري)، لسان العرب، دار إحياء التُّراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٩٩م.

٥- الرّسائل الجامعيّة:

- (حرب) محمد محمود، السَّرد في أدب القاضي التَّنوخي، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه، أشرف عليها: عبد الجليل حسن عبد المهدي، الجامعة الأردنيّة، ٢٠١١م.

- بدري (ربيعة)، البنية السرديّة في رواية (خطوات في الاتّجاه الآخر) لحفناوي زاغز، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، إشراف: رحيمة شتير، جامعة محمد خيضر، الجزائر، ٢٠١٥م.

- بعيرة (عقيلة)، بنية الخطاب السّردي في بخلاء الجاحظ، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، أشرف عليها: إسماعيل زردومي، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ٢٠١٢م.

- البوغالمي (الشّاذلي)، البنية والدّلالة في أخبار القاضي التَّنوخي من خلال كتابيْه، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه، أشرف عليها: الحبيب العوادي، جامعة تونس، ٢٠١٠م.

- درويش (سلوى عبد الفتاح)، المحسن بن علي التَّنوخي، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، أشرف عليها: محمود إبراهيم، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤م.

- الطويرش (مها)، تقنيّات الوصف في الشّعر الأندلسي عصريْ ملوك الطّوائف والمرابطين، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، أشرف عليها: علي عبيد، جامعة القصيم، ٢٠١٧م.

- العجلان (هيفاء محمد)، بناء الشخصيّة في نماذج من الرّواية السعوديّة، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، أشرف عليها: محمد نجيب العمامي، جامعة القصيم، ٢٠١٥م.

- الملقي (أحمد عبد الكريم)، المرأة في أدب القاضي التَّنوخي: دراسة في الرؤية والتشكيل، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير، أشرف عليها: ياسين خليل عايش، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٥م.

٦- المجلاّت العِلميّة:

- ابن رمضان (فرج)، محاولة في تحديد وضع القصص في الأدب العربي القديم، حوليّات الجامعة التونسيّة، ع/ ٣٢، ١٩٩١م.

- إسماعيل (يسرى)، البناء القصصي في كتاب المستجاد، مجلة آداب الرافدين (جامعة الموصل)، ع/ ٤٢، ٢٠٠٥م.
- بلعفير (محمّد)، البنيويّة: النّشأة والمفهوم، مجلّة الأندلس للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، ع/ ١٥ ، ٢٠١٧م.
- شعلان (عبد الوهّاب)، السَّرد العربي القديم، البنية السوسيو ثقافية والخصوصيّات الجماليّة، مجلّة الموقف العربي، دمشق، ع/ ٤١٢، ٢٠٠٥م.
- طعمة (غسان)، مراجعات: البنيويّة في الأدب، مجلّة الموقف الأدبي (النَّاشر: اتّحاد الكتّاب العرب)، ع/ ١٨١، ١٩٨٦م.
- عبد الله (محمّد حسن)، كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التَّنوخي: دراسة تحليليّة، مجلة عالم الفكر، كلية الآداب، جامعة الكويت، المجلد١٤، ع/ ٢، ١٩٨٣م).
- العناز (محمّد)، أخبار التَّنوخي بين الأدبي والتاريخي، مجلّة دراسات (تصدر عن اتّحاد كتّاب الإمارات)، ع/ ٤٠، ٢٠١٥م.
- العوادي (الحبيب)، منهج التأليف عند القاضي التَّنوخي من خلال كتابيه، مجلّة الحياة الثقافيّة، تصدر عن وزارة الشّؤون الثقافيّة، تونس، ع/ ١٧٠، ٢٠٠٥م.
- عيّاد (شكري محمّد)، فنّ الخبر في تراثنا القصصيّ، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ع/٤، ١٩٨٢م.
- الغزالي (عبد الله محمد عيسى)، المكوّنات السَّرديّة للخبر الفكاهي: دراسة في أخبار الحمقى والمغفّلين لابن الجوزي، مجلّة الأدب العربي، ع/ ٩٠، ٢٠٠٣م).
- القسنطيني (نجوى الرّياحي)، الرّواية والرّاوي في كتاب الأغاني، مجلّة الحياة الثقافيّة، تصدر عن وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ع/ ٥٦، ١٩٩٠م.

- مرتاض (عبد الجليل)، المرجعيّة والخطاب، مجلّة جذور، النّادي الأدبي الثّقافي، جدّة، ع/ ٤٣، ٢٠١٦م.
- الوسلاتي (البشير)، القصّ في أخبار الفرج بعد الشدّة للقاضي التّنوخي، حوليّات الجامعة التونسية، ع/٤١، ١٩٩٧م).
- وغليسي (يوسف)، البنية والبنيويّة في المعاجم والدّراسات الأدبيّة واللسانيّة العربيّة، مجلّة الدراسات اللغوية (تصدر عن مختبر الدراسات اللغوية، جامعة منتوري، قسنطينة)، الجزائر، ع/٦، ٢٠١٠م.

فهرس الموضوعات

إجازة الرسالة..... ٤
الشُّكر والامتنان ٥
الملخص العربي..... ٦
المقدّمة ٧
التمهيد: ١١
البنية..... ١٢
الدّلالة ١٥
الخبر الأدبي..... ١٧
التَّنوخي..... ٢٢
كتاب (المستجاد من فعلات الأجواد)..... ٢٣
الفصل الأوّل: الكون الحكائي في (المستجاد):..... ٢٧
مدخل ٢٨
المبحث الأول: البنية الإطاريّة:: ٢٩
١- الإسناد في أخبار (المستجاد) ٢٩
- خصائص الإسناد..... ٣٠
- وظائف الإسناد ٣٢
٢- المتن الحكائي في أخبار (المستجاد)..... ٣٤
- خصائص المتون ٣٤
- وظائف المتون..... ٣٦
المبحث الثّاني: البنية القصصيّة:..... ٣٨
١) الوقائع في أخبار (المستجاد) ٣٨
١- العلاقة العلّية..... ٣٨
٢- العلاقة الزّمانيّة ٣٩
٣- العلاقة المكانيّة ٣٩

٤- البناء الخماسي ٤٢
٢) الشخصيّات في أخبار (المستجاد) ٤٤
١- أبعاد الشخصيّة..... ٤٧
٢- وظائف الشخصيّات..... ٥١
٣) الأزمنة والأمكنة في أخبار (المستجاد) ٥٥
١- الزّمان..... ٥٥
٢- المكان..... ٥٩
الفصل الثّاني: الخِطابُ القصصّي في (المستجاد):..... ٦٦
تمهيد ٦٧
المبحث الأول: زمن القص:..... ٦٨
١) التّرتيب..... ٦٩
الارتداد ٦٩
الاستباق..... ٧٢
٢) السّرعة ٧٤
١- إسراع السرد..... ٧٤
الإضمار ٧٤
المجمل..... ٧٦
٢- إبطاء السّرد ٧٧
المشهد ٧٧
الوقفة..... ٨٠
٣) التّواتر ٨١
المبحث الثاني: الصّيغة: ٨٤
١- أساليب القص..... ٨٤
السّرد..... ٨٤
الحوار..... ٨٦

الوصف ٩٣
٢- وجهة النَّظر ٩٦
وجهة نظر الشّخصيّة ٩٧
وجهة نظر الرّاوي ١٠٠
المبحث الثالث: الصّوت السّردي: ١٠٧
١- زمن السّرد ١٠٧
٢- أعوان السّرد ١٠٩
الرّاوي ١٠٩
المرويّ له ١١٤
الفصل الثالث: الدّلالة في أخبار (المستجاد): ١٢١
تمهيد ١٢٢
المبحث الأوّل: القيمة الأدبيّة ١٢٣
المبحث الثّاني: القيمة المرجعيّة: ١٣٠
١- المرجع النفسيّ-الذاتي ١٣١
٢- المرجع الواقعيّ-التاريخي ١٣٢
- البُعد السياسي ١٣٣
- البُعد الاجتماعي ١٣٧
- البُعد الثقافي ١٤٠
المبحث الثالث: القيمة الآيديولوجيّة: ١٤٣
١- الجانب الدّيني ١٤٤
٢- الجانب الأخلاقي ١٤٧
خاتمة الفصل ١٤٨
الخاتمة: ١٤٩
ثبت المصادر والمراجع ١٥٤
فهرس الموضوعات ١٦٤

The Abstract

Historical literatureis regarded a form of narrative creativity that has had great importance in the writings of ancient people due to the distinctive structure and important semantics it contains. Therefore, I have chosen it as a topic in which I studied its structure and semantics. After I took a look at a great research reference of stories, which is: (Al-Mustajaad Min filaat al-jawaad) by At-Tannukhi, because it did not get its dueconcernbyresearchers, thus its stories remained almost neglected. Therefore, I discussed in the preface the concept of story structure in itsliteral and technical meaning, and I also shed light on the concept of semantics, then I dealt with the concept of historical literature in the ancient encyclopedias and in the modern writings, I presented an introduction to Al-Tannukhi and his book (Al-Mustajaad Min filaat al-jawaad), I then studied the narrative universe, where I dealt with the framework of the stories consisting thechains of narration and wordings, then I studied the story structure, which included multiple stories built upon different structures with different manners charactersand functions, although the general presentation appeared coherent and firmly connected.

When I ponder upon thestories, I concluded that defining its period is not difficult, because of the presence of famous historical figures in most of the stories. The places were clearly knownbecause of names of cities that were the scenes of many historical events, as the places varied between closed and open.

Upon studying the level of the wordings, I tracked the narrative time, style and voice, and it became clear to me that the narrator's presentations speed is ranging betweenfast and slow, while the arrangement was a sequential arrangement that entails his past actions. It turns out that the dominant view is a zero-focus vision from behind, but the common speech in transmitting the words of the characters is in narrative style. However, the presence of the narrator varied;at times being as part of the story and in other times as a narrator from outside. When dealing with the semantic side of the story, I tried to monitor the literature, self-referential and the historical parts, without neglecting the ideological connotations.

I finished the thesis with a conclusion, in which I mentioned the findings, and indexes of bibliography and references.

Kingdom Of Saudi Arabia
Ministry Of Education
Qassim University
College Of Arabic Language and Social Studies

The Literary News: The Structure and Indications in Al-Mustajād min Fiɛlāt Al-Ajwād By Al-Tannūkhī

A thesis submitted in Fulfillment of the Requirments for Master Degree In Literature,Specialization:Literary studies

Prepared by:

Sheikhah Dahl Ubaid Al-Dhafeeriy

Academic no.381200141

Supervisor:

Dr.Ali bin Al Habib Ubaid

Associate Professor of Literature and Narrations,Department of Arabic Language- Al-Qassim University

1441-1442 **AH/** 2020- 2021 **AD**